

الدكتور عبد الرحمن أحمد سالم

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢٣٩	عبد الرحمن أحمد سالم.
رح ر س	الرسول ﷺ : حياته وتطور الدعـوة الإسلامية فى عصره/ عـبد الـرحمن أحـمـد سالـم. القـاهرة : دار الفكـر العـربى ، ٢٠٠٣.
	٢١٦ ص ؛ ٢٤ سم.
	ببليوجرافية : ص ٢٠٩ ـ ٢١٦
	تدمك : ٦ ـ ١٢٦٠ ـ ١٠ ـ ٩٧٧
	١ ـ محـمد رسول الله ﷺ، ابن عبـد الله بن عبد الـمطلب، ٥٣ ق هـ ـ ١١ هـ . ٢ ـ السيرة النبويـة ـ عصر الجهاد فى سبيل نشر الدعوة . أ ـ العنوان.

تصميم وإخراج فنى

السيد أحمد سيف

تنفيذ وطباعة الكتاب: مطبعة البردى بالعاشر من رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تمثل سيرة النبى محمد ﷺ أحد الموضوعات التى يتجدد الحديث حولها دائمًا رغم غزارة ما كتب عنها في القديم والحديث، باللغة العربية وغيرها. وإن كل من يكتب عن الرسول ﷺ لواجدٌ فى حياته معينًا لا ينضب من المواقف والدروس والتجارب التى تزداد ثراء وعمقًا بإعادة النظر فيها وإلقاء مزيد من الضوء عليها. وهذا الكتاب يمثل محاولة لتقديم الجوانب الأساسية فى حياته ﷺ، دون الدخول فى التفاصيل التى قد لا تسهم كثيرًا فى جلاء الصورة، بل لعلها تشتت انتباه القارئ. وقد أخذنا فى الاعتبار أن تكون هذه الجوانب مستمدة من أوثق مصادر السيرة وأضبطها.

وتتعدد أنواع المصادر التى يعتمد عليها باحثو السيرة. فهناك ما يمكن أن نطلق عليه اسم المصادر المتخصصة فى السيرة، ويأتى على رأسها سيرة ابن هشام ومغازى الواقدى من المصادر المتقدمة، وهناك العديد من المصادر المتأخرة فى هذا الجانب، وهى تكاد تعتمد اعتمادًا كاملا على تلك المصادر المبكرة. ثم هناك كتب طبقات الصحابة، وهى التى تدور حول ما يعرف فى السنة النبوية بـ «علم الرجال» وعلى رأسها كتاب «الطبقات الكبرى» لمحمد بن سعد، ومن كتب المتأخرين التى تحتل أهمية خاصة فى هذا المجال كتاب «أُسْد الغابة» لابن الأثير. وهناك مصدر أساسى من مصادر السيرة يتمثل فى كتب الحديث وخاصة الصحاح الستة، ويأتى على رأسها بالطبع صحيح البخارى وصحيح مسلم. ومن مصادر السيرة التى لا ينبغى التقليل من أهميتها كتب التاريخ العام أو الحوليات، ولعل أهم هذه المصادر على الإطلاق «تاريخ الطبرى»؛ فهو يتسم بغزارة مادته وتعدد رواياته وحسن عرضه مع تحرى الدقة فى هذا العرض. ومن المصادر المتأخرة التى تدور فى هذا الإطار: كتاب الكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى.. على سبيل المثال لا الحصر.

هذا؛ وتمثل كتب الأنساب أحد المصادر الأساسية للسيرة. وينبغى هنا التنويه بصفة خاصة بكتاب «أنساب الأشراف» للبلاذرى، فهو غنى بمادته التى يدور الكثير منها

حول أحداث السيرة. والبلاذرى يتحرى الدقة فى تقديم مادته التى قد لا توجد أحيانًا فى غيره من المصادر.

بقى أن نشير أيضًا إلى الكتب الجغرافية أو كتب البلدان التى تتضمن كثيرًا من المادة التاريخية، وهذه الكتب عديدة، ومن أشهرها كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموى.

ولا ينبغى أن يفوتنا هنا أن نتحدث عن القرآن الكريم بصفته مصدرًا أساسيًّا من مصادر السيرة. صحيح أن إشارات القرآن إلى أحداث السيرة قد تكون مختصرة فى كثير من الأحيان، ولكن أهميتها البالغة تكمن فى وثاقتها التى لا تقبل المناقشة. ويمكن أن يضاف إلى ذلك مصادر التفسير القرآنى. فلا شك أنها من بين المصادر المساعدة فى هذا المجال.

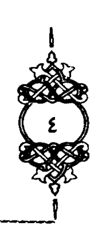
أما المراجع الحديثة فلا شك أنها تقدم وجهات نظر قد تكون فى كثير من الأحيان جديرة بالمناقشة، ويتضح ذلك بصفة خاصة فى الكثير مما يكتبه الباحثون الغربيون. ويعتبر المستشرق البريطانى «مونتجو مرى وات» من أبرز كتاب السيرة الغربيين فى العصر الحديث، فقد خصص لها عددًا من مؤلفاته، ورغم ما يوصف به «وات» من اعتدال فإن الكثير من آرائه يحتاج إلى إعادة نظر، وقد أشرنا إلى بعضها فى هذا الكتاب.

ورغم أن كتابنا هذا قد أغفل كثيرًا من التفاصيل المتصلة بالسيرة النبوية فإننا نطمع أن يكون قد نجح فى تغطية أهم جوانبها وفى إثارة فضول القارئ لمعرفة المزيد.

والله من وراء القصد.

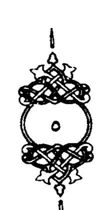
د. عبد الرحمن سالم

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة



كشاف الموضوعات

الموضوع	الصفحة



الموضـــــوع	الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

عن أوضاع شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام

المقصود بشبه الجزيرة العربية:

يقصد بشبه الجزيرة العربية تلك المنطقة الواقعة فى الجنوب الغربى من آسيا، ويحدها من الشمال بلاد الشام، ومن الجنوب المحيط الهندى، وخليج عدن، ومن الشرق الخليج العربى والفرات، ومن الغرب البحر الأحمر وخليج العقبة.

وتنقسم شبه الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام أساسية هى: تهامة، ونجد، والحجاز، والعَروض، واليمن، وترتبط هذه الأقسام بجبل السراة، وهو أعظم جبال شبه الجزيرة العربية، وهو يمتد من أقصى جنوبها فى اليمن إلى أقصى شمالها فى أطراف بادية الشام. فالمنطقة الواقعة غربى جبل السراة حتى ساحل البحر الأحمر تتميز بانخفاضها، وهى لهذا تسمى تهامة أو الغَوْر. والمنطقة المرتفعة الواقعة شرقى جبل السراة سميت (نجدًا) لارتفاعها. والمنطقة الفاصلة بين تهامة ونجد سميت (الحجاز) لحجزها بينهما[1]. والمنطقة الواقعة شرقى (نجد) حتى الخليج العربى من بلاد اليمامة والبحرين وما والاها سميت (العَروض) «بفتح العين» لاعتراضها ما بين اليمن ونجد وأطراف فارس[2]. وتقع المنطقة الخامسة، وهى اليمن، فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة العربية، ويلحق بها عدن وحضرموت والشِّحْر[3]، ولا يعرف على وجه القطع سر تسمية هذه المنطقة باليمن، ويقال إنها سميت بذلك ليمنها أو لوقوعها على يمين الكعبة[4].

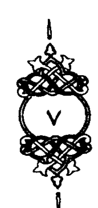
---

(١) ياقوت: معجم البلدان، جـ ٥، صـ ٣٠٤.

(٢) نفس المصدر السابق، جـ ٤، صـ ١٢٦.

(٣) الشِّحْر (بكسر أوله وسكون ثانيه): بين عدن وعمان ياقوت، جـ٣، صـ٣٧١.

(٤) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربى، صـ ٦، وانظر أيضًا: Ph. Hitti, History of the Arabs, P. 44.



سكان شبه الجزيرة العربية:

استوطن العـرب شبه الجزيرة العربيـة منذ عهود موغلة فى القـدم، وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم العرب إلى ثلاث طبقات:

١ - العرب البائدة : وهم الذين زالت آثارهم من مسـرح التاريخ ، ولم يبق من أخبـارهم إلا القليل، ومن قبـائلهم المشـهورة: عاد وثمود الذيـن ورد ذكرهم فى القرآن الكريم، ومنهم كذلك: طَسْم وَجَدِيس[١].

٢ - العرب العاربة : وهم عرب الجنوب من أهل اليمن وما حولها، ويعرفون بالقحطـانيين، أى أبناء قحطان، ولا يـعنينا هنا الدخول فـى تفاصيل اختلاف الـنسَّابين حول النسب الكامل لقحطان[٢]، ولكن الذى يعنينا أن قحـطان هو الجد الأعلى لعرب الجنوب، أو القحطانيين،فمن أشهر قبائل القحطانيين حِمْير (بكسر الحاء وسكون الميم وفتح الياء)، وكهلان ، ومن أشهر قبائل حمير (قـضاعة) التى ينتمى إليها التبابعة ملوك اليمن المشهورون[٣]، ومن أشهر قبائل كهلان (طىء والأزد). وإلى الأزد ينتسب الأوس والخزرج[٤].

٣ - العرب المستعربة : وهم عرب الشمال من نسل عدنان الذى ينتهى نسبه إلى إسماعيل بـن إبراهيم - عليهما السلام - ويعـرفون بالعدنانيين. ولفظ «المـستعربة» يشير إلى اختلاط دمهم بدم غير عربى. والمـعروف أن إسماعيل تزوج من قبيلة جرهم العربية التى كانت تقيم بواد قريب من مكة[٥] ، ثم تعرب نسله بعد ذلك، فهم العرب المستعـربة، وأول من يُعَدّ من العرب المسـتعربة هو عدنان الذى يختـلف النسابون فى تفاصيل نسبه، وإن كان الكل يجـمع على أنه ينتهى إلى إسماعيل عليه السلام ، ولعدنان من الولد :معد،وعك.وأشهر أولاد معد هو نزار،وله من الولد مضر وربيعة وإياد (ويضاف إليهم أنمار أحيانًا) .والصحيح المـحض الذى لا شـك فـيه - كمـا يذكر ابـن حـزم - -

---

(١) ويطلق على هـؤلاء العرب أحيانًا مـصطلح «العرب العاربـة». انظر : ابن حزم: جمهـرة أنساب العرب، صـ ٦- ٧ . أما عرب الجنوب الآتى ذكرهم فهم العرب القحطانيون.

(٢) حول تفاصيل ذلك ارجع إلى ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب ، صـ ٧-٨.

(٣) ابن قتيبة: المعارف: صـ ١٠٣ - ١٠٤.

(٤) نفس المصدر صـ ١٠٩.

(٥) تاريخ الطبرى ، جـ ١ ، صـ ٢٥٨.



أن قبائل مضر وقبائل ربيعة ابنى نزار، ومَنْ تَناسَلَ مِن إياد ومن عك، هم صرحاء ولد إسماعيل عليه السلام[1]. وإلى مضر تنتمى قريش قبيلة النبى ﷺ.

طبيعة الحياة فى شبه الجزيرة العربية وانعكاسها على أوضاعها الحضارية قبل الإسلام:

اتسمت منطقة شبه الجزيرة العربية بأنها - فى معظمها - جدباء غير ذات زرع، ومن هنا فقد غلب عليها طابع الحياة البدوية التى تقوم على الترحال من مكان إلى مكان سعيًا وراء المرعى حيث لا يُعرف لمطرها القليل مكان معلوم أو موسم محدد.

ولكن اليمن فى الجنوب تعد استثناء من تلك المنطقة بما منحها الله من أمطار غزيرة وطبيعة خضراء ومناخ معتدل؛ ولهذا عرفت اليمن فى التاريخ باسم: اليمن السعيد Arabia Felix[2]، فلا غرو - إذن - أن تقوم فى تلك البقعة من شبه الجزيرة العربية أسس حضارة وطيدة، حيث توافر لها من الظروف الطبيعية ما لم يتوافر لسواها من بقية أرجاء شبه الجزيرة، وإن حضارة مملكة سبأ وسد مأرب العظيم لشاهد على ما بلغته هذه البلاد من رقى وعظمة.

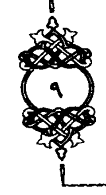
لم تتمتع بقية شبه الجزيرة العربية إذن بما تمتعت به اليمن من طبيعة ساعدتها على الاستقرار والتقدم. وقد كان من الطبيعى - والأمر كذلك - أن تكون القبيلة هى ركيزة الحياة الاجتماعية والسياسية فى شمال شبه الجزيرة. فحياة الجفاف والخشونة التى عاشتها هذه المنطقة جعلت الصراع من أجل السيطرة على ما يتاح من ماء ومرعى أمرًا طبيعيًّا مألوفًا. وحيث إنه من المتعذر وجود حكومة مركزية تدير شئون مجتمع بدوىّ متنقل كهذا وتضمن له أمنه؛ فقد كان على الفرد أن يلتمس الأمن فى حمى قبيلته، وكان على كل قبيلة أن تختار زعيمًا أو سيدًا يتولى أمورها، وبهذا أصبحت القبيلة تمثل كيانًا قائمًا بذاته يسعى قدر طاقته إلى تأمين وسائل الحياة لأفراده، ولو على حساب غيره من الكيانات التى لا تتمتع بنفس القدر من القوة.

وقد انبثقت من هذا المفهوم للقبيلة العربية قبل الإسلام مجموعة من القيم والتقاليد التى تأصلت فى حياة العربى الجاهلى، وكان بعضها إيجابيًّا بنّاءً وبعضها الآخر سلبيًّا مدمرًا.

---

(١) جمهرة أنساب العرب، صـ ١٠.

(٢) انظر مناقشة فيليب حتى لذلك فى كتابه : History of the Arabs, P. 44.



فمن القيم الإيجابية قيم الشجاعة والنخوة والكرم؛ فلابد فى ابن الصحراء الموحشة أن يكون شجاعًا، وإلا لما استطاع مواجهة مخاطرها. والشجاع دائمًا ذو نخوة وشهامة؛ فهو يأبى الضيم، ويخفُّ لنجدة المستغيث، **أما الكرم** فهو صفة كان يقدرها عرب الجاهلية حق قدرها؛ لأن المسافر فى تلك الفيافى القاحلة قد يتعرض لخطر الموت إن لم يجد من يسعفه بالطعام أو الشراب أو المأوى. ولهذا كان إشعال النار فى ليل الصحراء أمرًا يحرص عليه الكرماء فى ذلك الزمان حتى يهتدى على ضوئها من ضل الطريق أو نفد طعامه أو شرابه.

أما القيم السلبية التى سادت عند عرب الجاهلية فقد كان من أهمها انتشار روح العصبية الذميمة، وسيادة قانون القوة فى علاقات الأفراد والجماعات وتحكُّم نزعة الثأر والانتقام فى النفوس ، وما يصحب ذلك من طيش واندفاع أعمى وراء النزوات الطارئة، ثم المكانة المنحطة للمرأة فى مجتمع ما قبل الإسلام.

ويرجع انتشار روح العصبية إلى أن حياة الجاهليين ـ كما أسلفنا ـ كانت تدور حول محور القبيلة؛ فالقبيلة كانت تمثل وحدة سياسية مستقلة فى ذلك الزمان. ومن هنا كان انتماء العربى كاملاً لقبيلته؛ فهو يربط مصيره بمصيرها، ويسارع إلى نصرتها فى ميدان القتال، ولا يعنيه بعد ذلك أكانت على الحق أم على الباطل.

ونحن نجد صدى لذلك الخلق الذميم فى الأدب الجاهلى، ومن ذلك قول شاعرهم:

قومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زرافاتٍ ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   فى النائبات على ما قال برهانا

أما سيادة قانون القوة فذلك أمر طبيعى حين تختفى الحكومات التى تحدد فى دساتيرها حقوق الفرد وواجباته وتصون فى نفس الوقت حقوقه من أن يجار عليها فلا يرى الأفراد حينئذ منهجًا لصيانة حقوقهم وتأمين حياتهم إلا منهج القوة. وكلما أمعن الفرد فى اتباع هذا المنهج كان ذلك من وجهة نظره أجْلبَ للأمن وأدْعَى للطمأنينة، فليس غريبًا إذن أن نجد الشاعر الجاهلى زُهير بن أبى سُلْمَى يقول فى معلقته المشهورة:





ومن لم يذُدْ عن حوضه بسلاحه يُهَدَّمْ ومن لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَم

إن هذا يعنى أن البدء بالظلم كان يمثل فى نظر الجاهلى وسيلة لدرء ظلم متوقع.

ومرة أخرى نقول: إن اختفاء الحكومة أو السلطة الشرعية جعل العربى الجاهلى يتقمص دورها ويمسك بالقانون فى يديه، فلا يجد من سبيل إذا لحق به ظلم إلا أن يثأر لنفسه ويشبع رغبة الانتقام فى داخله. والثأر يؤدى إلى الثأر. وهكذا وجدنا قبائل أوشك أن يفنى بعضها بعضًا نتيجة تلك الرغبة العارمة فى الانتقام دون أن تجد حكومة شرعية تقف فى طريقها أو مبدأ دينيًا يكبح جماحها، والمؤكد أن كثيرًا من الأسباب التى أثارت حروب العرب فى الجاهلية كان تافها، ولكن النفس عندما تخلو إلا من دوافع الانتقام والأثرة والبغضاء تهبط إلى درك الحيوانية فى علاجها للأشياء. وتُعدّ حرب داحس والغبراء ـ وهى الحرب التى استمرت أربعين سنة ـ مثالاً واضحًا على ذلك[1]. وإلى تلك الحرب يشير زهير بن أبى سُلْمَى فى قوله يمدح هرِم بن سنان والحارث بن عوف:

تداركتما عَبْسًا وذُبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منْشم[2]

وهناك أيضًا تلك الحرب المدمرة التى نشبت بين قبيلتى بكر وتغلب اللتين

---

(1) داحس والغبراء اسما فرسين كانا لقيس بن زهير بن جَذيمة العَبْسى نُسبت إليهما تلك الحرب بين عبس وذبيان، وكان سببها رهانًا بين قيس بن زهير وحَذيفة بن بدر الفزارى (من ذُبيان) على سباق الخيل، وقد دخل حذيفة السباق بفرسين هما الخطار والحَنْفَاء، ولكنه أمر بعض رجاله أن يعوقوا مسيرة داحس والغبراء أثناء السباق، ومن هنا نشبت تلك الحرب المشهورة التى اشترك فى بعض ملاحمها عنترة بن شداد العبسى، وتحدث عنها فى شعره. لمزيد من التفاصيل راجع: ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ1 ، صـ ٥٦٦-٥٨٣، والأصفهانى: الأغانى ، جـ ١٧ صـ ١٨٦-٢٠٨.

(2) منْشم (بفتح الشين وكسرها) يقال إنها امرأة كانت بمكة عطارة ، وكانت خُزاعة وجُرْهُمٌ إذا أرادوا القتال تطيبوا من طيبها، وكانوا إذا فعلوا ذلك كثر القتلى فيما بينهم، فكان يقال: أشأم من عطر منشم، فذهبت مثلا، وهناك أقوال أخرى فى المقصود من هذه الكلمة راجعها فى (لسان العرب) لابن منظور، مادة «نشم» . والمراد على أى حال أن عبسًا وذبيان كانوا قد عزموا على أن يفنى بعضهم بعضًا.



تنتميان معًا إلى وائل، وهى الحرب التى أثارها مقتل كليب، وقد كادت كل من القبيلتين أن تفنى الأخرى ، وقد استمرت هذه الحرب أربعين سنة كذلك[1].

ولا شك أن انحطاط مكانة المرأة فى الجاهلية يرتبط بتلك العادات الذميمة التى تحدثنا عنها. فإذا كانت العصبية متحكمة فى النفوس وقانون القوة هو السائد والصراع هو منهج الحياة ونظامها، فمن الطبيعى أن يتضاءل دور المرأة وتنحط قيمتها فى أرجاء تلك الغابة. وقد بلغ استهتار الجاهليين بمكانة المرأة حدًّا جعل بعضهم يقدم على قتل مولودته الأنثى دون وازع من ضمير أو قانون. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الخلق الذميم فى غير موضع ؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾[3].

.. هذه لمحة خاطفة من صورة الحياة القبلية التى كانت مسيطرة بعاداتها وتقاليدها على شمال شبه الجزيرة العربية. ولكن هذه المنطقة لم تخل تمامًا من معالم الحياة الحضرية، وهذا ما سوف نتحدث عنه الآن باختصار.

أهم المراكز الحضرية فى شمال شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام:

تحققت ملامح الحياة الحضرية فى شمال شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام فى عدد من المراكز أهمها: مكة، ويثرب، والطائف.

أما مكة فهى تقع بين الطائف ويثرب فى الحجاز، وهى إلى الجنوب من يثرب،

---

(١) راجع التفاصيل فى الكامل لابن الأثير، جـ ١ ، صـ ٥٢٣-٥٣٩، والأغانى للأصفهانى جـ٥ صـ٣٤ - ٦٤.

(٢) سورة النحل: ٥٨ - ٥٩.

(٣) سورة التكوير: ٨-٩ . ويقول الزمخشرى فى تفسيره لهذه الآية: «كانت الحامل إذا أقربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتًا رمت بها فى الحفرة، وإن ولدت ابنًا حبسته» ويضيف فى هذا السياق أن صعصعة بن ناجية، جد الفرزدق الشاعر، كان ممن منع الوأد فى الجاهلية؛ فبه افتخر الفرزدق فى قوله:

ومنا الذى مَنَع الوائدات ... فأحيا الوئيد فلم توأدِ

انظر الكشاف ، جـ٤ ، صـ ٧٠٣ ـ ٧٠٨.

والوائدات هى القبائل التى كانت تدفن بناتها أحياء، والمقصود بالوئيد المشرفات على الموت، وهو من قبيل المجاز، وافتخار الفرزدق بجده الذى منع هذه العادة دليل على انتشارها.



وإلى الشمال الغربى من الطائف، وطبيعتها طبيعة وعرة؛ فالوادى الذى تقوم فيه تكتنفه الجبال، وهو وادٍ غيرُ ذى زرع كما وصفه القرآن الكريم. وقد نتوقع - نتيجة لهذا - ألا تتهيأ أسباب الحياة الحضرية لمكة.

ولكن الواقع أن مكة تمتعت بوضع تجارى متميز؛ فقد كانت ملتقى القوافل التجارية القادمة من اليمن إلى الشام ومن الشام إلى اليمن[1]. وهذا الوضع المتميز لمكة أتاح لأهلها الثراء والمشاركة فى تلك الحياة التجارية المزدهرة. وقد ضربت قبيلة قريش بسهم وافر فى ذلك النشاط، وكانت هناك رحلتان تجاريتان تشهدهما مكة فى كل عام، وهما رحلة الشتاء ورحلة الصيف: الأولى إلى اليمن، والثانية إلى الشام[2]. وسوف نتحدث حديثًا مستقلا فى موضع آخر عن دور قريش فى ذلك النشاط التجارى وعن مكانتها فى مكة بصفة عامة، ولكن الذى يعنينا إبرازه هنا هو أن مكة بحكم مكانتها التجارية المتميزة اكتسبت طابعًا حضاريًا، وكانت تعتبر فى الواقع عاصمة ذلك الجزء من شبه الجزيرة العربية، وذلك رغم الطبيعة الجافة القاسية التى كانت تحيط بها.

على أن مكة تمتعت بمكانة أخرى مهمة فوق مكانتها التجارية، وتلك هى المكانة الدينية الرفيعة التى جعلتها مهوى الأفئدة ومَحَطَّ الرحال. فالكعبة بيت الله الحرام التى أنشأها إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - كانت فى تلك البقعة المباركة[3]، بل إن نشأة الكعبة ارتبط بها اتساع عمران مكة واستقرار إسماعيل - عليه السلام - فيها عند قدومه مع أبيه إبراهيم - عليه السلام - وأمه هاجَر: ﴿ **رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** (٣٧) ﴾[4]، وقد كان انبثاق عين زمزم استجابة إلهية لدعاء الخليل إبراهيم - عليه السلام - وأصبحت مكة ﴿ .. **حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ**

---

(١) عباس محمود العقاد: مطلع النور، صـ ١١٢ - ١١٣.

(٢) وقد أشار القرآن الكريم إلى الرحلتين فى قوله تعالى: ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ** .. ﴾ سورة قريش: [١ - ٢].

(٣) يقول ياقوت فى تفسير كلمة الكعبة: «سميت الكعبة؛ لأنها مكعبة على خلق الكعب، وقيل: التكعيب التربيع، وكل بناء مربع كعبة، وقيل: سميت لارتفاع بنائها، وكل بناء مرتفع فهو كعبة، ومنه: كَعَبَ ثديُ الجارية إذا علا فى صدرها وارتفع». معجم البلدان جـ ٤ صـ ٥٢٨.

(٤) سورة إبراهيم: [٣٧].



﴿كُلِّ شَيْءٍ ..﴾ [١] وانضمت إلى مكانتها التجارية مكانتها الدينية لتجعل منها مركزًا حضاريًا متميزًا، فاستحقت بجدارة لقب «أم القرى»[٢].

أما يثرب ـ وهى التى عرفت باسم «المدينة» فى العصر الإسلامى ـ فإنها لم تنافس مكة فى مكانتها التجارية أو الدينية رغم أن أهلها كانوا على قدر لا بأس به من الاستقرار والأخذ بأسباب الحضارة. وكان سكانها يتكونون فى جملتهم من العرب واليهود. أما العرب فيتمثلون فى قبيلتى الأوس والخزرج اللتين تنتميان معًا إلى قبيلة الأزد اليمانية. وقد هاجرت كلتا القبيلتين من اليمن بعد انهيار سد مأرب الذى يضعه بعض المؤرخين فى حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى[٣]. أما اليهود فهم قبائل بنى قينقاع وبنى قُرَيْظة وبنى النَّضير. وقد ورث الأوس والخزرج كثيرًا من التقاليد الحضارية عن أجدادهم اليمنيين، كما عُرِف اليهود أيضًا بنشاطهم التجارى وباهتمامهم التقليدى بالصياغة وببعض المهن الأخرى كالزراعة والحدادة وصنع الأسلحة. وهكذا تجلى الطابع الحضرى فى مجتمع يثرب بوضوح ويثرب ـ مثل مكة ـ كانت فى الأصل محطة على الطريق التجارى الممتد من الجنوب إلى الشمال، أى من اليمن إلى الشام[٤].

وأخيرًا نأتى إلى الطائف، وهى إلى الجنوب الشرقى من مكة، وقد تميزت باعتدال مناخها مما شجع على الاستقرار فيها، كما تمتعت بالمياه الجارية التى حولت أرضها إلى بساتين حافلة بأنواع الثمار، واشتهرت على الأخص ببساتين العنب البالغ الجودة الذى «لا يوجد مثله فى بلد من البلدان» كما يقول ياقوت[٥]. وعرف أهل الطائف بالثراء الوافر وكانت لهم حصونهم المنيعة. وتمثل قبيلة «ثقيف» أهم العناصر التى تكوَّن منها مجتمع الطائف وهى تنتمى إلى قيس عيلان بن مضر[٦]، فهم من عرب الشمال العدنانيين. وكان بالطائف أيضًا قوم من حمير وقوم من قريش[٧].

---

(١) سورة القصص: [٥٧].

(٢) يقصد بالقرية فى التعبير القرآنى المدينة أو الحاضرة، فأم القرى هى أم المدن أو الحواضر، أى العاصمة بالتعبير الحديث، وفى التنزيل العزيز: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ . سورة الشورى: [٧].

(3) De lacy O` leary , History of Arabia Before Muhammad, P. 89.

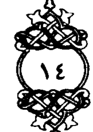
هذا؛ ولا يتفق المؤرخون حول التاريخ الدقيق لانهيار سد مأرب الذى ينسب البعض حدوثه إلى وقت أسبق مما ذكرنا. راجع جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٣ ، صـ٣٨٧-٣٨٨.

(4) Ibid. , P. 8.

(٥) معجم البلدان: جـ٤، صـ ١١ .

(٦) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، صـ ٢٦٦.

(٧) ياقوت : معجم البلدان، جـ ٤ ، صـ ١٠ .



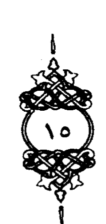
إن ما ينبغى أن نؤكده هـنا أن هذه المراكز الحضرية فى شبه الجـزيرة العربية لم تكن إلا استـثناءات خارجة علـى نمط الحياة العـام هناك، ولم تؤثر هذه الاسـتثناءات بصورة كبيرة على سيطـرة الحياة القبلية بعاداتها وتقاليدها على شـبه الجزيرة العربية فى مجملها.

إمارتا اللخميين والغساسنة: ظروف نشأتهما وطبيعة دورهما:

لا شك أن حياة الجفاف والـفقر التى سيطرت على شبه الجزيـرة العربية جعلت بعض القبائل فيهـا تتخذ من غارات السلب والنهب على المناطق المتاخمة الأكثر غنى أسلوبًا لتـحصيل وسائل العـيش، وقد كانت الأقاليم المـجاورة التى تتمتـع بالخصب والثراء هى تلك التى كانت تنتمى إلى إمـبراطوريتى الفرس والروم، فالعراق إلى الشرق كانت تخضع لسيطرة الفرس، والشام إلى الـشمال كانت تخضع لسيطرة الروم. وهكذا وجدنا بدو الجزيرة العربية يشنون غارات متـوالية على تلك الأقاليم، ممًّا شكَّل مصدر إزعاج لدولتى الفرس والـروم. وكان على الدولتين أن تفكرا معًـا فى وسيلة تضع حدًّا لتصاعد تلك الغارات. ومن هنا تهيأت الظروف لنشأة إمارتى اللخميين والغساسنة.

أ - إمارة اللخميين أو مملكة الحيرة:

ينتـمى اللـخمـيون إلى قـبيـلة كهـلان التى تـنتمـى بدورها إلى عـرب اليـمن القحطانيـين. وقد نشأت إمارة اللخميـين بمدينة الحيرة بالـعراق فى حدود سنة ٢٤٠م تحت رعاية الفرس الساسـانيين؛ وذلك لتحقيق أهداف السياسة الفـارسية فى المنطقة، وعلى رأس هذه الأهـداف صد غارات السـلب والنهب التى دأب عـرب شبه الـجزيرة العربية عـلى توجيهها ضـد حدود الإمبراطورية الفارسـية، وهكذا قامت مدينـة الحيرة تحت إمارة اللخميـين بدور المنطقة العازلة **Buffer Zone** وأدت الغرض الـذى أناطه الفرس بـاللخميـين على خيـر وجه. وكان مـن بين المهـام الأخرى التى اضطلـع بها اللخميون فى الحيرة دعم الفرس فى صراعهم الطويل ضد البيزنطيين (الروم). ورغم أن الفرس لم يكونوا أهل كتاب فـإنهم سمحوا لعرب الحيرة باعتناق المسـيحية النسطورية التى كانت تناصب المذهب الملكانى العداء، وهو المذهب الذى كانت تدين به الكنيسة البيزنطيـة. وقد بلغت إمارة الحيرة قمة مـجدها فى عهد المنذر الثالـث ابن ماء السماء الذي كان معـاصرًا للإمبراطور الـفارسي كسرى أنوشـروان (٥٣١-٥٧٩م) والإمبراطور البيزنطى جسـتنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م). ولكن دولة المناذرة اللخميـين بالحيرة بدأت تتدهور بعد مقـتل المنذر الثالث سنة ٥٥٤م على يد الحارث بن جبـلة الغسانى حليف



البيزنطيين[1]، وانتهى الأمر بالفرس إلى أن يفقدوا ثقتهم باللخميين، وقد غضب الإمبراطور الفارسى على النعمان بن المنذر ملك الحيرة اللخمى (وممدوح النابغة الذبيانى) فحبسه حتى مات فى محبسه سنة ٦٠٢م، وبموته قضى الفرس على حكم اللخميين فى الحيرة وأخضعوا المدينة لسيطرتهم المباشرة [2].

ب ـ إمارة الغساسنة بالشام:

الغساسنة هم بنو مازن بن الأزد، وينتهى نسبهم ـ كما ينتهى نسب أبناء عمومتهم اللخميين ـ إلى كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان؛ فهم ينتمون ـ إذن ـ إلى عرب اليمن القحطانيين.

ولا نعرف على وجه اليقين تاريخ هجرة الغساسنة إلى الشام، وإن كان بعض المؤرخين المحدثين يرجح أن هذه الهجرة بدأت فى حدود عام ٢٥٠م[3]. وهذا يعنى أن وجودهم فى الشام سبق وجود البيزنطيين هناك.

وعندما فرض البيزنطيون سيادتهم على الشام استعانوا بالغساسنة فى تدعيم نفوذهم فى ذلك الإقليم وولوهم الإمارة على جميع القبائل العربية المقيمة على الحدود بين الشام وشبه الجزيرة العربية مثل جذام وكلب وجهينة والقين وبهراء وبلى وتنوخ وسليح وغيرها من قبائل العرب. وعقد البيزنطيون مع الغساسنة حلفًا قام على أساس الدفاع المشترك، بحيث يقدم الغساسنة للبيزنطيين العون العسكرى ضد القبائل العربية التى تهاجم حدود الإمبراطورية البيزنطية وضد الفرس؛ كما يقدم البيزنطيون ـ من جانبهم ـ للغساسنة العون العسكرى اللازم إن تعرضوا لهجوم مماثل.

وقد اعتنق الغساسنة المسيحية فى غضون القرن الرابع الميلادى وحاولوا نشرها بين القبائل العربية الأخرى وخصوصًا فى الشام ومدينة نجران باليمن، ولكن المسيحية التى اعتنقها الغساسنة كانت على المذهب المونوفيزيتى[4](اليعقوبى فيما بعد) المخالف للمذهب الملكانى (الديوفيزيتى)[5] وهو المذهب الرسمى للإمبراطورية البيزنطية.

---

(1) O`leary, Arabia Before Muhammad, P. 165.

(٢) راجع مادة «الحيرة» فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم بول Buhl وعرفان شهيد، جـ ١٦، صـ ٢٣٤-٢٣٨.

(٣) د. عبد الرحمن سالم: المسلمون والروم فى عصر النبوة، صـ ٣٦-٣٧.

(٤) وهو يعنى مذهب الطبيعة الواحدة فى السيد المسيح، أى الطبيعة الإلهية.

(٥) وهو يعنى مذهب الطبيعتين فى السيد المسيح: الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية.



ولم يتخذ الغساسنة مركزًا ثابتًا بالشام بل كان لهم معسكر متنقل، وأبرز الأماكن التى ارتبط اسمهم بها إقليم حوران وعاصمته بصرى، وإقليم الجولان وعاصمته الجابية، وقد مثلت مدينة بصرى أهم مركز دينى للغساسنة، كما مثلت الجابية أهم مركز سياسى لهم، وقد كان لمدينة (جلّق) جنوبى حوران دور سياسى ملحوظ فى تاريخ الغساسنة ، وهى التى أشار إليها حسان بن ثابت فى قوله يمدح الغساسنة:

لله در عصابة نادمتهم   يومًا بجلّق فى الزمان الأول(١)

وقد شهدت إمارة الغساسنة قمة مجدها فى عهد الحارث بن جبلة الذى يلقب بالأعرج، ويعرف أيضًا بالحارث بن أبى شَمِر أو الحارث الرابع، وقد حكم من حوالى سنة ٥٢٩ إلى ٥٦٩م واتخذ من الجابية مقرًا له، وكان الحارث بن جبلة - كنظيره المنذر الثالث اللخمى ملك الحيرة - معاصرًا للإمبراطور البيزنطى جستنيان الأول، وقد أعلى الإمبراطور منزلة الأمير الغسانى، وأمَّره على كل القبائل العربية بالشام، ومن هنا خلع عليه لقب « فيلارق Phylach » الذى يعنى شيخ القبائل ، وأنعم عليه برتبة البطريق Patricius التى كانت فى الدرجة التالية لرتبة الإمبراطور(٢).

وبعد وفاة الحارث بن جبلة سنة ٥٦٩م تولى ابنه المنذر إمارة الغساسنة حتى سنة ٥٨١م، وهو الذى شهد حكمه مولد محمد ﷺ سنة ٥٧٠ أو ٥٧١م . ومنذ إمارة المنذر بن الحارث بدأت العلاقات بين الغساسنة والبيزنطيين تتجه نحو التدهور، وقد كان ذلك راجعًا لعدد من الأسباب يأتى على رأسها الصراع الدينى بين الجانبين؛ فقد أرادت الكنيسة البيزنطية أن تفرض مذهب الطبيعتين (فى السيد المسيح) على الكنيسة العربية فى الشام، التى كانت تؤمن بمذهب الطبيعة الواحدة، ولكن الكنيسة العربية وقفت صامدة أمام الضغوط البيزنطية، وتمسكت بمذهبها ، فكان لذلك آثاره السلبية

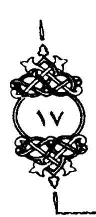
---

(١) ديوان حسان بن ثابت الأنصارى بشرح عبد الرحمن البرقوقى (دار الكتاب العربى ببيروت) صـ٣٦١. وقد يقصد بجلق مدينة دمشق، انظر : ياقوت: معجم البلدان جـ ٢ ، صـ ١٧٩، وقد جاءت بهذا المعنى فى قول أمير الشعراء أحمد شوقى:

قم ناج جلّق وانشُد رسْمَ مَنْ بانوا   مشت على الرسم أحداث وأزمان

الشوقيات (طبعة المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة) جـ ٢ ، صـ ٩٥.

(٢) نولدكه: أمراء غسان، صـ ١٢ وما بعدها، محمد كرد على: خطط الشام جـ١ ، صـ٦٧.



على العلاقات السياسية بين الجانبين. وقد ثار الغساسنة على البيزنطيين بقيادة النعمان ابن المنذر بن الحارث بن جبلة ، ولكن البيزنطيين تمكنوا من أسره وإرساله إلى القسطنطينية سنة ٥٨٢ أو ٥٨٣م[١] . ونتيجة لهذه العلاقات المتردية لم يقدم الغساسنة ولا عرب الشام بصفة عامة عونًا ملحوظًا للبيزنطيين عندما دهم الغزو الفارسى بلاد الشام سنة ٦١٣ ـ ٦١٤م. ولكن يبدو أن الإمبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) حاول فى وقت لاحق أن يصل ما انقطع من علاقات البيزنطيين بالغساسنة، ومما ترويه مصادرنا فى هذا الصدد أن جبلة بن الأيهم ـ آخر ملوك الغساسنة ـ انضم للبيزنطيين فى معركة اليرموك (فى خلافة عمر بن الخطاب) ثم أسلم ، ولكنه ارتد بعد إسلامه بقليل، ولحق بالروم[٢].

أديان شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام:

رغم أن المجوسية كان لها أتباع بين سكان شبه الجزيرة العربية ، ورغم أن اليهودية والنصرانية أيضًا كان لهما وجود ملحوظ فى تلك المنطقة، فمن الممكن أن نقرر باطمئنان أن الوثنية كانت أعمق جذورًا من كل هذه الأديان فى أرض شبه الجزيرة العربية.

لقد كانت المجوسية معروفة فى قبائل تميم، ويروى أنها كانت شائعة أيضًا بين قبائل البحرين؛ نظرًا لقربها من فارس، ويفسر الأستاذ العقاد شيوع المجوسية فى هذه القبائل بأنها «كانت سهلة هينة عليهم لا تكلفهم بناء الهياكل ولا نحت الأصنام، ولا ينكرون فى عبادتها للنار شيئًا؛ لأن إشعال النيران للقرى والاستسقاء وإشهار الحلف لم تكن مجهولة فى البادية العربية، ولعلهم سبقوها إلى عبادة بعض الكواكب؛ لأنهم كانوا أحوج إلى رصد الأنواء والاهتداء بالنجم فى سفر الليل»[٣].

أما اليهودية فقد عرفت طريقها إلى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام بعدة قرون، وقد كانت هناك مراكز مختلفة لليهودية فى بلاد العرب، ومن بينها تيماء، وفَدَك،

---

(١) للمزيد من التفاصيل حول علاقة الغساسنة بالبيزنطيين فى تلك الفترة ارجع إلى: جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ ٣ ، صـ ٤١٢ ـ ٤١٧ . وانظر أيضًا:
Trimingham , Christianity amony the Arabs, PP. 185 - 187.

(٢) حول إمارة الغساسنة بالشام وتطور العلاقة بينهما وبين البيزنطيين، ارجع إلى : د. عبد الرحمن سالم: المسلمون والروم فى عصر النبوة، صـ ٣٦ ـ ٤٦.

(٣) عباس محمود العقاد: مطلع النور ، صـ ٣٧.

وَخَيْبر، ووادى القرى. ولكن لعل أبرز هذه الأماكن من حيث التجمع اليهودى بها كان اليمن ويثرب.

وقد ارتبطت اليهودية فى اليمن بملوك حِمْير، وخاصة بالملك ذى نواس[١]، الذى كان شديد التعصب لليهودية؛ وهو الذى يقترن اسمه فى كثير من مصادرنا التاريخية بمذبحة نصارى نجران[٢]. التى يقال إنها حدثت سنة ٥٢٣م[٣]، وراح ضحيتها حوالى عشرين ألفا[٤]، لقد أراد ذو نواس استئصال المسيحية من اليمن، ويمكن أن يُفسَّر ذلك تفسيرًا سياسيًا فى ضوء الدوافع القومية، فقد كان مسيحيو شبه الجزيرة العربية (ومعهم الأحباش) يوالون البيزنطيين أعداء الفرس، وكان يهود اليمن موالين للفرس[٥]، فأراد ذو نواس أن يقضى على مركز الولاء البيزنطى فى دولته وعلى مطامع الأحباش والبيزنطيين. ويرى بعض المؤرخين أن نصارى نجران الذين تعرضوا لمذبحة ذى نواس هم «أصحاب الأخدود»[٦] الذين ورد ذكرهم فى قوله تعالى فى سورة البروج: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾[٧]؛ فى حين يرى آخرون أن هذه الآيات لا تشير إلى ذى نواس وأصحابه «لأن كلا من اليهود والنصارى يؤمن بالله العزيز الحميد»[٨]. وسواء أكانت هذه الآيات تشير إلى ذى نواس ونصارى نجران أم إلى غيرهم فإنه من الثابت أن نصارى نجران تعرضوا على يد ذى نواس لاضطهاد وملاحقة؛ مما حدا بهم إلى أن يستغيثوا بالإمبراطورية البيزنطية حامية المسيحية، ولم يكن الإمبراطور البيزنطى فى ذلك الوقت (وهو جستين الأول)[٩] فى وضع يسمح له بإرسال

---

(١) ويُعْرف فى النصوص النصرانية باسم Damnus وبصيغ أخرى مشابهة. انظر: جواد على، المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٣، صـ ٤٦٢-٤٦٣، ٤٦٩.

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٢، صـ ١٢٣، والكامل لابن الأثير، جـ١، صـ ٤٢٩.

(3) Trimingham, op. cit. 289.

(٤) تاريخ الطبرى جـ٢، صـ ١٢٣.

(5) CF., O`leary, Arabia Before Muhammad, P. 177.

(٦) حول ذلك ارجع إلى د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، صـ ٩١.

(٧) سورة البروج: [٤-٧] وهناك أقوال أخرى فى تفسير المراد بأصحاب الأخدود راجعها فى: جامع البيان فى تفسير القرآن لمحمد بن جرير الطبرى جـ ٣٠ صـ ٨٤ ـ ٨٥.

(٨) أحمد أمين: فجر الإسلام صـ ٢٦ ـ ٢٧.

(٩) جستين الأول أوجستين الأكبر Justin the Elder تولى حكم الامبراطورية البيزنطية من سنة ٥١٨م إلى ٥٢٧، وقد ابتدأ بحكمه عصر الأسرة المعروفة فى التاريخ البيزنطى باسم «أسرة جستنيان».



حملة بعيدة المدى، فاتصل بتابعه ملك الحبشة المعروف باسم «ألاأصبحة»[1] وطلب منه التدخل لإنقاذ نصارى اليمن، فاستجاب ملك الحبشة ووجه حملة ضخمة إلى بلاد اليمن سنة ٥٢٥م[2] تمكنت من هزيمة ذى نواس وقتله والقضاء على مُلك الحميريين ووضع حد للنفوذ اليهودى فى اليمن، وقد استمرت اليمن مستعمرة حبشية حتى استنجد أحد أبنائها ـ وهو سيف بن ذى يزن ـ بالإمبراطور الفارسى كسرى أنوشروان (٣٥١ ـ ٥٧٩م) فأنجده كسرى بجيش خلَّص اليمن من سيطرة الأحباش فى حدود سنة ٥٧٦م[3]، وأخضعها للسيادة الفارسية التى دامت حتى ظهور الإسلام وانضواء اليمن تحت لوائه.

على أن اليهودية فى يثرب كانت تختلف عنها فى اليمن، ذلك أن يهود يثرب لم يكونوا ـ على أرجح الآراء ـ عربًا تهوَّدوا كما رأينا فى اليمن بل كانوا يهودًا أصلاء نزحوا عن موطنهم بفلسطين إلى الجزيرة العربية فى حوالى القرن الأول أو الثانى للميلاد[4]. وينفى الأستاذ العقاد نفيًا قاطعًا أن يكون يهود يثرب عربًا تَهَوَّدُوا؛ لأن القول بذلك ـ على حد تعبيره ـ «يستلزم منا أن نفرض أن العرب الأميين تطوعوا للتحول إلى اليهودية ثم تعلموا العبرية وتفقهوا فى كتب التوراة لينقطعوا عن أسلافهم.. وليس فى هجرة اليهود من فلسطين إلى بلاد العرب غرابة أو مناقضة لوقائع التاريخ بعد تشتيتهم فى القرن الأول أو الثانى للميلاد»[5].

وقد تكوَّن يهود يثرب من قبائل بنى قَيْنُقَاع وبَنى قُرَيْظة وبنى النَّضير، والمعروف أن يهود بنى قينقاع كانوا حلفاء الخزرج فى حربهم ضد الأوس، كما كان يهود بنى

---

(١) جواد على: المفصَّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ ٣ ، صـ ٤٦٣.

(2) Trimingham, op. cit. , 299.

(3) P. Sykes, A History of Persia, vol. I, p. 455.

(٤) يثور جدل واسع لم يحسم بعدُ حول هذه القضية، ولا تقطع فيها كارين آرمسترونج برأى. انظر كتابها: سيرة النبى محمد صـ ٢١٥ ـ ٢١٦ ، ويبدى التردد نفسه مونتجومرى وات فى كتابه Muhammad at Medina, P. 192. ولكنه يضيف إلى القبائل اليهودية الثلاثة فى المدينة قبيلة بنى ثعلبة التى يروى ما يقال عن أصلها العربى. نفس المرجع ، صـ ١٩٤ . أما ديلاسى أوليرى فيطرح احتمال انتماء بنى قينقاع إلى أصل عربى، أما بنو قريظة وبنو النضير فيرى أنهما قبيلتان يهوديتان «هاجرتا إلى شبه الجزيرة العربية بعد تدمير هيكل سليمان سنة ٧٠م، أو بعد طرد الإمبراطور الرومانى هادريان لليهود من فلسطين سنة ١٣٢م» انظر Arabia Before Muhammad, P. 173f. وفى الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ما يفيد أن يهود بنى قريظة وبنى النضير يهود أصلاء وليسوا عربًا تهوَّدُوا ، انظر الأغانى جـ ٢٢، صـ١٠٩-١٢٨.

(٥) عباس العقاد: مطلع النور ، صـ ٤٥.





النضير وبنى قريظة حلفاء الأوس فى حربهم ضد الخزرج، ولم تكن علاقة اليهود بعضهم ببعض علاقة تآلف ومودة، فلم يكن يربط بين بنى قريظة وبنى النضير إلا حسدهم لبنى قينقاع ومحاولة الإيقاع بين الأوس والخزرج[1]؛ ولهذا لم يقدِّم اليهود - رغم أنهم أهل كتاب - قدوة صالحة لغيرهم من العرب الوثنيين المحيطين بهم، وصدق فيهم قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾[2].

وقد وجدت المسيحية أيضًا طريقها إلى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولعل أهم مركز للمسيحية على الإطلاق فى شبه الجزيرة كان نجران فى شمال اليمن، وكان للغساسنة والأحباش الدور الأكبر فى نشر المسيحية فى شبه الجزيرة العربية بصفة عامة وفى مدينة نجران بصفة خاصة؛ وذلك بتشجيع الإمبراطورية البيزنطية التى كانت تُعدُّ معقل المسيحية الأكبر فى العالم فى ذلك الوقت ، وكانت ترى فى نشر المسيحية فى أى مكان دعمًا لنفوذها السياسى. على أن المسيحية التى انتشرت فى نجران (وفى غيرها أيضًا من أرجاء شبه الجزيرة العربية) كانت على المذهب المونوفيزيتى (اليعقوبى)[3] القائل بالطبيعة الواحدة فى السيد المسيح، ولم تكن على المذهب الديوفيزيتى (الملكانى) القائل بالطبيعتين، وهو المذهب الرسمى للإمبراطورية البيزنطية.

وقد ظهرت المسيحية فى أماكن أخرى من شبه الجزيرة العربية غير نجران، فقد وُجدت عدة قبائل انتشرت فيها المسيحية ومن أهمها تغلب وبهراء وتنوح ولخم وجذام، بل إن المسيحية كان لها أتباعها أيضًا بين قبيلة قريش نفسها بمكة. وقد كان أبرز هؤلاء ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى الذى «تنصَّر واستحكم فى النصرانية وقرأ الكتب» على حد تعبير بعض المؤرخين[4]، ومن هؤلاء أيضًا ابن عمه

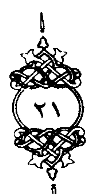
---

(١) المرجع السابق صـ ٤٣.

(٢) سورة الجمعة :[٥].

(٣) نُسب المذهب المونوفيزيتى إلى يعقوب البراذعى مطران الرها؛ لأنه كان أكبر دعاته فى الشرق. وقد كان الأمير الغسانى الحارث بن جبلة على علاقة طيبة بالإمبراطور البيزنطى جستنيان الأول. كما كانت الإمبراطورة ثيودورا (زوج جستيان الأول) متعاطفة مع المونوفيزيتيين، وقد استطاع الحارث - بتعضيد ثيودورا - أن يحصل من جستنيان على قرار بتعيين يعقوب البراذعى مطرانًا للكنيسة المونوفيزيتية فى بلاد الشام، وظل يعقوب البراذعى حتى وفاته سنة ٥٧٨م يجوب البلاد الشرقية محاولا توحيد كنائسها جميعها تحت راية المذهب المونوفيزيتى وإعادة بث الروح فى هذا المذهب، فنسب إليه ، لمزيد من التفاصيل ارجع إلى: De lacy O`leary, Arabia Before Muhammad, P. 139f.

(٤) محمد بن حبيب : المحبر، صـ ١٧١، وانظر أيضًا: ابن كثير : البداية والنهاية جـ٢، صـ ٢٢١.



عثمان بن الحويرث بن أسد الذى ذهب إلى ملك الروم (الإمبراطور البيزنطى) يلتمس منه أن يساعده فى أن يصبح سلطانًا على مكة ، وذلك فى مقابل أن يقوم ابن الحويرث بنشر المسيحية فى مكة وغيرها من بلاد العرب، ولكن عثمان توفى بعد ذلك بقليل[١]. والأمر الذى يجب أن نؤكده هنا ـ رغم ذلك ـ أن انتشار المسيحية بين قريش بمكة كان محدودًا للغاية.

غير أننا ينبغى أن نقرر أن الأديان التى ذكرناها الآن (وهى المجوسية واليهودية والمسيحية) رغم انتشار بعضها فى أماكن مختلفة من شبه الجزيرة العربية ـ لم تستطع أن تنافس الوثنية فى هذا المجال، ويقدم الباحثون أسبابًا عدة لظهور الوثنية ثم انتشارها بين العرب لعل أحراها بالقبول هو أن العرب فى البداية كانوا يحملون خلال أسفارهم حجارة من الحرم تعبيرًا عن حبهم وتعظيمهم لذلك المكان المقدس وتذكيرًا لهم بمكة. . ولم يكن ذلك التصرف فى عهده الأول ينطوى على أى دلالة وثنية، فقد كانت الملة الحنيفية التى أتى بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما تزال تعمر نفوس هؤلاء، فلما طال بهم الأمد وبعُدَ عهدهم بدين إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم تفطن الأجيال اللاحقة إلى أن أسلافهم لم يُعَظِّمُوا الحجارة لذاتها بل كانوا يعظمون ما ترمز إليه وهو مكة والبيت الحرام، فلما اختفت الصلة بين الرمز والمرموز إليه أصبح تعظيم الحجر مقصودًا لذاته[٢]، ومن هنا نشأت عبادة الأصنام ثم اتسعت، وتحوَّل الكثير من العرب إلى وثنيين يعبدون من دون الله آلهة صنعوها بأيديهم، وقد بلغ رسوخ هذه العقيدة فى أنفسهم حدًّا جعلهم يبذلون الدم والمال فى سبيل الدفاع عنها والصد عن دعوة التوحيد التى أتى بها محمد ﷺ ، كما سنوضح ذلك فى موضعه من هذا الكتاب.

والملاحظ أن عبادة الأصنام عند العرب تأثرت بالعصبية القبلية ، فقد رأينا القبائل العربية الكبرى تتنافس فى اتخاذ أصنام خاصة بها[٣]؛ فكان هُبَل (فى جوف الكعبة) كبيرَ الآلهة وكان صنم قريش الأول[٤]، وتأتى بعده العُزَّى من حيث الأهمية عند

---

(١) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى : محمد بن حبيب :المنمق، صـ ١٧٨ وما بعدها.
(٢) راجع التفاصيل فى: التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبى، جـ١ صـ٨٩ـ٩٢.
(٣) تاريخ اليعقوبى، جـ ١ صـ ٢٥٥.
(٤) نفس المصدرصـ ٢٥٤.



قريش(١)، أما اللات فقد كان مقرها الطائف(٢)، وكانت أهم صنم عند ثقيف، ورغم أن مناة (على ساحل البحر بين المدينة ومكة) (٣) كانت صنمًا يحظى بتقدير العرب جميعًا فقد كانت الأوس والخزرج تخصه بمزيد من التعظيم وتذبح له القرابين، وهناك أصنام أخرى لقبائل أخرى لا يعنينا الخوض فى تفاصيلها هنا(٤).

وقد يظن المرء أن سيطرة هذه الروح الوثنية على العرب الجاهليين قطعت الصلة بينهم وبين ملة إبراهيم ﷺ ولكن الواقع أنه وُجد بين هؤلاء العرب من لجأ إلى فطرته الصافية فاهتدى إلى عبادة الله الواحد ونبذ عبادة الأصنام، وأبرز مثال على هؤلاء «المتحنثين» (٥) أو «الحنفاء» (٦) زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى الذى كان لا يأكل إلا ما ذُبح على اسم الله وحده، وكان زيد يقول عن نفسه: «يا معشر قريش.. والله ما أعلم على ظهر الأرض أحدًا على دين إبراهيم غيرى» وكان يناجى ربه قائلا: «اللهم لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكنى لا أعلمه»! وفى زيد هذا قال ـ ﷺ ـ إنه: «يبعث يوم القيامة أمة وحده»(٧).

ومهما يكن فلابد أن نقرر أن أمثال زيد كانوا قلة بين العرب الوثنيين، وكانت هذه القلة أيضًا فى حاجة إلى تبصير بحقيقة الدين الخالص.

---

(١) والعُزَّى فى الأصل لقبيلة غطفان، وكان مقرها نخلة، ولكن قريشًا كانت تعظمها، يروى المؤرخون أن أبا سفيان ـ بعد انتهاء معركة أحد ـ وقف يصيح بأعلى صوته ليُسمع المسلمين: اعلُ هُبَل! لنا العزَّى ولا عُزَّى لكم! تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٥٢٦.

(٢) تاريخ اليعقوبى، جـ ، صـ ٢٥٥.

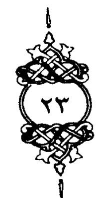
(٣) يذكر اليعقوبى أن مناة كان منصوبًا بفدك مما يلى ساحل البحر، وكان للأوس والخزرج . تاريخ اليعقوبى، جـ ١ ، صـ٢٥٥.

(٤) للمزيد من التفاصيل ارجع إلى د . أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، جـ١ صـ ٩٣ ـ ٩٤ .

(٥) يقول ابن منظور: «تحنَّث: تعبَّد واعتزل الأصنام..» ثم يروى عن ابن سيده قوله: «وهذا عندى على السلب كأنه ينفى بذلك الحنْثَ الذى هو الإثم نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [سورة الإسراء: ٧٩] أى انف الهجود عن عينك، ونظيره: تأثَّم وتَحوَّب أى نفىَ الإثم والحوب» . راجع مادة (حنث) فى لسان العرب لابن منظور، جـ٢ صـ١٠١٨ - ١٠١٩ .

(٦) جاء فى لسان العرب لابن منظور (مادة حنف): «حنف عن الشىء وتحنف: مال، والحنيف: المسلم الذى يتحنّف عن الأديان أى يميل إلى الحق، وقيل: هو الذى يستقبل قبلة البيت الحرام على ملة إبراهيم».

(٧) حول أخبار زيد بن عمرو بن نفيل راجع: أسد الغابة لابن الأثير، جـ٢، صـ٢٩٥، والأغانى للأصفهانى، جـ٣ ، صـ ١٢٣ ـ ١٣١ .



الفصل الأول

قريش
ومكانتها الاجتماعية والاقتصادية قبل الإسلام

قريش بين القبائل العربية:

تنقسم القبائل العربية - كما ذكرنا - إلى قسمين أساسيين: القحطانيون والعدنانيون. وقد ارتبط القحطانيون بجنوب شبه الجزيرة العربية أو اليمن، كما ارتبط العدنانيون بشمال شبه الجزيرة العربية ، وتعدّ مكة المكرمة موطنهم الأصلى.

وقد تفرعت من العدنانيين قبائل مضر وربيعة وإياد وأنمار، وتفرعت من مضر قيسُ عيلان بن مضر وإلياس بن مضر، وتفرعت من إلياس بن مضر قبائل عدة أشهرها تميم وهذيل وأسد بن خزيمة والهُون بن خزيمة ، وكنانة بن خزيمة(١).

وتنتمى قريش إلى كنانة ، وهى تنقسم إلى بطون شتى منها: جُمَح وسهم وعَدِى ومخزوم وتيم وزهرة وعبد الدار، وعبد مناف(٢).

الآراء حول اشتقاق كلمة «قريش» ومعناها:

تختلف الآراء حول اشتقاق كلمة «قريش» ومعناها، فقيل: إنها مأخوذة من التَّقَرُّش بمعنى التجمع بعد التفرق، وقيل: إنها من التَّقَرُّش بمعنى التكسب والتجارة. وقيل بل هى تصغير كلمة «قرْش» وهى سمكة البحر المعروفة، وقيل غير ذلك(٣)،

---

(١) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، صـ ١٠ - ١١.

(٢) المسعودى: مروج الذهب، جـ ٢ صـ ٥٩.

(٣) راجع تفاصيل ذلك فى : تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٢٦٣ - ٢٦٥، البداية والنهاية لابن كثير، جـ ٢ صـ ١٨٧، لسان العرب لابن منظور (مادة قرش) ، جـ ٥ ، صـ ٣٥٨٥ - ٣٥٨٦.

والواقع أن كل هذه الآراء لا تستند إلى دليل قاطع؛ فكثير من أسماء الأعلام تفقد دلالتها الأصلية بتقادم العهد ولا تعنى أكثر من المسمى الذى تشير إليه، ويبدو أن أصحاب هذه الآراء استندوا فى تفسيراتهم هذه إلى ما اشتهرت به قبيلة قريش من صفات أو أنشطة فحاولوا الربط بين اسم «قريش» وبين كلمات تفيد هذه المعانى. فالرأى الذى يذهب إلى أنها مأخوذة من التقرش بمعنى التجمع بعد التفرق يستند إلى ما قام به قُصىّ بن كلاب من لمِّ شتات قريش وجمعهم بالحرم؛ ولهذا قال الشاعر حذافة بن غانم العدوى فى حديثه لقريش :

أبوكم قُصىٌّ كان يُدْعَى مُجْمِّعًا ... به جمع الله القبائل من فِهْرِ[1]

والرأى الذى يذهب إلى أن الكلمة مأخوذة من التقرش بمعنى التكسُّب والتجارة يستند إلى النشاط التجارى المتميز الذى اشتهرت به قبيلة قريش[2]، أما الرأى الذى يربط بين الكلمة وبين سمكة القرش فهو يستند إلى ما عرفت به قريش من القوة والسيادة على غيرها من القبائل[3]، ولا يهمنا البحث فى أصول الأعلام - على أى حال - بقدر ما يهمنا معرفة المدلول الموضوعى لهذه الأعلام على وجه الدقة.

مكانة قريش من كنانة:

يذهب الأكثرون إلى أن القرشيين هم هؤلاء الذين ينتسبون إلى النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، والنضر هو قريش[4]، وهناك من يقول إن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة هو قريش[5]، ولكن الأرجح أن النضر هو قريش.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ، جـ ٢ ، صـ ١٨٧ . وحول أصل هذا اللقب ارجع أيضًا إلى: ابن قتيبة : المعارف ، صـ ٧٠ ؛ وتاريخ اليعقوبى، جـ ١ ، صـ ٢٤٠ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب، مادة (قرش) ، جـ ٥ ، صـ ٣٥٨٦.

(٣) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٢٦٤ .

(٤) ابن قتيبة : المعارف، صـ ٦٧، تاريخ اليعقوبى، جـ ١ ، صـ ٢٣٣، سيرة ابن هشام، جـ ١ صـ١٠٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٢ ، صـ ١٨٦ .

(٥) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، صـ ١٢ .



ويشير حديث رسول الله ﷺ إلى أن قريشًا هم صفوة كنانة، وذلك حيث يقول: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى هاشمًا من قريش، واصطفانى من بنى هاشم»**. رواه مسلم.

فمن المفهوم - إذن - أن يكون النضر - وهو أصل قريش - أبرز أولاد كنانة وكان لكنانة من الولد - غير النضر - ملْك ومِلكان وعبد مناة [1].

ولكن مما لا شك فيه أن قريشًا تدين بالكثير مما تمتعت به من قوة ونفوذ بمكة إلى قصى بن كلاب.

مكانة قريش بمكة ودور قصى بن كلاب فى تأسيس تلك المكانة:

تفردت قبيلة «جُرْهم» اليمانية بالسلطة زمانًا فى مكة بعد أن استطاعت طرد العمالقة من الحجاز. وجُرْهم هؤلاء هم الذين تزوج منهم إسماعيل - عليه السلام - وقد صارت سدانة البيت الحرام ومفاتيحه لجرهم، وبقيت فيهم نحو ثلاثمائة سنة، فأكلوا مال الكعبة الذى يُهْدى إليها واستحلوا حرمها[2].

ثم آلت سدانة البيت ومفاتيحه إلى قبيلة خزاعة حيث انتهت أخيرًا إلى رجل منهم يقال له سليمان (أو سليم) بن عمرو ويكنى بأبى غُبْشان، وكان أبو غبشان هذا معاصرًا لقصى بن كلاب الذى اجتمع معه على شراب بالطائف، ويروى المؤرخون أن أبا غبشان سكر فى مجلسه هذا فاشترى منه قصى سدانة البيت بزق خمر وتسلم مفاتيحه وأشهد عليه بذلك، وأرسل ابنه عبد الدار بالمفاتيح إلى الكعبة، فنادى عبد الدار بأعلى صوته: «يامعشر قريش، هذه المفاتيح مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل قد ردها الله عليكم..» فلما أفاق أبو غبشان ندم حيث لا ينفع الندم، ولهذا قيل فى المثل: «أخسر من صفقة أبى غبشان» [3]، وقال بعض الشعراء فى ذلك:

باعت خزاعةُ بيتَ الله إذْ سكرتْ   بزقِّ خمر، فبِئْسَتْ صفقةُ البادى!

باعت سِدَانتها بالنَّزْر وانصرفت   عن المقام وظِلِّ البيت والنادى[4]

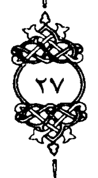
---

(1) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، صـ ١١.

(2) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٤، صـ ٢٦٢، سيرة ابن هشام، جـ ١ صـ ١٢٥.

(3) صبح الأعشى، جـ ٤، صـ ٢٦٣.

(4) نفس المصدر والصفحة.



ولكن خزاعة لم تستسلم بسهولة، فجمعت جموعها لحرب قصى، فاستنصر قصى قومه فنصروه ، وكانت لهم الكَرَّةُ على خزاعة، فأجلوهم عن مكة، فخلصت هذه المدينة لقصى وأصبح له الأمر بها وتولى شئون البيت الحرام، وذلك فى حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى، وكان أهم ما فعله قصى بعد ذلك أن جمع قومه قريشًا من منازلهم فى الشعاب ورءوس جبال مكة، فقسم مكة بينهم، وأنزلهم منها منازلهم التى أصبحوا عليها[1].

وقد خطا قصى خطوة أبعد فى سبيل جمع كلمة قريش ورعاية أمورهم، فأنشأ «دار الندوة» ، وكانت تُعْرف أحيانًا باسم «دار قصى بن كلاب» وجعل بابها إلى الكعبة، وفى هذه الدار كانت قريش تقضى أمورها، «فما تُنْكح امرأةٌ ولا رجل من قريش إلا فى دار قصى بن كلاب، وما يتشاورون فى أمر ينزل بهم إلا فى داره، ولا يعقدون لواءً لحرب قوم من غيرهم إلا فى داره. .»[2].

وهكذا بدأت المكانة الاجتماعية لقريش فى مكة تبرز وتتأكد على يد قصى بن كلاب. وكان قصى مسموع الكلمة فى قريش، «وكانت قريش فى حياته، وبعد وفاته، يرون أمره كالدِّين المتبع»[3].

ولم تكن تلك المكانة الاجتماعية التى تبوأتها قريش على يد قصى راجعة فقط إلى نزولها بمكة وإنشاء دار الندوة، بل كانت راجعة كذلك إلى قيام قصى، ثم أولاده من بعده، بمسئولية رعاية البيت الحرام، كما أشرنا آنفًا، ذلك أن الكعبة المكرمة كانت موضع إجلال العرب جميعًا، ومن هنا فإن من يتولى القيام على أمورها لابد أن يذيع صيته بين العرب وترتفع مكانته. .

وقد نظم قصى بن كلاب وظائف الكعبة على النحو التالى:

السِّقَايَة : وهى تعنى جَلْبَ الماءِ من مصادره - حيث وجدَتْ - إلى مكة لسقاية الحاج، ذلك أن بئر زمزم كانت قد ردمت قبل ذلك الوقت فلَم يكن الحصول على الماء سهلاً فى مكة وخاصة فى موسم الحج، ومن أجل ذلك، كان توفير الماء

(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٢٥٦ - ٢٥٨.

(٢) نفس المصدر، صـ ٢٥٨ - ٢٥٩، وانظر أيضًا : تاريخ اليعقوبى، جـ ١ ، صـ ٢٤٠، ومعجم البلدان لياقوت (مادة مكة) جـ ٥ ، صـ ٢١٦.

(٣) تاريخ اليعقوبى، جـ ١ ، صـ ٢٤٠، ويقول البلاذرى: «وكان أمر قصى عند قريش دينًا يعملون به ولا يخالفونه». . أنساب الأشراف جـ ١ ، صـ ٥٢.



الرِّفَادة : وهى تعنى إطعام الحجيج فى موسم الحج حتى يخرجوا راجعين إلى بلادهم، يروى الطبرى وغيره أن قصيًّا فرض ذلك على قريش وقال لهم: «يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته الحرام، وإن الحاجّ ضيف الله وزوَّار بيته، وهم أحق الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم شرابًا وطعامًا أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم، ففعلوا، فكانوا يخرِجون لذلك كلَّ عام من أموالهم فيدفعونه إليه فيصنعه طعامًا للناس أيام مِنى، فجرى ذلك من أمره على قومه فى الجاهلية» [١].

الحجابة : وهى سدانة البيت ، أى القيام عليه وحفظه وتولى مفاتيحه[٢].

اللواء : وهو راية يعقدونها على رمح عند إعلان الحرب ويرفعونها علامة على الجيش الذى يتبعونه.

الندوة : وهى رياسة الاجتماعات المهمة طوال العام، وهى الاجتماعات التى كانت تعقد عادة فى دار الندوة.

فتلك هى أهم مناصب الكعبة أو وظائفها، وقد تولاها قصى بن كلاب فأحسن القيام بها، فلما كبر ووهن منه العظم عهد بوظائف الكعبة كلها إلى ابنه عبد الدار ؛ فقد كان أسنَّ أولاده وأحبَّهم إليه، وإن لم يكن أصلحهم للرياسة، وقد استمرت هذه الوظائف فى يد عبد الدار، وكان إخوته لا ينازعونه فى ذلك، ولكنّ أبناءهم تشاجروا بعد ذلك مع أبناء عبد الدار حول هذه الوظائف، وانقسمت بطون قريش على نفسها؛ ذلك أنه عندما عظم شأن بنى عبد مناف بن قصى قالوا : « نحن أولى بما يتولاه بنو عبد الدار منهم»[٣]. وأيدهم فى موقفهم ذلك من بطون قريش: بنو أسد، وبنو زُهرة، وبنو تيم، وبنو الحارث بن فهر، وتحالف هؤلاء جميعًا ألا يُسْلِم بعضهم بعضًا، وأتوا بإناء فيه طيب فغمسوا أيديهم فيه ومسحوها بأركان الكعبة فسُمُّوا «المطيِّبين»، على حين انضم إلى بنى عبد الدار من قريش: بنو مخزوم، وبنو جُمَح ، وبنو سهم، وبنو عدى ابن كعب، وهؤلاء يعرفون بـ «الأحلاف» ، ويروى أن بنى عدى قالت فى هذه المناسبة: «إنما الطِّيب لربات الحجال»! وأتوا بجفنة فيها دم، فغمسوا أيديهم فيها،

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٢٦٠ ، والبداية والنهاية لابن كثير ، جـ ٢ ، صـ ١٩٢.

(٢) جاء فى لسان العرب لابن منظور فى مادة (حجب) ، جـ ٢ ، صـ ٧٧٧ : «وفى الحديث : قالت بنو قصى: فينا الحجابة، يعنون حجابة الكعبة، وهى سدانتها وتولى حفظها، وهم الذين بأيديهم مفاتيحها».

(٣) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ ١ ، صـ ٥٥.



فسُمِّى بـنو عدى لذلك «لَعَقَـة الدم» و «ولَغَة الدم» [١]، وقد همَّ الفريقـان ـ المطيِّبون والأحلاف ـ بالقتال على وظائف الكعبة، ثـم اصطلحوا على أن تكون لبنى عبد مناف الرفادة والسقاية، «وأن تسـتقر الحجابة واللواء والندوة فى بنى عـبد الدار، فانْبَرَمَ الأمر على ذلك واستمر»[٢].

ومهما يـكن من أمر هذا الخلاف فقـد بقيت تلك الوظائف الجلـيلة فى قريش، ولا شك أن بقاءها فى قريش ـ منذ أن اضطلع بها قـصى بن كلاب ـ أكسب هذه القبيلة منزلة فريدة، لا فى مكة وحدها، بل فى شبه الجزيرة العربية جمعاء.

ولم تنحـصر مكانة قريش قـبل الإسلام فى ذلك الجـانب الاجتماعـى البارز بل استمدت المزيد من التأكيد والقوة بما عُرف عـن هذه القبيلة من نشاط اقتصادى متميز. والواضح أن الـذى ساعد «قـريشًا» علـى أن تمارس دورها هـذا الاقتصـادى هو ذلك الموقعُ الـتجاريُّ الفريدُ الذى تـمتعت به مكة كـملتقى للقـوافل التجارية بين الـشمال والجنوب. لقد سبق أن أشرنا إلى أن موقع مكة التجارى كان من بين ما أسهم فى دعم مكانـتها الخـاصة قبـل الإسلام. والواقع أن قـبيلة قـريش كانت من الـمهارة بحـيث استطاعت أن تحوِّل مكة مـن مجرد محطة تجارية إلى عنصر إيجابى مـشارك فيما يدور حولها من نشـاط، وهكذا وجدنا قريشًا تسهم بـالدور الأكبر فى الرحلتين المـعروفتين باسم: رحـلة الشتـاء ورحلة الصـيف، وقد كـانت الأولى إلـى بلاد اليمـن والحبـشة والعراق[٣]. والثانية إلى بلاد الشام[٤]، ونجد فى القرآن الكريـم ما يؤكد هذا الدور فى قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [٥].

---

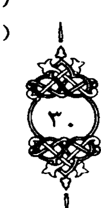
(١) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١ ، صـ ٥٦، ويروى المـؤرخون أنه «لما كان يوم أحد أتى زيدُ ابن الخطاب، أخو عمر، أبا جهم بن حذيفة بن غانم، فقال له أبو الجهم: أنا والغ الدم! فقال له زيد: قد أتاك والغٌ مثلك» ! نفس المصدر صـ ٥٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ٢ ، صـ ١٩٤.

(٣) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١ صـ ٥٩.

(٤) نفس المصدر والصفحة، وانظر أيضًا: تفسير الكشاف للزمخشرى، جـ ٤ ، صـ ٨٠١.

(٥) سورة قريش : [١-٤] والإيلاف مصدر آلف (بالمد) ، ويمُنُّ الله على قريش هنا بأنه ـ سبحانه ـ قد كفل لهم الأمن والسلامة فـجعل نفوسهم تألف الرحلة الشاقة المحفوفـة بالمخاطر فى الشتاء والصيف، ومن هنا فإن عليهم تقديم واجب الشكر بعبادة رب هذا البيت الذى أكرمهم لمجاورتهم له. ويقول الزمخشرى: «أطـلق الإيلاف ، ثم أبدل عنه المقيَّد بالرحلتين، تفـخيمًا لأمر الإيلاف وتذكيرًا بعظيم النعمة فيه، ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولا به» الكشاف، جـ ٤ صـ ٨٠٢.



والجدير بالذكر أن تجارة قريش بلغت أوج ازدهارها في عهد هاشم بن عبد مناف بن قُصَيّ وإخوته عبد شمس ونوفل والمطلب. وقد استطاع هاشم أن يحصل من دولة الروم على إذن لقريش بأن تجول بتجارتها في أنحاء الشام، دون التعرض لها بأذى، وحصل على مثل ذلك من ملوك الغساسنة بالشام، ونجح عبد شمس في إبرام معاهدة تجارية مع النجاشي ملك الحبشة، فتحت المجال واسعًا لتجارة القرشيين في ذلك الإقليم، كما عقد نوفل معاهدة تجارية مع إمبراطور الفرس أتاحت التعامل مع العراق وفارس، وعقد المطَّلب مثل هذه المعاهدة مع اليمن التي كانت حينذاك تحت حكم الحميريين[1]. وهكذا استطاع بنو عبد مناف ـ بمواهبهم التجارية الفذة ـ أن يصلوا باقتصاد قريش إلى مدى لم يسبق له نظير في العظمة، «فجبر الله بهم قريشًا» [2]ـ كما يقول الطبري ـ «فسُمّوا المجبِّرين»[3] . وقد كان من الطبيعي أن تُسهم هذه المكانة الاقتصادية التي تمتعت بها قريش في دعم مكانتها الاجتماعية.

ظلت قريش تتمتع بهذه المكانة المتميزة ـ اجتماعيًّا واقتصاديًّا ـ حتى ظهور الإسلام. ونحن نقرأ ما يفيد أن عبدالله بن عبدالمطلب ـ والد الرسول ﷺ ـ كان يتردد على الشام في تجارة قريش[4]، كما كان أبو طالب بن عبدالمطلب ـ عم الرسول ﷺ ـ من بين مَنْ أسهموا من القرشيين بنصيب في ذلك النشاط التجاري، ويروى أن رسول الله ﷺ صحب عمه أبا طالب في إحدى رحلاته التجارية إلى الشام وهو ابن اثنتى عشرة سنة[5]. وهناك العديد من الشخصيات القرشية الأخرى التي برزت في هذا المجال، لعل من أشهرهم أبا سفيان بن حرب ، بل إن نساء قريش أسهمن بنصيبهن أيضًا في ذلك الميدان، وتُعَدُّ السيدة خديجة بنت خويلد أبرز مثال على هؤلاء. والمعروف أن الرسول ﷺ كان قبل بعثته ـ من بين من استأجرتهم السيدة خديجة للعمل في تجارتها ثقة منها في صدقه وأمانته[6].

---

(١) راجع: تاريخ الطبري، جـ ٢ ، صـ ٢٥٢، وانظر أيضًا: أنساب الأشراف للبلاذري ، جـ ١ ، صـ ٥٩ .

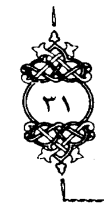
(٢) في لسان العرب لابن منظور مادة (جَبَر) جـ ١ صـ ٥٣٥ : «الجَبْر» خلاف الكسر، جَبَر العظم والفقير واليتيم. . وَجَبَّره. . . ويقال : جبّرت الكسير أجبِّره تجبيرًا وجبرته جبرًا. . ».

(٣) تاريخ الطبري، جـ ٢ ، صـ ٢٥٢.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية، جـ ٢ ، صـ ٢٤٥.

(٥) تاريخ الطبري، جـ ٢ ، صـ ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، والروض الأنف للسهيلي ، جـ ١ ، صـ ٣١٤.

(٦) تاريخ الطبري، جـ ٢ ، صـ ٢٨٠.



فالخلاصة أن قريشًا كانت تحتل مكان الذروة بين القبائل العربية جميعها بقيامها على رعاية بيت الله الحرام مما جعلها تتمتع بوضع اجتماعى فريد، وقد عززت هذا الوضع الاجتماعى مكانتها الاقتصادية المتميزة بما أفاء الله عليها من ثراء ونعمة، وذلك بفضل نشاطها التجارى الذى لم يستطع غيرها أن ينافسها فيه، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك حين رد على منطق المترددين في قبول دعوة محمد ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾** ﴾ (١).

فى تلك القبيلة التى كانت تتسنم تلك الذروة الاجتماعية والاقتصادية فى ذلك الحرم الآمن وُلِد رسولُ الله ﷺ.

---

(١) سورة القصص : [٥٧].

الفصل الثاني

الرسول قبل البعثة

الهاشميون أسرة الرسول ﷺ :

من الضرورى - قبل أن نتناول سيرة الرسول ﷺ قبل البعثة - أن نتعرف باختصار على تلك الشجرة التى أنبتت ذلك الفرع الزكى؛ لأن التعرف على الفروع لا يمكن أن يتم بصورة صحيحة دون أن يسبقه التعرف على الأصول.

ونبى الإسلام ﷺ هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقبيلة قريش - كما سبق أن أشرنا - تنتسب إلى النضر فى أصح الأقوال، فالرسول ﷺ كنانى قرشى، ولكنه قبل ذلك هاشمى، أى ينتسب إلى هاشم بن عبد مناف. فالهاشميون - أو آل البيت - هم أهل الرسول الأدنَوْن الذين يجب علينا أن نتعرف عليهم الآن.

ولنبدأ بجده الأعلى هاشم بن عبد مناف، و«هاشم» لقبُه الذى غلب على اسمه الأصلى وهو «عمرو»[1]، وإنما لُقِّبَ هاشمًا «لأنه أول من هَشَمَ الثريدَ لقومه بمكة وأطعمه»[2]. ويلقى البلاذرى الضوء على ذلك فيقول: «أصابت قريشًا سَنَةٌ - أى شدة - ذهبت بأموالهم وأقحطوا فيها، وبلغ هاشمًا ذلك وهو بالشام، وكان متجره بغزة وناحيتها، فأمر بالكعك والخبز فاستكثر منهما، ثم حُملا فى الغرائر[3] على الإبل، حتى وافى مكة، فأمر بهَشْم ذلك الخبز والكعك، ونُحِرتَ الإبلُ التى حَمَلت. فأشبع أهل مكة، وقد كانوا جَهِدوا»[4]. ومن المآثر التى ينسبها الكثير من مؤرخينا إلى هاشم

---

(١) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٢، صـ ١٦، وهشم الثريد أى كسره، والثريد هو «ما يُهشَم من الخبز ويُبَلّ بماء القِدْر وغيره» انظر لسان العرب لابن منظور، مادة (ثَرَدَ)، جـ ١، صـ ٤٧٦.

(٣) الغرائر: جمع غِرارة، وهى وعاء من نسيج خشن يوضع فيه القمح ونحوه.

(٤) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٥٨.

أيضًا أنه أول من سنَّ لقريش رحلتى الشتاء والصيف[1]، وفى ذلك يقول أحد الشعراء[2]:

عمرو العُلَى هَشَمَ الثريد لقومه ورجالُ مكة مُسْنِتونَ عِجَاف[3]

وهو الذى سنّ الرحيل لقومه رِحَلَ الشتاء ورحلة الأصياف[4]

وينكر ابن خلدون أن يكون هاشم هو« أول من سنَّ الرحلتين فى الشتاء والصيف للعرب»؛ لأن الرحلتين ـ على حد قوله ـ «من عوائد العرب فى كل جيل لمراعى إبلهم ومصالحها؛ لأن معاشهم فيها»[5]. ولكن الواضح أن ابن خلدون يخلط هنا بين الرحلتين التجاريتين لقريش فى الشتاء والصيف وبين تنقل العرب من مكان إلى مكان فى المواسم المختلفة طلبًا للكلأ، وهما أمران لا وجه للخلط بينهما، وأقل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد أن هاشمًا إن لم يكن هو أول من سنّ رحلتى الشتاء والصيف من الوجهة الواقعية فإنه «كان يحمى تلك الرحلات وينظمها فنُسب إليه أنه أول من سنَّها» كما يرى الأستاذ العقاد[6].

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف، جـ ١ صـ ٥٩، وانظر أيضًا : تاريخ اليعقوبى، جـ ١ ، صـ ٢٤٢، وتاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٢٥٢، والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٢ ، صـ ٢٣٦، وسيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ١٤٧.

(٢) هو عبد الله بن الزِّبَعْرَى طبقًا لرواية البلاذرى، نفس المصدر والصفحة.

(٣) عمرو: المقصود به هاشم، ومُسْنِتون: أصابتهم سَنَة وهى الجدب والقحط، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف : ١٣٠] .

(٤) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ ١ صـ ٥٨ ، ويُروَى هذان البيتان أيضًا على الوجه التالى:

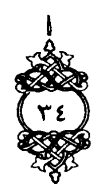
عمرو الذى هَشَم الثريد لقومه ورجالُ مكة مُسنتون عجاف

سُنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصياف

انظر: ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٢ ، صـ ٢٣٦.

(٥) ابن خلدون: العبر جـ ٢ ، صـ ٣٨٦.

(٦) مطلع النور ، صـ ١٢٠.



وتذكر بعض الروايات أن هاشمًا كـان أكبر أولاد عبد مناف[1]، وإذا جاز لنا أن نشكك فى صحة هذه الرواية فلا مجال للتشكيك فى أنه كان أعظمهم مكانة، ومن أجل هذه المكانة المتميزة ولى بعد أبيه منصب السقاية والرفادة [2].

وقد توفـى هاشم بغزة من أرض فـلسطين فى إحدى رحـلاته التجـارية وهو فى ريعان شبابه، ودفن هناك[3].

أما عبـد المطلب ـ الجد المبـاشر للرسول ﷺ ـ فقـد كان أبرز أولاد هاشم[4]، وإليه صـار شرف قريش، فـلا شك أن عبد المـطلب كان سيـد قومه بلا مـنازع، وقد ارتبطت به أحداث أعطت لاسمه ذيوعًا ومكانًا فى التاريخ؛ فقد جدد حفر بئر زمزم بعد أن كانت مطموسة من عهد جُرهم، ولكـن لعل أبرز ما ارتبط به اسم عبد المطلب من أحداث كـان محـاولة أبرهة الحـبشى غـزو الكعبـة، وهى تلك المـحاولة الـتى باءت بالفشل، وقد أعلن أبـرهة أنه لم يأت لقتال أهل مكة وإنما أتى لهـدم البيت الحرام[5]، وكان قد بنى كنيـسة عظيمة فى صنعاء باليمـن سماها «القُلَّيْس»[6] أراد أن يصرف إليـها حجاج بيت الله الحرام لتصبح كعبة العرب جميعًا[7]، وكانت اليمن حينذاك تحت حكم أبرهة ، ويذكر المؤرخون أن أبـرهة استخدم الفيلة فى حملته تـلك؛ ولهذا عرف العام الذى حدثت فـيه بعام الفيـل (٥٧٠ أو ٥٧١م) وهو العام الذي ولد فيـه الرسول ﷺ، وكان أبرهة قد اتصل بعبد المطلب سيد مكـة وهو فى طريقه لغزو الكعبة وأبلغه رسالة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، صـ ١٦ ، وتذكر بعض الروايات الأخرى أن هاشمًا وعبد شمس كانا توأمـين، ويروى أيضًا أن عبد شـمس كان أكبر من هـاشم. انظر تاريخ اليعـقوبى، جـ ١ ، صـ٢٤٢، وتاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٢٥٢، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، صـ ١٤.

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٢٥٢.

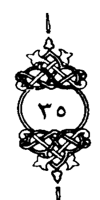
(٣) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ ١، صـ ٦٣ ، وانظر أيضًا: تاريخ اليعقوبى، جـ ١، صـ٢٤٤، وتوفى هاشم عن خمسة وعشرين عامًا، وقيل: عن عشرين عامًا، والأول أثبت. البلاذرى: نفس المصدر والصفحة.

(٤) خلّف هاشـم عددًا من الولد غـير عبـد المطلب وهـم: الـشفاء ونضـلة، وأسد، وأبو صـيفى، وضعيفة، وخالدة، وحنَّة، انظر : تاريخ اليعقوبى، جـ ١ ، صـ ٢٤٤.

(٥) تاريخ الطبرى جـ ٢ ، صـ ١٣٣.

(٦) وهى من الكلمة اليونانية Ekklesia بمعنى «كنيسة» . انظر:
Trimingham , Christianity among the Arabs, P. 304.

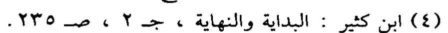
(٧) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ١٣٠، وانظر أيضًا مادة «أبرهة» فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) بقلم بيستون، جـ ١ صـ ١٨٠، وللمؤلف وجهة نظر تختلف مع ما فى المصادر العربية.



مؤداها أن أهل مكة فى أمان إن خَلَّوا بينه وبين غايته الأساسية وهى هدم البيت الحرام، فكان ردّ عبد المطلب أنه يريد إبله التى استولى عليها جند أبرهة، وعددها مائتا بعير. فتعجب أبرهة وقال لعبد المطلب: أتكلمنى فى مائتى بعير قد أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه! فقال عبد المطلب: إنى أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًا سيمنعه[1]! وقد مضى أبرهة لغايته التى أعلنها وهى هدم الكعبة، ولكن الله صان بيته الحرام، وسحق جيش أبرهة ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾[2] على ما جاء فى سورة الفيل.

لقد كان عبد المطلب - إذن - بمثابة زعيم مكة أو أميرها بدليل تلك المفاوضات التى دارت بينه وبين أبرهة، وقد أضاف عبد المطلب إلى هذا كله أنه اضطلع بوظيفتى الرفادة وسقاية الحاج بعد مهلك عمه المطَّلب بن عبد مناف[3].

أما عبد الله بن عبد المطلب - والد الرسول ﷺ - فقد كان أحب أبناء عبد المطلب إليه، وهو الملقب بالذبيح الثانى[4]، وتروى مصادرنا فى تفسيرها لهذا اللقب أن عبد المطلب نذر على نفسه إن رزق عشرة من الولد واستطاعوا نصرته ومَنْعَهُ أن يذبح أحدهم لله عند الكعبة. وسبب هذا النذر أن عبد المطلب كان قد لقى عناء وهو يعيد حفر بئر زمزم. ولم يكن له من الولد غير الحارث، وقد خذلته قريش فى البداية، فلما انبثق الماء من زمزم قامت تنازعه حقه فيها، ولم تُخَلِّ بينه وبين زمزم إلا بعد مكابدة، ومن هنا أحس عبد المطلب بقيمة الذرية التى تمنع جانبه وتشد أزره، فأخذ

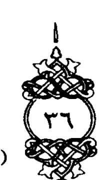


(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ١٣٣ - ١٣٤.

(٢) سورة الفيل: [٥].

(٣) تاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ٢٥١. وكانت الرفادة والسقاية قد صارتا للمطلب بن عبد مناف بعد وفاة أخيه هاشم. انظر: أنساب الأشراف للبلاذرى، جـ ١، صـ ٥٧. وكان المطَّلب شديد الحب لابن أخيه عبد المطلب. واسم عبد المطلب شيبة أو شيبة الحمد، وإنما عرف بعبد المطلب لشدة ارتباطه بعمه المطلب. وكانت أم عبد المطلب - وهى سلمى بنت زيد بن عمرو - من يثرب من بنى عدى بن النجار. وعندما ولد ابنها شيبة الحمد (وهو عبد المطلب) كانت مقيمة بيثرب، وفى تلك الأثناء توفى هاشم بن عبد مناف بغزة، فمكث عبد المطلب بيثرب سبع سنين أو ثمانى سنين، ثم ذهب عمه المطلب من مكة إلى يثرب وحمله معه إلى مكة، وكان الناس لا يعرفونه، فقيل: هو عبد المطلب، فاشتهر عبد المطلب بذلك، وتوارى اسمه شيبة الحمد. للتفاصيل ارجع إلى تاريخ الطبرى، جـ ٢ صـ ٢٤٦، وما بعدها، وأنساب الأشراف للبلاذرى، جـ ١ صـ ٦٤ - ٦٥، وتاريخ اليعقوبى، جـ ١، صـ ٢٤٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٢، صـ ٢٣٥.



على نفسه النذر السابق. فلما تكامل أولاده عشرة [١]، وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم وأخبرهم بنذره ذلك، ودعاهم إلى الوفاء به فأجابوه، ثم اتفقوا على أن يأخذ كل واحد منهم قِدْحًا [٢]، ويكتب عليه اسمه ودخلوا على هبل بهذه القداح. وكان ذاك شأن العربَ؛ كلما حل بهم أمر لم يكنِ وجه الرأى فيه واضحًا ذهبوا إلى «هُبَل» بجوف الكعبة يسألونه أن يُخرج لهم الحقَّ فى هذا الأمر. وكان هناك فى الكعبة من يسمَّى عندهم صاحب القداح، وهو الذى يتولى مسئولية ضربها. فلما ضرب صاحب القداح على أولاد عبد المطلب بقداحهم التى فى أيديهم خرج القِدْح على عبد الله، وكان أحب أبنائه إليه - كما أشرنا - فأخذ عبد المطلب شَفرته وهمَّ بذبحه فوقفت قريش فى وجهه قائلين: «لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه، فما بقاء الناس على هذا؟!» ثم انتهى بهم الرأى إلى أن يذهب إلى عرافة بالمدينة ليعرض عليها أمره مع ابنه، وقالوا له فى ذلك: «إن أمرتك أن تذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته». وتمضى الرواية قائلة إن عبد المطلب ذهب مع بعض قومه إلى تلك العرافة، ولم تكن حينذاك بالمدينة بل كانت بخيبر، فتوجهوا إليها وعرضوا عليها الأمر، فطلبت منهم لقاءها فى اليوم التالى، وعندئذ سألتهم: كم الدية فيكم؟ فقالوا: عشرٌ من الإبل. فطلبت منهم أن يضربوا بالقداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل أمام صنم هُبَل؛ فإن خرج القِدْح على عبدالله فعليهم أن يزيدوا فى الإبل عشرًا عشرًا حتى يرضى هُبَل. ففعلوا ذَلك، فخرج القِدْح على عبدلله، فزادوا عشرًا من الإبل، ثم ضربوا بالقداح مرة أخرى فخرج القدح علَى عبدالله، فزادوا عشرًا، «ثم لم يزالوا يضربون بالقداح ويخرج القِدْح على عبدالله، فكلما خرج عليه زادوا من الإبل عشرًا، حتى ضربوا عشر مرات وبلَغت الإبل مائة، وعبد المطلب قائم يدعو، ثم ضربوا فخرج القِدْح على الإبل، فقالت قريش ومن حضر: قد انتهى رضا ربك يا عبدالمطلب» [٣]. وهكذا نحر عبد المطلب مائة من الإبل فداء لابنه عبدالله الملقب بالذبيح الثانى، ،ومنذ ذلك الوقت أصبحت الدية مائة من الإبل.

---

(١) يذكر البلاذرى أسماء اثنى عشر من أبناء عبد المطلب وهم: الحارث، والزبير، وأبو طالب، والعباس، وعبدالله، وضرار، وحمزة، والمقوَّم، وحَجْل، وقُثم، وأبو لهب، والغيداق. انظر: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٨٧ - ٩٠.

(٢) القِدْح: هو السهم قبل أن يُراش ويُنْصَل، أى قبل أن يُلْحَق به الريش والنَّصْل.

(٣) انظر تفاصيل هذه الرواية فى تاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ٢٤٠ - ٢٤٣. وانظر أيضًا: سيرة ابن هشام، جـ ١، صـ ١٦٤ - ١٦٨، والكامل لابن الأثير، جـ ٢، صـ ٥ - ٧، والبداية والنهاية لابن كثير، جـ ٢، صـ ٢٣٠ - ٢٣١. وقد كانت الدية عشرًا من الإبل قبل هذه القصة. وأول من وُدِى بالمائة عبدالله. السهيلى: الروض الأنف جـ ١ صـ ٢٧١.



هذه هى الرواية التى يرددها الكثير من المؤرخين حول فداء عبدالمطلب لابنه عبدالله، وهناك رواية أخرى مؤداها أن عبدالمطلب كان قد نذر إن رُزق عشرةً من الولد أن ينحر أحدهم. فلما بلغ عدد أولاده عشرة أقرع بينهم فطارت القرعة على ابنه عبدالله، وكان أحب أولاده إليه. فقال عبدالمطلب: اللهم هو أو مائة من الإبل، ثم أقرع بينه وبين الإبل، فطارت القرعة على الإبل [1].

ومهما اختلفت الروايات حول حقيقة نذر عبد المطلب فإن الذى لا مجال للشك فيه أن ابنه عبدالله كان عنده بأخص مكان. ومن هنا سعى بنفسه لتزويجه فاختار له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة [2] «وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبًا وموضعًا»[3]، وقد تزوجها عبدالله فحملت منه بمحمد ﷺ، ثم سافر عبد الله إلى الشام فى تجارة لقريش، فلما فرغ من تجارته وانصرف راجعًا أحس بالمرض قبل وصوله إلى مكة، فنزل بالمدينة عند أخوال أبيه من بنى عدى بن النجار، فلبث هناك شهرًا وهو مريض، ثم توفى ودفن بالمدينة وسنه حينذاك خمس وعشرون سنة [4]، وكان ﷺ حين توفى والده ما زال جنينا طبقًا لأشهر الروايات [5].

محمد ﷺ منذ مولده إلى وفاة جده عبد المطلب:

هكذا شاء الله أن يولد محمد ﷺ يتيمًا، وكان مولده عام الفيل، وهو العام الذى توجّه فيه أبرهة الحبشى لغزو مكة، ويوافق سنة ٥٧٠ أو ٥٧١م [6]. فكانت ولادته ﷺ يوم الإثنين فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول على أشهر الروايات [7]، وهو يوافق

---

(١) تاريخ اليعقوبى، جـ ١، صـ ٢٥٠ ـ ٢٥١. وانظر هذه الرواية أيضًا فى تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٢) آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، يلتقى نسبها مع نسب رسول الله ﷺ عند كلاب بن مرة.

(٣) تاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ٢٤٣.

(٤) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٩٢. وابن كثير: البداية والنهاية جـ ٢، صـ ٢٤٥.

(٥) ابن كثير: نفس المصدر والصفحة. وانظر أيضًا: أنساب الأشراف جـ ١، صـ ٩٢.

(٦) يختار محمود باشا الفلكى سنة ٥٧١م تاريخًا لمولده ﷺ. انظر: محمد الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، صـ ٩.

(٧) سيرة ابن هشام، جـ ١، صـ ١٧١، وقيل: فى الثانى من شهر ربيع الأول، أو الثامن أو العاشر منه. انظر: أنساب الأشراف للبلاذرى، جـ ١ صـ ٩٢، وتاريخ اليعقوبى، جـ ٢، صـ ٧.



نيسان (أبريـل) من شهور السنة الشمـسية (١)، وقد قام جـده عبدالمطلب مـقام والده عبدالله، فأحاطه بكفالته ورعايته.

وقد رضع محمد فى البداية ـ بجانب أمه ـ من ثُوَيْبة جارية عمه أبى لهب، وهى التى أرضـعت عـمه حـمزة ، وجعـفر بـن أبى طالب ، وأبا سـلمة بـن عبـد الأسد المخزومى(٢). ثم حظيت بـشرف إرضاعه ﷺ حليـمة بنت أبى ذؤيب التى تنـتمى إلى بنى سعد بن بكر بن هوازن بن منصور، ومن ثَمّ عُرفت بالسعدية. وكان من عادة قريش وغيرهم من أشـراف العرب أن يرسلوا أولادهم فى مرحـلة مبكرة جدًا من حياتهم إلى البادية ليستمدوا من طبيعة الحـياة هناك صلابة وعزمًا وصحة بدن؛ وليكون ذلك أفصح لألسنتهم (٣). وكانت المـراضع من نساء البـادية يأتين إلى الحـضر بحثًا عن الـرُّضَعاء والتـماسًا للـرزق من وراء حضـانتهم وإرضـاعهم فى البـادية. ومن بيـن القبائـل التى اشتُهـرتْ نساؤها بذلك قـبيلة بنى سـعد المذكورة. وقـد ترددت حليمة فـى البداية أن تأخذ محمدًا لإرضاعـه لِمَا عرفته من يُتْمه، ولِمَا قد يتـرتب على ذلك من ضآلة الأجر الذى ستتقاضاه مقابل إرضاعه وحضانته. فلما لم يُتَحْ لها سواه قَبِلته حتى لا تعود بغير رضيع، وذلك بعد أن استـشارت زوجها الحارث بن عـبد العُزَّى (٤) فى أخذه ، فـقال لها: «لا علـيك أن تفعلى؛ فعسى أن يجعل الله لنا فـيه بركة». وهذا ما كـان. تقول حليمة: «لم يزل الله يُـرينا البركة نتعرَّفهـا حتى بلغ سنتين؛ فكان يشبُّ شـبابًا لا تَشبُّه الغلمان، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلامًا جَفْرًا (أى قويًا) (٥).

والواضح أن حليمة السـعدية أسبغت على محمد ﷺ كل اهـتمام ورعاية. وقد شاركها هذا الاهتمـام كلُّ أفراد أسرتها، وكان لحليمة وزوجها الـحارث بن عبد العزى من الولد عبدالله وأُنَيْسة وخذامة، وهى التى يقال لها الشيماء، فهؤلاء هم إخوة الرسول ﷺ من الرضاعة. ويذكر بعض المؤرخين أن الشيماء كانت تحضنه مع أمها(٦).

---

(١) يذكر الـسـهيلى أنه ولد فـى العشرين من نـيسان (أبريل). انظـر : الروض الأنف، جـ ١ ، صـ ٢٨٣.

(٢) تاريخ اليعقوبى، جـ ٢ ، صـ ٩.

(٣) السهيلى: الروض الأنف ، جـ ١ ، صـ ٢٨٧.

(٤) الحارث بن عـبد العزى بن رفاعة بـن ملان ينتمى ـ كزوجه حـليمة ـ إلى بنى سعـد بن بكر بن هوازن. ابن حزم : جمهرة أنساب العرب صـ ٢٥٦.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ، جـ ٢ ، صـ ٢٥٥. وانظر أيضًا: سيرة ابن هشام، جـ ١، صـ١٧٥.

(٦) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ١٥٧ ، وزاد المعاد لابن القيم ، جـ ١ ، صـ ١٩.



وتختلف الروايات حول المدة التى قضاها محمد ﷺ فى حضانة حليمة السعدية؛ فيذكر البعض أنها كانت خمس سنوات، وقيل: أربعًا [١]، وتذكر بعض الروايات أنه ظل فى حضانتها حتى السادسة [٢]، وتبدو الرواية الأولى أصح الروايات؛ فقد رجع محمد ﷺ من عند حليمة قبل وفاة أمه، ولكن المدة التى نَعِم فيها بحنان أمه ورعايتها لم تطُلْ؛ فقد توفيت وقد جاوز السادسة بثلاثة أشهر[٣].

وهكذا وجد محمد ﷺ نفسه فى سن مبكرة محرومًا من حنان الأبوة والأمومة معًا، ولكن جده عبد المطلب حاول جاهدًا أن يعوضه بعض ما فقده، فقد كان بالغ الرأفة به، شديد الحرص عليه، حفيًّا به أعمق ما تكون الحفاوة. فمما يروى فى ذلك أنه كان يوضع لعبدالمطلب فراش فى ظل الكعبة، ولم يكن بنوه يجترئون على الجلوس عليه إجلالا لأبيهم ومهابة له، فكان محمد ﷺ يأتى وهو صبى فيجلس عليه، فيحاول أعمامه منعه، فيأبى ذلك عبدالمطلب قائلا: «دعوا ابنى؛ فوالله إن له لشأنًا» ، ثم يُجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده «ويسرُّه ما يراه يصنع» [٤]. ويذكر المؤرخون أن عبدالمطلب ضم محمدًا ﷺ إليه بعد وفاة أمه آمنة، «ورقّ عليه رقةً لم يرقَّها على ولده، وكان يقرِّبه منه ويدنيه، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام» [٥]. إلى هذا المدى وصل حُبُّ عبدالمطلب لحفيده محمد ﷺ وحنوُّه عليه، ولكن العمر لم يمتد طويلاً بعبدالمطلب بعد وفاة آمنة ليسبغ على الرسول مزيدًا من عطفه ورعايته، فوافاه الأجل وقد بلغ الرسول من العمر ثمانى سنين على أشهر الأقوال[٦].

محمد منذ وفاة جده عبدالمطلب إلى زواجه بخديجة:

الحق أن مظاهر رعاية عبدالمطلب لمحمد ﷺ امتدت لتشمل الفترة التى تلت وفاة عبدالمطلب نفسه، فبتوصية منه تحمَّل أبو طالب بن عبدالمطلب مسئولية رعاية

---

(١) تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، صـ ١٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٢ ، صـ ٢٥٨ .

(٣) تاريخ اليعقوبى، جـ ٢ ، صـ ١٠ . وقد كانت آمنة فى زيارة قبر زوجها عبدالله بن عبدالمطلب بالمدينة ، ثم توفيت بالأبواء، «وهو موضع معروف بين مكة والمدينة، وهو إلى المدينة أقرب» . انظر : السهيلى: الروض الأُنُف ، جـ ١ ، صـ ٢٩٧ .

(٤) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ١٨٠ .

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ، جـ ٢ ، صـ ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

(٦) تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، صـ ١٣ ، وتاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ١٦٦ .



محـمد ﷺ، والواضح أن عبـد المطلب لم ير أجـدر من أبى طالب بنيـل شرف هذه المسئولية الجليلة؛ فالمعروف أن أبا طالـب كان شقيقًا لعبدالله والد الرسول ﷺ ؛ فقد كانا لأم واحدة هـى فاطمة بنت عمـرو بن عائذ، وكان لهـما شقيق آخر هـو الزبير بن عبدالمطلـب، وشقيقات أربع هن عاتكـة، وبرة ، وأروى ، وأميمة[١]. ولكن هذا لم يكن كل ما رشّح أبا طالب ـ فى نظر أبيه عبدالمطلب ـ لكفالة محمد، وإلا لاستطاع أن يختار الزبير لهذه المهمة. إن الذى رشح أبا طالب لذلك ـ فضلاً عن كونه العم الشقيق لمحمـد ﷺ ـ هو مؤهلاته الشخصيـة التى لم يتمتع بهـا غيره؛ فقد كان يتـسم بدماثة الخلق وسماحة النفس، ويُعرف فى الوقت ذاته بصـلابته ومهابته بين قريش؛ ولهذا كان خليقًا بأن يمنح محمدًا عطفه وحمايتـه معًا، يقول اليعقوبى: «كفل رسولَ الله ﷺ بعد وفاة عبدالمطلب أبو طالب عمه، فكان خيـر كافل. وكان أبو طالب سيدًا شريفًا مطاعًا مهيبًا مع إملاقه»[٢] .

ولا جدال فى أن أبا طالب قام بمهمته على خـير وجه، وقد بلغ تعلق محمد به فى طفولته مبلغًا جعله لا يكاد يصبـر على فراقه، ومما يروى بهذا الصدد أن أبا طالب تهيأ يومًا للـسفر فى تجارة إلى الشام، « فلما أجمـع السير صَبَّ به رسول الله ﷺ . . فرقَّ له أبو طـالب فقال: والله لأخْرُجَنَّ بـه معى، ولا أفارقه ولا يفـارقنى أبدًا»[٣] وقد نزل أبو طالـب خلال تلك الرحلـة ببُصْرى من أرض الشـام، وكان عمـر الرسول ﷺ حينئذ تسع سنين[٤] (أو اثنتى عشرة سنة طبقًا لبعض الروايات)[٥]. وهذه هى الرحلة التى تذكر مصادرنا أن محمدًا التقى خلالها ـ أثـناء نزوله ببصرى ـ براهب فى صومعته يقال له بَحِيرَى[٦] ،وهو الراهب الذى استطاع فى هذا اللقاء أن يتنبأ بمبعثه ﷺ.

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٢٣٩، وأنساب الأشراف للبلاذرى ، جـ ١ ، صـ ٨٧ ـ ٨٨ .

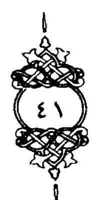
(٢) تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، صـ ١٤ .

(٣) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٢٧٧ .

(٤) نفس المصدر ، صـ ٢٧٨ .

(٥) البلاذرى: أنسـاب الأشراف، جـ ١ صـ ٩٦ - ٩٧ ويورد البلاذرى الرواية الأولـى ولكنه يرجح الثانية. وانظر حول ذلك أيضًا: ابن كثير: البداية والنهاية ، جـ ٢ ، صـ ٢٦٥.

(٦) تاريخ الطبرى، جـ ٢ صـ ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ، وتذكر بعض المصادر أن اسم الراهب هو جرجيس أو سرجيـوس، وعلى هذا يكون بحـيرى هو لقبه. انـظر: الحلبى: إنسـان العيون في سيـرة الأمين المأمون، جـ ٣ ، صـ ١٩٣، هذا ،ويشكـك الكثير من المستشرقين فـى قصة لقاء الرسول ﷺ ببحيرى ، ويعتـبرها أوليرى «إحدى أصعب المأثورات فى حيـاة الرسول المبكرة» انظر: Arabia before muhammad , P. 187 وانظر أيضًا: M. Watt, Muhammad, Prophet and statesman, P. 3. ومع ذلك فنحن لا نجـد فى أساس القصة أمرًا مسـتغربًا رغم أن التفاصيـل التى ترويها =



والجدير بـالذكر هنا أن رعاية أبـى طالب لمحمد ﷺ كـان لها انعكاسـها على زوجه وأم أولاده جميعًا وهى فاطمة بنت أسـد بن هاشم. وقد تقدم السنّ بفاطمة حتى أدركت الإسلام وماتت مـسلمة. ويروى أن الرسول ﷺ قال يوم ماتـت: «اليوم ماتت أمي!»، «وكفنهـا بقميصه ونزل على قـبرها واضطجع فى لحدها، فقـيل له: يا رسول الله، لقد اشتـد جزعك على فاطمـة! قال: إنها كانت أمي؛ إنْ كـانت لتجيع صبـيانها وتُشبعنى، وتشعثهم وتدهننى، وكانت أمى!» [1].

هكذا شبَّ مـحمد ﷺ فـى رعاية عمـه أبى طالب الذى قـام بدور الأب، وفى رعاية فاطمة زوج عمه التى قامت بدور الأم.

وكان من أبرز الأحداث التـى عاصرها الرسول ﷺ خلال تلك المـرحلة المبكرة من شبابه حرب الفجَار، وهى التى كانت بين كنانة وقيس عيلان، وتعرف هذه الحرب بـ «الفجـار الثانى» أو «الفجار الآخـر» إشارة إلى حرب أخرى سـابقة عليها بـين كنانة وقيس عيلان أيضًا تعرف بـ «الفجار الأول»، ولم يكن لها كبير شأن [2].

أما الفجـار الثانى فيصفه ابـن الأثير بأنه «لم يكن فى أيام العـرب أشهر منه ولا أعظم». ويضيف ابن الأثير أنه «إنـما سُمىَّ الفجار لما استحل الحيَّـان كنانة وقيس فيه من المحارم» [3]. ويرى بعض المؤرخين أنه سمى بذلك لأن كنانة وقيس عيلان «اقتتلوا فى رجب، وكان عندهم الشهر الحرام الذى لا تسفـك فيه الدماء، فسمى الفجار لأنهم فجروا فى شهر حرام»[4].

وتخـتلف الروايـات حول سن الرسـول ﷺ إبان هذه الـحرب التـى دامت أربع سنين[5]؛ وذلك راجع فى الـمقام الأول إلى عـدم التحديد الدقـيق لبداية هـذه الحرب ونهايتهـا، ثم إنه راجع كذلك إلى أن بعض الروايات نظر إلى بدايـة الحرب، فى حين

= بعض مصادرنا قد تكون فى حاجة إلى إعادة نظر.

(١) تاريخ اليعقوبى: جـ ٢، صـ ١٤.

(٢) حول «الفجار الأول» ارجع إلى: الكامل لابن الأثير، جـ ١، صـ ٥٨٨ ـ ٥٨٩، والأغانى للأصفهانى، جـ ٢٢، صـ ٥٤ - ٥٦.

(٣) الكامل، جـ ١، صـ ٥٨٩ ـ ٥٩٠.

(٤) تاريخ اليعقوبى، جـ ٢، صـ ١٥.

(٥) قيل: إن الرسـول ﷺ كان حينذاك ابن أربـع عشرة سنة، وقيـل: خمس عشرة، وقـيل: سبع عشرة، وقـيل: عشرين، وقـيل: ثمان وعشـرين، انظر: سيرة ابن هـشام، جـ ١، صـ ١٩٨ ـ ٢٠١، والأغانى للأصفهانى، جـ ٢٢، صـ ٥٦، وتاريخ اليعقوبى جـ ٢، صـ ١٥.

نظر بعضها إلى نهايتها، ونظر بعضها الآخر إلى ما بين ذلك[1]، وفى هذا السياق يذكر بعض المؤرخين أن حرب الفجار الثانى كانت «بعد الفيل بعشرين سنة، وبعد موت عبدالمطلب باثنتى عشرة سنة»[2]، وذلك دون أن نعرف على وجه التحديد هل المقصود بذلك بداية الحرب أو نهايتها.

والظروف التى أدت إلى قيام حرب الفجار تتلخص فى أن النعمان بن المنذر اللخمى ملك الحيرة أراد أن يبعث بقافلة تجارية له إلى سوق عكاظ ليبيعها هناك، وأراد فى الوقت نفسه أن يؤمّن هذه القافلة ضد هجمات قطاع الطرق. وكان فى مجلسه البرّاض بن قيس بن رافع (وهو من قبيلة كنانة)، وعروة بن عتبة بن جعفر الرحّال (وهو من قبيلة هوازن التى تنتمى إلى قيس عيلان). فعرض عروة الرحّال على النعمان أن يجير قافلته، فقبل النعمان عرضه؛ فأحْفَظ ذلك البرّاض وقال لعروة محتجًا: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق! فأضمر البرّاض قتل عروة، وعندما خرج عروة فى قافلة النعمان خرج وراءه البرّاض يطلب غفلته حتى تمكن من قتله، فهاجت الحرب بين قيس وكنانة من أجل قتل البرّاض لعروة[3].

وقد انضمت قريش إلى كنانة فى هذه الحرب وشهد الرسول ﷺ بعض أيامها مع أعمامه، وروى عنه أنه قال: «كنت أيام الفجار أنْبُل على عمومتى» أى: أناولهم النَّبل، أو أردّ عنهم نَبْل عدوهم إذا رموهم بها[4]. وقد انتهت الفجار بعد أربع سنين من بدايتها بصلح قام على أساس أن يدفع الفريق الذى قلَّ عدد قتلاه دية القتلى الزائدين فى الفريق الآخر، فدفعت قريش وكنانة بمقتضى هذا الصلح دية عشرين رجلا من قيس[5].

---

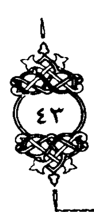
(١) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، صـ ١٣٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١، صـ ٥٨٩.

(٣) راجع المزيد من التفاصيل فى سيرة ابن هشام، جـ ١ صـ ١٩٨ ـ ٢٠١، وتاريخ اليعقوبى، جـ ٢، صـ ١٥. والكامل لابن الأثير جـ١، صـ ٥٩٠ ـ ٥٩١، والأغانى للأصفهانى، جـ ٢٢، صـ ٥٦ ـ ٥٨، والبداية والنهاية لابن كثير، جـ ٢ صـ ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

(٤) ويروى: «كنت أُنَبِّل على عمومتى يوم الفجار» بضم الهمزة فى (أُنَبِّل) وفتح النون وتشديد الباء، والمعنى واحد؛ أى أناولهم النَّبل للرمى، كما يذكر ابن منظور فى لسان العرب، مادة نبل، جـ ٦، صـ ٤٣٣١. ويقول ابن هشام: «قال رسول الله ﷺ: (كنت أنْبُل على أعمامى)، أى أرد عنهم نَبْلَ عدوهم إذا رموهم بها» سيرة ابن هشام، جـ ١، صـ ٢٠١.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ ١، صـ ٥٩٥.



ولم يمض طويل زمن على انقضاء حرب الفجار حتى شهد الرسول ﷺ حلفًا عُرف باسم «حلف الفُضول»[١]. ولابد أولا من معرفة الملابسات التى عقد فيها هذا الحلف. فقد قدم مكة رجل زُبيدى من أهل اليمن ببضاعة له[٢]، فاشتراها منه العاص ابن وائل السَّهمى ورفض أن يعطيه ثمنها، فاستغاث الزُّبيدى بالأحلاف من قريش (وهم بنو عبدالدار وبنو مخزوم وبنو جمح وبنو سهم وبنو عدى) فأبوا أن يغيثوه، فاعتلى جبل أبى قُبَيْس ـ وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ـ فأنشد عدة أبيات مطلعها:

يا آلَ فِهْرٍ لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنَّفر

فلما سمع ذلك الزبير بن عبدالمطلب بن هاشم قال: «ما لهذا مترك!»[٣] فاجتمع فى دار عبدالله بن جُدعان التيمى عدد من بطون قريش وهم: بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد، وبنو زُهرة، وبنو تيم[٤]، وتحالفوا فى ذى القعدة، فى شهر حرام، «على ألا يُظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ويؤدوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم»[٥]. ثم انطلقوا إلى العاص ابن وائل وقالوا له: «والله لا نفارقك حتى تؤدى إليه حقه» ، فنزل العاص على إرادتهم وأعطى الرجل حقه. فمكثوا كذلك لا يُظْلمُ أحدٌ حقَّه بمكة إلا أخذوه له[٦]. وحين

---

(١) تذكر بعض الروايات أن حلف الفضول عقد بعد انقضاء حرب الفجار بأربعة أشهر وقبل البعثة بعشرين عامًا، أى أن عمر الرسول ﷺ حينئذ كان عشرين عامًا، البداية والنهاية لابن كثير ، جـ ٢ ، صـ ٢٧٠ ، ويذكر ابن شاكر الكتبى أن حلف الفضول عُقد وعمر الرسول ﷺ تسعة عشر عامًا. انظر: عيون التواريخ، جـ ١ ، صـ ٣٧. وهناك روايات أخرى فى هذا الصدد لا داعى للتوسع فيها. والثابت على كل حال أن حلف الفضول كان بعد انقضاء حرب الفجار بوقت غير طويل.

(٢) رجل زُبيدى (بضم الزاى) : منسوب إلى بنى زُبيد، وهى قبيلة من مَذْحج، أما «زَبيدى» بفتح الزاى) فهى نسبة إلى زَبيد ، وهى مدينة باليمن، راجع: ابن الأثير : اللباب فى تهذيب الأنساب، جـ ٢ ، صـ ٦٠.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٢ ، صـ ٢٧٠ ـ ٢٧١.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، صـ ٤١.

(٥) أبو الفرج الأصفهانى: الأغانى ، جـ ١٧ ، صـ ٢٨٩.

(٦) نفس المصدر : ، صـ ٢٩٠.





رأت قريش ذلك قـالت: «لقد دخل هؤلاء فى فـضل من الأمر»، فعـرف ذلك الحلف بـ«حلف الفضول» [١].

إن التقدير العميق الـذي لقيه حلف الفضول بمكة عبَّر عنه أصدق تعـبير عتبةُ بن ربيعة بن عبد شمس الذى لم يدخل قـومه فى حلف الفضول ، وذلك حين قال : «لو أن رجـلا وحده خـرج من قومـه لخـرجت من عـبد شـمس حـتى أدخل فى حـلف الفضول»[٢].

لقد كان الرسول ﷺ أحد شهود هذا الحلف وهو فى صدر شبابه، وبعد الإسلام أشار ﷺ إلى هذا الحلف إشارة تتعدد صيغها فى مصادرنا ويتفق مضمونها، فمن ذلك ما يروى من أنـه قال: «شهدت حلفًـا فى دار عبد الله بن جُدْعَـان لم يزده الإسلام إلا شدة، ولهو أحبُّ إلىَّ من حمر النَّعم، أما لودُعيتُ إليه اليوم لأجبت» [٣]. فالواضح أن مبادئ هذا الحلف تتـفق فى جوهرها مع قيم الإسلام وتوجيهاتـه ؛ لأنها مبادئ تهدف إلى حماية جقوق الإنسان وإنصاف المـظلوم من الظالم، ولم يزد الإسلام هذه المبادئ إلا شدة كما عبر عن ذلك رسول الله ﷺ.

***

لقد كـانت الفتـرة التى شهدتْ صـدرَ شباب الرسـول ﷺ فترة وداعة وسـكينة وتأمل. وقد اشتهر الرسول ﷺ بعزوفه عن لهو الـشباب ولغو الحديث وتحمله المبكر للمسئولية. ومن هنا أراد فى سن مبكـرة أن يخفف عن عمه أبى طالب بعض مؤونته ـ وكان أبو طالب كثيـر العيال ـ فاشتغل برعى غنم أهلـه وأهل مكة. وكان رعى الغنم ـ كما ذكر ﷺ ـ حرفة الأنبياء، ومما يروى عنه فى هذا الصدد قوله: «ما من نبى إلا وقد رعى الغنم». قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: «وأنا» [٤]، ويشرح «السهيلى» الحكمة من

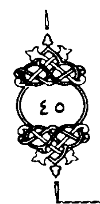
---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٢ ، صـ ٢٧١، وقد وردت فى سبب التسمية روايات أخرى، من بينها أنه لما سمِع بهذا الحلف بعض من لم يدخله من قريش قال يعيبه: «هذا من فضول القوم» ، وقيل: بل سُمى بذلك لأن المشتركين فيـه قالوا: «لا ندع لأحد عند أحد فضلاً إلا أخذناه منه». وقيل: بل السبب أن قومًا مـن جرهم عقدوا حلفًا شبيهًا بهذا الحلـف يقوم على نصر المظلوم ، وكان اسمهم الفضـل بن فضالة، والفضل بن وداعة ، والفضل بن الحارث، فـلما عقدت قريش مثل حلفهم سموه بذلك. انظر: الأغانى للأصفهانى ، جـ ١٧ ، صـ ٢٩٤ و صـ ٣٠٠، والبداية والنهاية لابن كثير ، جـ ٢ ، صـ ٢٧١.

(٢) أبو الفرج الأصفهانى، الأغانى، جـ ١٧ ، صـ ٢٩٠.

(٣) نفس المصدر السابق ، صـ ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٤) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ١٧٨.



وراء ذلك بقوله: «إنما جعل الله هذا فى الأنبياء تقدمة لهم، ليكونوا رعاة الخلق، ولتكون أممهم رعايا لهم»[1]. ثم إن رعى الغنم يتيح للراعى فرصة التفكير والتأمل وتصفية النفس؛ فلا شك أن «راعى الغنم الذكى القلب» - كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل - «يجد فى فسحة الجو الطلق أثناء النهار وفى تلألؤ النجوم إذا جَنَّ الليل موضعًا لتفكيره وتأمله يسبح منه فى هذه العوالم يبتغى أن يرى ما وراءها ، ويلتمس فى مختلف مظاهر الطبيعة تفسيرًا لهذا الكون وخَلْقه . . وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضى انتباهه ويقظته حتى لا يعدو الذئب على شاة منها وحتى لا تضل إحداها فى مهامه البادية، فأى انتباه وأية قوة تحفظ على نظام العالم كل إحكامه! وهذا التفكير والتأمل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير فى شهوات الإنسان الدنيا والسموّ به عنها»[2].

ومضت الحياة بالرسول ﷺ على هذا النحو الوادع المطمئن فى مكة حتى أتيحت له - حين بلغ الخامسة والعشرين من عمره - فرصة الخروج من مكة مشتغلا فى تجارة السيدة خديجة بنت خويلد[3]. ويروى المؤرخون فى هذا السياق أن خديجة كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم، وقد بلغها عن رسول الله ﷺ صدقُ الحديث وكرم الخُلُق وتمام الأمانة (وكان ﷺ يلقب بالأمين) فلما عرفت ذلك منه عرضت عليه أن يخرج فى مالها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، فقبل ذلك منها رسول الله ﷺ وخرج فى تلك المهمة مع غلام لها يقال له ميسرة ، حيث توجها إلى الشام[4]. وهناك باع ﷺ السلع التى خرج بها واشترى ما أراد أن يشترى ثم رجع إلى مكة ومعه

---

(١) الروض الأنف، جـ ١ ، صـ ٢٩٦.

(٢) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد ، صـ ١٣٥.

(٣) هى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، فهى تلتقى مع رسول الله ﷺ عند قصى بن كلاب.

(٤) فى بعض مصادرنا إشارة سريعة إلى أن أحد الرهبان، واسمه نسطورا أو نسطور (كما فى ابن خلدون) ، رأى محمدًا ﷺ أثناء رحلته تلك إلى الشام وشاهد فيه من الدلائل ما جعله يخبر ميسرة أنه النبى القادم. ولكن المصادر لا تلقى ضوءًا كافيًا على ذلك . انظر: ابن شاكر الكتبى: عيون التواريخ، جـ ١ ، صـ ٣٨، ابن خلدون : العبر ، جـ ٢ ، صـ ٣٩٥، السهيلى: الروض الأنف، جـ ١ ، صـ ٣٢٣. وقد سبق أن ذكرنا أن محمدًا ﷺ - خلال رحلته الأولى إلى الشام وهو غلام بصحبة عمه أبى طالب - قابل راهبًا يقال له بحيرى ، وأشرنا إلى ما يثيره بعض المستشرقين من تشكيك حول ذلك، وهى شكوك لا تقوم على أساس متين رغم قلة المادة المتاحة فى هذا الصدد.



ميسرة، وقد باعت خديجة ما جاء به محمد ﷺ فتضاعف ربحها فتفاءلت به خيرًا. ثم كان حديث ميسرة لها عما شد انتباهـه فى شخصية محمد ﷺ من سمات ودلائل تفوق مستوى البشر العاديين ـ كان ذلك الحديث سببًا لأن تزداد عليه حرصًا ، وبه تمسكًا[1]. ومنذ ذلك الوقت بدأت حياة محمد ﷺ تتخذ مسارًا جديدًا.

محمد منذ زواجه بخديجة حتى البعثة:

لقد أتيح لخديجة أن تتعرف على محمد ﷺ عن كثب، واستطاعت خلال فترة وجيزة من تعرفها عليه أن تكتشف مواطن السمو والعظمة فى شخصيته. وكانت خديجة ـ بشهادة ثقات المؤرخين ـ «أوسط نساء قريش نسبًا وأعظمهن شرفًا وأكثرهن مالا»[2] وكان سادات قريش يتطلعون إلى الزواج منها ولكنها لم تكن راغبة فى ذلك، فلما رأت محمدًا ﷺ وعرفت ما كان يتحلى به من صفات نادرة عرضت عليه نفسها، فذكر ذلك لأعمامه، فخطبها له عمه حمزة من عمها عمرو بن أسد (وكان أبوها قد توفى)[3]، فتزوجها محمد ﷺ وكانت سنه حينذاك خمسًا وعشرين سنة، وكانت خديجة تكبره بخمسة عشر عامًا طبقًا لأشهر الروايات[4].

لقد كان زواج محمد ﷺ من خديجة معلمًا بارزًا فى مسار حياته، فقد وجد فيها معوانًا على كل مصاعب الحياة، وأغدقت عليه هذه الزوجة المخلصة من حبها ورعايتها ما عوضه عن مرارة اليتم الذى ذاقه صغيرًا، ومما زاد فى توثيق وشيجة الصلة الزوجية بين محمد ﷺ وخديجة أن الله رزقه منها كل أولاده إلا إبراهيم، فقد ولدت له زينب، ورقية ،وأم كلثوم، وفاطمة، والقاسم، وعبدالله (الملقب بالطاهر والطيب)، فأما ابناه فقد ماتا قبل الإسلام، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ[5].

---

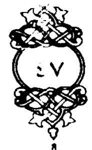
(١) سيرة ابن هشام، جـ ١ ، صـ ٢٠٣ ـ ٢٠٥ ، تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٢٨٠ ـ ٢٨١ . الكامل لابن الأثير، جـ ٢ ، صـ ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ ١ ، صـ ٢٠٥ . تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٢٨١.

(٣) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٢٨١ ـ ٢٨٢.

(٤) نفس المصدر، صـ ٢٨٠. وانظر أيضًا: الكامل لابن الأثير، جـ ٢ ، صـ ٣٩ . وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى، جـ ١ ، صـ ٣٨. وزاد المعاد لابن القيم ، جـ ١ ، صـ ٢٦ ، ويذكر ابن كثير فى بعض رواياته أن عمر خديجة عند زواجها من محمد ﷺ كان خمسًا وثلاثين. البداية والنهاية جـ ٢ ، صـ ٢٧٣. وتطرح المستشرقة البريطانية «كارين آرمسترونج» احتمالا مؤداه أن خديجة كانت دون الأربعين عند زواجها من محمد ﷺ لأنها أنجبت منه ستة أطفال. انظر كتابها: سيرة النبى محمد صـ ١٢٥ ـ ١٢٦ . ولكن ذلك ليس دليلا حاسمًا على كل حال.

(٥) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٢٨١، والبداية والنهاية لابن كثير، جـ ٢ ، صـ ٢٧٣، =



في بيت خديجة نَعِم محمد بالطمأنينة والأمان، وأتاح له هذا الزواج الهادئ المستقر أن يمارس رياضته الروحية المحببة ، وهى التأمل المستغرق العميق الذي لا تشتته مشاغل الحياة ومصادر القلق فيها. وفى تلك الفترة كان يحلو له الخلاء والانفراد عن قومه لما يراهم عليه من عبادة الأوثان، «فكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه - والتحنث : التعبد - . . . ويمكث الليالى قبل أن يرجع إلى أهله، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود» [١]. وكانت خديجة تشجعه على ذلك النهج القويم الذي ترك فى نفسها أعمق الأثر، وهيأها لتكون أول من آمن برسول الله ﷺ.

علت مكانة محمد ﷺ بين أهل مكة فى تلك الفترة لِمَا اشتُهر به من صدق وأمانة واستقامة وبُعْد عن سفاسف الأمور، وقد لقبوه بالأمين كما ذكرنا. ومن أبرز الأحداث التى ارتبط بها اسم محمد ﷺ فى تلك المرحلة إعادة بناء الكعبة، ففى العام الخامس والثلاثين من ميلاد محمد ﷺ - أى قبل البعثة بخمس سنين - قررت قريش هدم الكعبة وإعادة بنائها، وسبب ذلك أن الكعبة كان قد أصابها سيل تصدعت منه جدرانها[٢]، ولم تكن الكعبة مسقوفة، فكان ذلك يغرى بها اللصوص الذين يطمعون فيما تحوى من كنوز، ومن هنا أقدمت قريش على هدم الكعبة وإعادة بنائها بعد أن ترددت طويلاً مخافة أن تنزل بها نقمة الآلهة إن فعلت ذلك، ويروى أن الوليد بن المغيرة المخزومى كان أول من بدأ الهدم، «فتربص الناس به تلك الليلة وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله صُنْعَنَا ، فَهَدَمْنا»[٣] . فلما أصبح الوليد غاديًا على عمله اطمأن الناس فهدموا معه.

فلما انتهى الناس من هدم الكعبة أخذوا يجمعون الأحجار لإعادة بنائها، ثم بنوا حتى إذا ارتفع البناء وآن أن يوضع الحجر الأسود فى موضعه من الجانب الشرقى[٤] تنازعت قبائل قريش فى ذلك، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى لتنال

= ويروى البلاذرى أن عبدالله «وُلِدَ بعد المبعث فى الإسلام وتوفى بمكة، فقال العاص بن وائل: محمد أبتر، لا يعيش له وَلد ذكر، فأنزل الله عز وجل: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾». أنساب الأشراف، جـ١، صـ ٤٠٥.

(١) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ ١ ، صـ ١٠٥.

(٢) تاريخ اليعقوبى، جـ ٢ ، صـ ١٩.

(٣) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ٢١٢.

(٤) هيكل: حياة محمد، صـ ١٤٠.



شرف ذلك. واحتدم الصراع حتى تحالفت القبائل وتواعدت للقتال وكادت الحرب أن تشتعل بينها.

مكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمسًا، ثم نزلت على اقتراح من أبى أمية ابن المغيرة [1] الذي كان وقتذاك أسنَّ قريش كلها، حيث قال لهم: «يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضى بينكم فيه». فكان أول من دخل عليهم محمد ﷺ، فلما رأوه قالوا: «هذا الأمين، قد رضينا به، هذا محمد». وعندما قصوا عليه الأمر قال لهم: «هلمّ لى ثوبًا» - أى أحضروا لى ثوبًا - فجاؤوه به، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لتأخذ كلُّ قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا»، ففعلوا، حتى إذا بلغوا موضعه أخذه فوضعه في مكانه بيده ثم بنى عليه[2]. وهكذا تجلت حكمة محمد ﷺ وبعد نظره، واستطاع بهذا الحل البارع أن يجنب قريشًا مخاطر فتنة كادت تعصف بأمنها وسلامتها، وقد رضى القرشيون بحكم محمد ﷺ وقراره؛ فقد كانت مكانته لديهم قبل البعثة فوق مستوى الشبهات.

وكانت رغبة محمد ﷺ فى الخلوة والتأمل تتزايد يومًا بعد يوم حتى بلغت ذروتها فى العام الذى اختاره الله فيه لرسالته. والمعروف أنه ﷺ كان يتعبد فى خلوته فى غار حراء على الملة الحنيفية التى أتى بها إبراهيم - عليه السلام - واستمد الإسلام نفسه منها أساس دعوته، وهو ما يتضح فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾[3] ولا شك أن تجربة الخلوة والتأمل التى عاشها محمد ﷺ قبل بعثته كانت إعدادًا روحيًا له من الله سبحانه لحمل أقدس رسالة عرفتها البشرية، وهى الرسالة الخاتمة أو دعوة الإسلام.

---

(١) أبو أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم، واسمه أبو حذيفة، من بنى مخزوم. هو عم خالد بن الوليد ووالد أم سلمة (واسمها هند) زوج رسول الله ﷺ. انظر: البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٤٢٩، وابن حزم: جمهرة أنساب العرب، صـ ١٤٤ - ١٤٦.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ ١، صـ ٢١٣ - ٢١٤، تاريخ الطبرى، جـ ٢ صـ ٢٨٩ - ٢٩٠، وقارن بما فى أنساب الأشراف للبلاذرى، جـ، صـ ٩٩ - ١٠٠.

(٣) سورة الأنعام: [١٦١].





الفصل الثالث

بعثة الرسول وتطور الدعوة
في مكة حتى هجرة المسلمين إلى الحبشة

هكذا هيأ الله محمدا ﷺ لاستقبال دعوته، و ﴿...**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**...﴾ [1] فلما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة بدأ في تلقى الوحى، وكان ذلك فى السابع عشر من شهر رمضان [2]. وتذكر مصادرنا أنه بينما كان ﷺ ذات يوم فى غار حراء مستغرقًا فى عبادته وتأمله كعادته إذ هتف به بغتة هاتف يقول له: يا محمد.. أنت رسول الله! فيروى أن رسول الله ﷺ قال: «فجثوت لركبتى وأنا قائم، ثم زحفت ترجف بوادرى[3]، ثم دخلت على خديجة فقلت: زملونى.. زملونى..! حتى ذهب عنى الروع، ثم أتانى فقال: يا محمد.. أنت رسول الله. قال: فلقد هممت أن أطرح نفسى من حالق [4] من جبل، فتبدى لى حين هممت بذلك، فقال: يا محمد، أنا جبريل، وأنت رسول الله. ثم قال: اقرأ. قلت: ما أقرأ؟ قال: فأخذنى فغتَّنى (أو غطَّنى) ثلاث مرات (أى ضمنى بشدة) حتى بلغ منى الجهد، ثم قال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [5] فقرأت، فأتيت خديجة فقلت: لقد أشفقت على نفسى، فأخبرتها

---

(١) سورة الأنعام: [١٢٤].

(٢) يوم الإثنين. انظر البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ١٠٥.

(٣) البوادر: جمع بادرة، قيل: هى لحمة بين المنكب والعنق، وقيل: هى عروق تضطرب عند الفزع، ويروى: يرجف فؤادى. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، صـ ٧.

(٤) يقول ابن منظور: «جبل حالق: لا نبات فيه كأنه حُلِق، وهو فاعل بمعنى مفعول.. وقيل: الحالق من الجبال المنيف المشرف، ولا يكون إلا مع عَدم نبات، ويقال: جاء من حالق أى من مكان مشرف.. وفى حديث المبعث: فهممت أن أطرح بنفسى من حالق، أى من جبل عال» لسان العرب، جـ ٢، صـ ٩٦٦.

(٥) سورة العلق: [١].

خبرى، فقالت: أبْشِر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، ووالله إنك لتصل الرحم وتَصْدُق الحديث وتؤدى الأمانة، وتحمل الكَلَّ وتَقْرِى الضيف وتُعين على نوائب الحق» [١].

كانت هذه التجربة شديدة الوقع على الرسول ﷺ عميقة الأثر فى نفسه، ولم يكن فى البداية يعرف حقيقتها على وجه التحديد، بل يروى أنه قال لخديجة حين ذهب إليها: «ما أرانى إلا قد عُرِض لى» أى أصابنى مس من الجن، وقد حاولت السيدة خديجة أن تخفف عنه من وقعها، ولكنها هى أيضًا لم تكن على بينة من كُنْه ما حدث، ولهذا انطلقت برسول الله ﷺ إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد الذى كان قد تنصر - كما ذكرنا - واستحكم فى النصرانية وقرأ الكتب، فلما عرف ورقة من رسول الله ﷺ ما حدث له قال: «هذا الناموس [٢] الذى أنزل على موسى بن عمران، ليتنى فيها جَذَع! [٣] ليتنى أكون حيًّا حين يخرجك قومك!» فقال ﷺ: «أَمُخْرِجِىَّ هم» ؟ قال: «نعم، إنه لم يجئ رجل قط بما جئت به إلا عُودِىَ، ولئن أدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا» [٤].

ألقت كلمة «ورقة» الطمأنينة فى نفس رسول الله ﷺ، وعرَّفته أن ما مر به من تجربة لم يكن إلا استهلالاً لأعظم رسالة. ولا شك أن ذلك أثار فى نفسه الشوق لمواصلة الاستماع إلى ذلك النداء المقدس، ولكنه انتظر طويلاً قبل أن يستقبل الوحى مرة أخرى؛ وهذا ما يُعرف لدى علماء السيرة بـ «فترة الوحى» أى إبطائه على رسول الله ﷺ، وهى الفترة التى استمرت أربعين يومًا على أرجح الآراء [٥]. وقد اشتد حزنه ﷺ عندما فتر عنه الوحى؛ لأنه ظن أن الله قد جفاه وقلاه، ولهذا يذهب البعض إلى أن الله بدد مخاوفه إذ أنزل عليه قوله سبحانه فى سورة الضحى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [٦].

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٢٩٨.

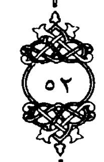
(٢) الناموس: تعريب للكلمة اليونانية (nomos) التى تعنى القانون أو الشريعة. أما قول السهيلى فى الروض الأنف، جـ ١، صـ ٤٠٨ إن الناموس هو صاحب سر الملك فلا أساس له.

(٣) جَذَع: أى صغير السن.

(٤) تاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ٢٩٩. والرواية فى صحيح البخارى، جـ ١، صـ ٣ - ٤ (مع بعض الاختلاف اليسير فى اللفظ).

(٥) محمد الخضرى: نور اليقين، صـ ٢٤.

(٦) سورة الضحى: [١ - ٣].



وينبغى أن نشير فى هذا السياق إلى خلاف المفسرين وعلماء السيرة حول أول ما أنزل من القرآن بعد فترة الوحى، فيرى البعض - فى ضوء ما ذكرناه الآن - أن سورة الضحى كانت أول ما نزل بعد هذه الفترة؛ فهى تعيد إلى نفس الرسول الطمأنينة وتؤكد له أن الله ما قلاه إذ أبطأ عليه الوحى. فى حين يرى آخرون أن أول ما أنزل بعد فترة الوحى هذه كان قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾[1]. أما سورة الضحى فى رأى هؤلاء فقد نزلت بعد فترة أخرى للوحى استمرت ليالى يسيرة[2].

والذى نميل إليه فى ضوء السياق التاريخى هو أن هذه الآيات من سورة المدثر كانت أول القرآن نزولا بعد الآيات الخمسة الأولى من سورة العلق، فقد نزل جبريل على الرسول ﷺ أول ما نزل دون أن يحمل إليه تكليفًا بإبلاغ دعوة[3]، بل أثار فى نفسه شعورًا قويًا أنه مقدم على أمر جليل. وعندما نزلت الآيات الأولى من سورة المدثر كان الأمر واضحًا غاية الوضوح أمام الرسول ﷺ. إنها الرسالة أو أمانة التبليغ عن الله عز وجل. لقد استمر الرسول ﷺ يذهب إلى غار حراء ويخلو فيه بعد أن تلقى آيات الوحى الأولى من سورة العلق. وكم كان يتوقد شوقًا إلى أن يصغى للنداء الإلهى مرة أخرى. وبعد طول انتظار تراءى له جبريل ثانيةً فى غار حراء فتملكته الرهبة وكرَّ راجعًا إلى أهله وهو يقول: «زملونى.. زملونى» أى دثرونى وغطونى، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ...﴾. إلى آخر الآيات. فتضمنت هذه الآيات - كما أشرنا - تكليفًا للرسول ﷺ بالإنذار، أى بتبليغ كلمة الله، وهنا بدأ يدرك حق الإدراك أنه أمام مهمة محددة، وبدأت آيات الوحى تتوالى لتحدد أمامه معالم هذه المهمة بوضوح وترسم له خطوات التنفيذ.

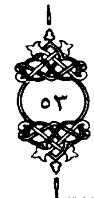
ولم تكن تلك المهمة التى أنيطت بالرسول ﷺ سهلة، بل كانت بالغة الصعوبة والتعقيد، لقد كان عليه أن يبلغ كلمة التوحيد وشريعة الإسلام إلى قوم تأصلت فيهم روح الوثنية وسيطرت عليهم عاداتها وتقاليدها، كان عليه أن يقتلع جذور الجاهلية الراسخة فى نفوسهم، ويغرس مكانها جذور الدين الجديد بقيمه ومفاهيمه، وما

---

(1) سورة المدثر: [1 - 5].

(2) انظر تفصيل ذلك فى: البداية والنهاية لابن كثير، جـ ٣، صـ ١٧. وانظر أيضًا: تاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ٣٠٥ - ٣٠٦.

(3) د. أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، جـ ١، صـ ١١١.



أصعبها من مهمة! ولم يكن الرسول ﷺ يملك من أسلحة لتنفيذ هذه المهمة إلا سلاح الإيمان المطلق برسالته وبنصر الله.

فكيف سارت الدعوة فى مراحلها الأولى وتطورت ؟

أ ـ الدعوة فى مرحلة الكتمان :

كان على الرسول ﷺ ـ إذن ـ أن يستجيب للأمر الإلهى: ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾، والمقصود بالإنذار مطلق التبليغ، سواء أكان جهرًا أم سرًا، ولكن الحكمة كانت تقتضى ألا يجهر الرسول بدعوته على الملأ وهى ما زالت وليدة ناشئة لم تكتسب بعدُ أنصارًا؛ ولهذا كان أسلوبه فى تلك المرحلة أن يدعو من يثق فيه ويطمئن إليه من أهله وخلانه، «فكان أول من صدقه وآمن به واتبعه من خلق الله . . زوجته خديجة ـ رحمها الله »[1]. وهذا أمر يجمع عليه ثقات المؤرخين، وهو منطقى تمامًا، ولكن ما لا يجمعون عليه هو الترتيب الزمنى للسابقين إلى الإسلام بعد خديجة، فيذكر البعض أن عليًّ بن أبى طالب كان أول هؤلاء إسلامًا، وقيل أبو بكر، وقيل زيد بن حارثة[2]، وتضع بعض مصادرنا هذا الأمر بصورة أكثر تحديدًا حيث تذكر أن أول من آمن من الصبيان علىٌّ بن أبى طالب، ومن الرجال أبو بكر الصديق، ومن الموالى زيد بن حارثة[3]، ويروى أن على بن أبى طالب أسلم فى اليوم التالى لبعثة الرسول، وكان عمره تسع سنين، وقيل: عشرًا[4]. والجدير بالذكر أن عليًّا كان فى حجر محمد ﷺ وفى رعايته قبل الإسلام[5]،

---

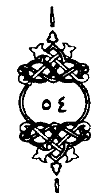
(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣٠٧ ، وانظر أيضًا: سيرة ابن هشام ، جـ١ ، صـ ٢٥٩، ، وأنساب الأشراف للبلاذرى، جـ ١ ، صـ ١٢٢ .

(٢) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١ ، صـ ١٢٢ . ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى: تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٣٠٩ ـ ٣١٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣ ، صـ ٢٨، والجدير بالإشارة هنا أن المستشرق البريطانى مونتجومرى وات يذهب إلى أن زيد بن حارثة كان أسبق إسلامًا من أبى بكر ، وأن مصادر السيرة جاملت أبا بكر على حساب زيد بن حارثة؛ لأن أبا بكر ـ منذ هجرة المسلمين إلى الحبشة ـ أصبح أهم شخصية بعد محمد ﷺ . انظر كتابه .Muhammad at Mecca, P. 86 والحق أن هذا الرأى لا يستند إلى أساس صحيح؛ لأن مصادرنا ذكرت كافة الروايات، ولم يثبت أنها جاملت صحابيًّا لمكانته اللاحقة، وإلا لجاملت عمر بن الخطاب على سبيل المثال. للمزيد من التفاصيل ارجع إلى: د. عبد الرحمن سالم: قراءة نقدية فى كتابات مونتجومرى وات فى السيرة النبوية، وهو بحث منشور فى مجلة المسلم المعاصر: العدد ٨٢، صـ٩٣ ـ ٩٤.

(٤) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣١٠ ، ٣١٢.

(٥) كان أبو طالب كثير العيال، وأصابت قريشًا أزمة شديدة، فأراد محمد ﷺ أن يخفف عن=



وأتيحت له الفرصـــة أن ينهل ما شاء من نبع آدابه وأخلاقه، فــلا غرو أن يكون من بين أسبق السابقين إلى الإيمان بدعوته.

وقد كان لإسلام أبى بــكر فى تلك المرحلة المبكرة مــن تاريخ الإسلام أثر قوى فى تأييد الدعوة وضم مزيد من الأنصار إليها، لقد كان أبو بكر ـ كما يتفق المؤرخون ـ «رجلا مؤلفًا لقــومه، محببًا سهلا، وكان أنــسب قريش لقريش[1]، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير أو شر، وكــان رجلاً تاجرًا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق بــه من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فــأسلم على يديه عثــمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحــمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيدالله»[2].

فهؤلاء النــفر الذين أسلموا علــى يد أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ كانــوا هم سياج الإسلام فى سنيه الأولى واستمروا مصدر دعم وقوة للإسلام حتى لفظوا آخر أنفاسهم، وانضم إليــهم عدد آخر من الســابقين الأولين، فــيهم أبو ذر الغفــارى (وهو جُنْدب بن جُنادة) وبلال بــن رباح ، وخالد بن ســعيد بن العــاص، وعمارَ بــن ياسر، وعتبة بن غزوان، وأبو عــبيدة عامــر بن عبدالله بن الجــراح، وخَبَّاب بن الأرتّ، ومــصعب بن عمير، وعبيدة بن الحارث بن المطلب، وأبو ســلمة عبدالله بن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، والأرقم بن أبى الأرقم المخزومى.

وفى تلك المرحلة من تاريخ الدعوة كان الــرسول ﷺ يلتقى بالمسلمين سرًّا فى دار الأرقم بن أبى الأرقم[3]، عند الصفا ليبلغهم ما ينزل به الوحى من تعاليم الإسلام.

= أبى طالب بعض عنائه ويرد إليه بعض جميله، فــذهب إلى عمه العباس ـ وكان أيسر بنى هاشم ـ فقال له: «إن أخاك أبا طالب كثير العيــال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا فلنخفف من عياله، فوافق العباس وانطلقا إلــى أبى طالب يعرضان عليه هذا الأمر ، فقال لهما: إذا تركتما لى عقيلا فاصنعا مــا شئتما! فأخذ محمد ﷺ عليًا فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا فضمه إليه. انظر: تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣١٣.

(١) أى كان أكثر القرشيين علمًا بأنساب قريش.

(٢) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣١٧.

(٣) هو الأرقم بن عبد مناف بن أسد بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشى المخرومى. وأبو الأرقم كنية عــبد مناف . ويروى أن الأرقم كان ترتــيبه الثانى عــشر في إسلامه، وقد تــوفى سنة ثلاث وخمسين من الهــجرة عن ثلاث وثمانين سنة. انظر : ابن الأثيــر: أسد الغابة ، جـ ١ صـ ٧٤ ـ ٧٥، وحول دار الأرقم ارجع إلى مادة الأرقم فى دائرة المعارف الإسلامــية (الطبعة العربية) بقلم ركندورف جـ ٣ صـ ٨.



ولا نعرف على وجه اليقين متى بدأ الرسول يتخذ دار الأرقم ملتقى سريًا له مع صحابته، ولكن بعض مصادرنا تشير إلى أن المسلمين عندما كملوا أربعين بإسلام عمر بن الخطاب (فى العام الخامس أو السادس للبعثة) خرجوا من دار الأرقم[1]. وقد يمكننا أن نقبل أن المسلمين ظلوا بدار الأرقم حتى أسلم عمر، ولكن من الصعب أن نصدق أنهم كملوا أربعين بإسلامه؛ لأن هجرة الحبشة الثانية،وقد حدثت فى حوالى ذلك الوقت، ضمت أكثر من سبعين.

ولما كان الرسول ﷺ - خلال المرحلة التى نتحدث عنها الآن - قد آثر أن يحصر دعوته في نطاق أهله والمقربين إليه، فقد كان من الطبيعى أن يدعو عمه أبا طالب إلى الإسلام، فهو - فضلاً عن قرابته القريبة - كان واحدًا من ألصق الناس به وأحبهم إليه، وقد قال أبو طالب للرسول عندما عرض عليه الإسلام: «أى ابن أخى، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه، ولكن - والله - لا يُخْلَصُ إليك بشىء تكرهه ما بقيتُ»[2].

وفى هذه المرحلة من تاريخ الدعوة فرض الله الصلاة على رسوله وعلى المسلمين. والذى فُرض حينئذ كان أصل الصلاة، أما الصلوات الخمس بهيئاتها المعروفة فلم تفرض إلا ليلة الإسراء [3]، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلّوا ذهبوا إلى شعاب مكة فاستخفوا من قومهم، واستمر الأمر على ذلك ثلاث سنين كانت الدعوة خلالها محاطة بالسرية والكتمان[4]. وبعد انقضاء السنين الثلاث الأولى دخلت الدعوة فى طور جديد..

ب - الدعوة فى مرحلة الجهر:

يروى الطبرى أن «الله عز وجل أمر نبيه محمدًا ﷺ بعد مبعثه بثلاث سنين أن يصدع بما جاءه منه ، وأن ينادى الناس بأمره ويدعو إليه فقال له: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴿٩٤﴾ ﴾ [5]. وكان قبل ذلك - فى السنين الثلاث من مبعثه إلى

---

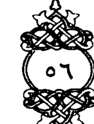
(١) المصدر السابق، صـ ٧٤.

(٢) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ٢٦٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ، جـ ٣ ، صـ ٢٣ - ٢٤ ، وابن الأثير: الكامل ، جـ ٢ ، صـ ٥٠ - ٥١.

(٤) هذه هى الرواية التى ترددها معظم المصادر. وتذكر بعض الروايات أن الدعوة السرية استمرت أربع سنين. انظر: البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١ ، صـ ١١٦.

(٥) سورة الحجر : [٩٤].



أن أُمِرَ بإظهار الدعاء إلى الله - مُسْتَسِرًّا مُخْفيًا أمْرَه ﷺ ، وأنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾(١).

هكذا تعيَّن على محمد ﷺ بمقتضى هذا الأمر الإلهى الصريح - أن يدخل فى مواجهة مباشرة مع مشركى مكة ومع تقاليد الوثنية المتأصلة فى نفوسهم. ورغم جسامة العبء وفداحة التبعة مضى ﷺ فى تنفيذ الأمر الإلهى دون تردد ، فبدأ بدعوة عشيرته الأقربين. وتختلف الروايات فى ذلك، فبعضها يذكر أنه بدأ بدعوة بنى عبد المطلب، وقيل: بل إن دعوته اتسعت عندئذ لتشمل بنى عبد مناف، وقيل: بل إنها شملت كل قريش، وهذا واضح مما يعرضه الطبري فى إحدى رواياته حيث يقول: «لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ بالأبطح (٢) ثم قال: يا بنى عبد المطلب، يا بنى عبد مناف، يا بنى قُصَىّ - قال: ثم فَخَذَ (٣) قريشًا قَبيلةً قبيلةً حتى مرَّ على آخرهم - إنى أدعوكم إلى الله وأنذركم عذابه»(٤).

ولكننا نميل - فى ضوء السياق المنطقى للأحداث - إلى القول بأن الرسول ﷺ بدأ بدعوة بنى عبد المطلب عندما أمره الله أن ينذر عشيرته الأقربين، فبنو عبد المطلب هم أقرب الناس إليه وأعرفهم به، وهم - بناء على ذلك - ينبغى أن يكونوا أسرع الناس استجابة لدعوته. وقد دعاهم الرسول ﷺ إلى طعام فى بيته «وهم يومئذ أربعون رجلا، يزيدون رجلا أو ينقصونه» ثم حاول ﷺ أن يعرض عليهم دعوته فقاطعه عمه أبو لهب، فتفرق القوم قبل أن يكلمهم رسول الله ﷺ. ثم دعاهم الرسول فى الغد إلى مثل ما دعاهم إليه بالأمس، فلما طعموا قال لهم: «يا بنى عبدالمطلب ، إنى والله ما أعلم شابًّا فى العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به؛ إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن

---

(١) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣١٨. والآيات المذكورة من سورة الشعراء : [٢١٤ - ٢١٦].

(٢) جاء فى لسان العرب لابن منظور ، جـ ١ ، صـ ٢٩٩ - ٣٠٠ : «الأبطح مسيل واسع فيه دُقاق الحصى. . قال ابن الأثير: وبطحاء الوادى وأبطحه حصاه اللين فى بطن المسيل، ومنه الحديث: أنه ﷺ صلى بالأبطح ، يعنى أبطح مكة، قال: هو مسيل واديها. . وبطحاء مكة وأبطحها: معروفة ، لانبطاحها. . . وقريش البطاح: الذين ينزلون أباطح مكة وبطحاءها ، وقريش الظواهر: الذين ينزلون ما حول مكة . .».

(٣) فَخَذَ قريشًا: أى ذكرها فخذًا فخذًا. والمعروف أن الشَّعب أكثر هذه المصطلحات اتساعًا، وتليه القبيلة ، ثم الفصيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ.

(٤) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣٢٢.



يكون أخى ووصيِّى وخليفتى فيكم؟» فـأحجم القوم جميعًا. ولكن عليًا ـ وكان ما زال حدثًا ـ أجاب بقولـه: «أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه». فأخذ الرسـول ﷺ برقبته ثم قال: «إن هـذا أخى ووصيِّى وخلـيفتـى فيكم، فـاسمعـوا له وأطيعـوا»، فقام الـقوم يضحكون ويقولون لأبى طالب: «قد أمرك محمد أن تسمع لابنك وتطيع!»[1].

هكذا صـد القـوم عن دعوة رسـول الله ﷺ، ولكن هـذا الصدود لـم يزده إلا إصرارًا على المضى فى طريق تبليغ رسالته، وإذا كانت عشيرته الأقربون قد خذلته اليوم فإن هذا لا يعنى أنها ستستمر فى خـذلانه، ولا يعنى أيضًا أن غيرهم من قريش وسائر العرب سيـعرضون عن دعوته. وقد كـان الرسول ﷺ يعلم حق العلم أنه يـحمل أمانة ثقيلة وأنه واجدٌ فى سبيل أدائها كل عنت ومشقة. وكانت كلمة ورقة بن نوفل ما زالت تتردد فى أذنـيه: «إنه لم يجئ رجلٌ قطّ بمـا جئت به إلا عُودِى» ولهـذا مضى ﷺ فى طريقه وهو على استعداد لمواجهة كل التحديات والصبر عليها.

نتيـجة لذلك قـرر الرسول ﷺ أن يسيـر فى دعوته خطـوة أبعد لعله يـجد آذانًا صاغية فى دائرة أوسع من دائرة بنى عبد المـطلب، فيروى أنه صعد «الصفا» ذات يوم فنادى قريشًا فاجتمعت إليه فقال لهم: « أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل.. أكنتم مُصَدِّقِىَّ؟ قالوا: «ما جربنا عليك كذبًا!» قال: «فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد». قال أبو لهب: «تبًّا لك! ما جمعـتنا إلا لهذا؟!» [2]فأنزل الله عز وجل فيه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾[3].

كان واضحًا من كـل هذا أن دعوة الإسلام سوف تواجه مقاومـة عنيفة،وأن هذه المقاومة سوف تتصاعد كلما سارت الدعوة على طريق الجهر. وكان على الرسول ﷺ أن يصبر كما صبر أولو العزم من الـرسل، وألا تذهب نفسه حسرات على الذين صدوا عن صراط الله ، فالله غالب على أمره.

ومما لا شك فيه أن كلمة الحق ـ حتى لو لم تجد فى البداية آذانًا صاغية ـ تستقر فى نفوس من وهبهم الله الفطرة الصحيحة وتمارس تأثيرها الكامن داخلها حتى تجعلها

---

(١) نفس المصدر والجزء صـ ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٢) نفس الـمصدر والجـزء صـ ٣١٩، ويروى : «تبـا لك سائر اليـوم ، ألهذا جـمعتنـا؟!» انظر: البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ ١ ، صـ ١٢٠.

(٣) سورة المسد : [١ ـ ٣].

تُسْلم وجهها لله طـائعة . وهذا ما سوف يحدث مع كثيـر من هؤلاء الذين أعرضوا فى البدايـة عن دعوة الإسلام ، أمـا الذين طبع الله علـى قلوبهم فقـد أصروا واستـكبروا استكبارًا وقاوموا دعوة الحق باللسان والسيف حتى لفظوا آخر أنفاسهم.

والجدير بـالملاحظة هنا أن قـريشًا لم تأخذ مـا جاء به الرسول ﷺ فـى البداية مأخذ الجد؛ ولهذا كانت مقاومتها له مـقصورة على الاستهزاء به والسخرية من دعوته، وقد شمـل ذلك مرحلة الدعـوة السرية، فلا شك أن أنبـاءها ترامت إلى بعض مـسامع القرشيـين فلم يعيروها التـفاتًا، تهوينًا من أمرهـا، وقد شمل ذلك بداية مرحلـة الجهر بالدعوة، ذلك أن قريشًا لم يكن يدور بخاطرها أن الرسول ﷺ سوف يستمر طويلاً فى دعوته هذه عندما يلمس إعراض قومه، ولهذا اكتفت فى بداية مرحلة الجهر بالدعوة بأن تصدّ عنه وتتجاهل أمره، ولكن الأمور اختلفت تمامًا بعد قليل.

قريش ومقاومة الدعوة:

لا شك أن التوحيد هـو حجر الزاوية فى دعوة الإسلام. والتوحـيد يعنى إسلام الوجه خالصًا لله الواحد الأحد الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك فى الملك. فلم يكن هناك بـد من أن يجهر الرسـول بكُنْه دعوته، وإلا لمـا كان مبلغًـا عن ربه، ولكن قريشًا كانت تـتخذ آلهة من دون الله: أحجارًا لا تضر ولا تنفـع. ومن هنا جاء الصدام المبـاشر بين دعوة الإسلام وعـقيدة القرشـيين الذين بدءوا يدركون مـدى خطورة هذه الدعوة على موروثاتهم وتقاليدهم ونظام حياتهم.

فعنـدما بدأ الرسول ﷺ يوضـح موقف الإسلام من عـبادة الأصنام ويذكـر آلهة قريش ويعـيبها ويـتّهم من يعبـدونها بالضلال والـزّيغ أدركت قريش أبعـاد هذه الدعوة الجديدة،وأنها ما جاءت إلا لتهدم معتقدات وقـيمًا وعادات تأصلت فى مجتمعهم. وقد رأى مشركـو قريش أن يتدرجـوا فى المقاومة، فـذهبوا فى البداية إلـى أبى طالب عم الرسول ﷺ ، وهم يعرفون مدى حبه له وحـرصه عليه، فقالوا له: «يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سـبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّـه أحلامنا وضلل آباءنا، فإمـا أن تكفّه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل مـا نحن عليه من خلافه، فنكفيكه[1]!» ولكن

---

(١) سيرة ابن هشـام، جـ ١ ، صـ ٢٧٧ . وتاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٢٣. والمـقصود أن أبا طالب لما كان يخالف الـرسول ﷺ فى دينه كما يخالفه القرشيـون، فى الوقت الذى لا يستطيع فيه أن يتخذ منه موقفًـا معاديًا نظرًا لمنزلته عنده، فإن القرشيين يستطيـعون أن يكْفُوه تبعة حربه، أى أن يتولوا عنه هذه المهمة.



أبا طالب لم يزد على أن ردهم ردًا جميلاً وقال لهم قولاً رقيقًا كما يروى المؤرخون. وهكذا مضى الرسول ﷺ على ما هو عليه؛ يظهر دين الله ويدعو إليه ويهاجم الوثنية، دون أن يلقى اعتراضًا من عمه.

ومن هنا ذهب كبراء قريش مرة أخرى إلى أبى طالب يشكون إليه رسول الله ﷺ. وكانت لهجة الشكوى هذه المرة تشوبها نبرة التهديد؛ ليس للرسول فقط بل لأبى طالب نفسه؛ حيث قالوا له: «يا أبا طالب، إن لك سنًا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنْهه عنا، وإنا ـ والله ـ لا نصبر على هذا: من شَتْم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكُفّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين». وهنا أحس أبو طالب بحرج موقفه ؛ لأنه وجد نفسه بين خيارين كلاهما بغيض إلى نفسه: فهو إما أن يخذل ابن أخيه ويقف فى وجه دعوته، وهذا ما لا يرضاه؛ وإما أن يتنكر لقومه ويناصبهم العداء، وهذا أيضًا ما يود لو تحاشاه، وفكر أبو طالب طويلا فى مخرج من هذه الأزمة، ثم انتهى به التفكير إلى أن يدعو رسول الله ﷺ إلى الاجتماع به بمحضر من سادة قريش، وفيهم أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وغيرهم ويواجهه بهم لعله يصل معهم إلى كلمة سواء، فلما جاء رسول الله ﷺ قال له عمه: «أى ابن أخى، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟» فأجابه قائلا: «يا عم ، إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية» . ولما سأله القوم: ما هى؟ قال: «لا إله إلا الله» فتفرقوا عنه فزعين وهم يقولون: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾[1].

ويروى أيضًا فى هذا السياق أن أبا طالب ـ عندما هددته قريش ـ بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: «يا ابن أخى ، إن قومك قد جاءونى فقالوا لى كذا وكذا؛ فأبق علىَّ وعلى نفسك، ولا تُحمِّلْنى من الأمر ما لا أطيق»! وقد ظن الرسول ﷺ عندما سمع هذه الكلمة « أنه قد بدا لعمه فيه بَدَاءٌ» (أى ظهر له فيه رأى)، وأنه خاذله ومُسْلِمُه إلى قريش، وأنه قد ضَعُف عن نصرته والقيام معه. فقال له: «يا عمِّ ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» ، ثم أجهش بالبكاء. فقال له عمه: «اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت؛ فوالله لا أسلمك لشىء أبدًا»[2].

---

(١) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٢٥ ، والآية المذكورة هى رقم [٥] من سورة ص.

(٢) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ٢٧٨، وتاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٢٦.



وقد أرادت قريش أن تجرب مع أبى طالب وسيلة أخرى من وسائل الضغط والإغراء معًا، فأخذوا إليه عُمَارة بن الوليد بن المغيرة المخزومى وقالوا له: «هذا عُمارة بن الوليد أنْهَدُ[1] فتى فى قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونُصْرته، واتخذه ولدًا، فهو لك، وأسْلِمْ لنا ابن أخيك - هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك وفرَّق جماعة قومك وسفَّه أحلامهم - فنقتله، فإنما هو رجل برجل!» فقال أبو طالب: «والله لبئس ما تسوموننى! أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبدًا» فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف: «والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا»، فقال أبو طالب للمطعم: «والله ما أنصفونى، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم علىّ؛ فاصنع ما بدا لك»[2].

بعد أن استنفدت قريش كل وسائلها فى الضغط على أبى طالب دون جدوى بدأت تلجأ إلى أسلوب آخر من أساليب الضغط وهو تعذيب المستضعفين من أصحاب رسول الله ﷺ، أما رسول الله ﷺ فقد منعه الله منهم بعمه أبى طالب، وقد وثبت كل قبيلة على من فيها من ضعاف المسلمين فجعلوا يعذبونهم بالحبس والضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة فى شدة الحر. وقد تأثر بعض هؤلاء من شدة العذاب فاضطروا إلى النطق بكلمة الكفر وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، على حين صبر بعضهم الآخر على كل ألوان الأذى والتنكيل. ومن بين هؤلاء الذين عُذِّبوا فصبروا : بلال بن رباح، وكان عبدًا حبشيًا ، وكان سيده أمية بن خلف الجُمَحى[3] «إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه فى الرمضاء على وجهه وظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتُلْقَى على صدره ويقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى» [4]، فكان بلال يقول وهو فى تلك الحال: أحد أحد! و« ما أعطاهم قط كلمة مما يريدون» [5] وقد

---

(١) أنهد - كما يقول السهيلى - «أى أقوى وأجلد. ويقال: فرس نَهْدٌ للذى يتقدم الخيل. وأصل هذه الكلمة التقدم، ومنه يقال: نَهَدَ ثدى الجارية أى: برز قدمًا». الروض الأنف، جـ ٢، صـ ٨.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ١، صـ ٢٧٩، وتاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ٣٢٧، والبداية والنهاية لابن كثير، جـ ٣، صـ ٤٦.

(٣) هو أمية بن خلف بن وهب بن حذافة الجمحى القرشى، كان هو وأخوه أُبىّ بن خلف من أكثر الناس عنادًا لدعوة الإسلام. وقد قُتل أمية بن خلف فى غزوة بدر، أما أخوه أُبىّ فقد قتله رسول الله ﷺ يوم أحد. انظر : ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، صـ ١٥٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، صـ ٦٦.

(٥) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ١٨٥.



اشترى أبو بكر بلالاً من أمية وأعتقه فخلصه مما فيه من العذاب[1]. ومن هؤلاء الذين تعرضوا لأبشع ألوان التعذيب عمار بن ياسر أبو اليقظان العَنْسى وأبوه وأمه سمية، وكان ياسر (والدُ عمَّار) حليفًا لبنى مخزوم، فكانوا يُخرجون عمارًا وأباه وأمه إلى رمضاء مكة الملتهبة ويطرحونهم بها ويتفننون فى تعذيبهم، فمات ياسر فى العذاب، وأغلظت امرأته سمية القول لأبى جهل فطعنها بحربة فماتت، فهى أول شهيدة فى الإسلام، أما عمار فقد شددوا عليه العذاب بالحر تارة، وبوضع الصخر على صدره أخرى، وقالوا له: «لا نتركك حتى تسبَّ محمدًا وتقول فى اللات والعزى خيرًا» ففعل فتركوه، «فأتى النبىَّ ﷺ يبكى، فقال: ما وراءك؟ قال: شر يا رسول الله! كان الأمر كذا وكذا. قال: فكيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئنًا بالإيمان. فقال: يا عمار، إن عادوا فَعُدْ، فأنزل الله تعالى: ﴿... إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ...﴾ [2]». وممن اشتد عليهم إيذاء قريش من المستضعفين أيضًا صُهيب بن سِنان [3]، وعامر بن فُهيرة[4]، وخبَّاب بن الأرتّ[5]. ويروى عن خبَّاب أنه قال: «أتيت النبى ﷺ وهو مُتوسِّدٌ بُردةً، وهو فى ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو مُحْمَرٌّ وجهه فقال: لقد كان مَنْ قبلكم ليُمْشطُ بأمْشَاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيُشَقّ باثنين ما يصرفه ذلك عن

---

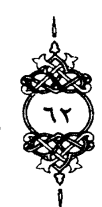
(١) نفس المصدر والجزء صـ ١٨٥ ـ ١٨٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، صـ ٧٦، وتمام الآية: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾. سورة النحل: [١٠٦].

(٣) صُهيب بن سنان بن مالك، ينتهى نسبه إلى أسد بن ربيعة بن نزار، فهو من العرب العدنانيين. كان أبو سنانَ عاملا لكسرى على الأُبُلَّة من قبل النعمان بن المنذر، ثم أغارت الروم على هذه الناحية فسبت صهيبًا وهو صغير فنشأ بالروم، ثم اشتراه رجل من قبيلة كلب فقدم به مكة فاشتراه منه عبدالله بن جدعان التيمى ثم أعتقه، ولم يزل صهيب مع آل جدعان إلى أن بعث رسول الله ﷺ فأسلم، انظر: أنساب الأشراف للبلاذرى، جـ ١، صـ ١٨٠، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، صـ ٣٠٠.

(٤) جاء فى أُسْد الغابة لابن الاثير، جـ ٢، صـ ١٣٦ ـ ١٣٧ أن عامر بن فهَيرة «كان مولدا من مولدى الأزد، أسود اللون، مملوكًا للطفيل بن عبدالله... وكان من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم، أسلم وهو مملوك، وكان حسن الإسلام، وعُذِّب فى الله، فاشتراه أبو بكر فأعتقه... وشهد عامر بدرًا وأحدًا. وقتل يوم بئر معونة سنة أربع من الهجرة، وهو ابن أربعين سنة».

(٥) خبَّاب بن الأرتّ: اختلف فى نسبه، فقيل: خزاعى، وقيل: تميمى، وهو الأكثر. =



دينه، وليُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسير الـراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله»[1].

هكذا لجأت قريـش إلى ذلك الأسلوب الفظ القاسى فى مقـاومة الدعوة ، وقد شقَّ على رسول الله ﷺ ما يلـقاه أصحابه من العنت والأذى من جراء تمـسكهم بدعوة الحق، فأخذ يفكر فـى وسيلة تخلصهم من هذا العذاب وتتـيح لهم أن يعبدوا الله دون خوف على عقيدتهم أو دمائهم أو أموالهم.

= فهو إذن عربى صميم، ولكنه سُبى فى الجاهلـية فبيع بمكة. وقيل: حليف بنى زهرة، وقيل: هو مولى عتبة بن غزوان. . وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام. أسد الغابة جـ ٢ صـ ١١٤.

(١) صحيح البخارى ، جـ ٥ ، صـ ٥٦ ـ ٥٧ (باب ما لقى النبى وأصحابه من المشركين بمكة).



الفصل الرابع

الهجرة إلى الحبشة
وتطور الدعوة في مكة حتى وفاة أبي طالب وخديجة

أولاً: الهجرة إلى الحبشة: ملابساتها ودوافعها وموقف القرشيين منها:

اشتد الأذى بأصحاب رسول الله ﷺ ، وخاصة المستضعفين منهم - على ما وضحناه فى الفصل السابق - وأصبح هذا الأذى تهديدًا حقيقيًا لهؤلاء فى حياتهم وعقيدتهم. ولكن قريشًا لم تقنع بذلك بل وسَّعت دائرة هذا الأذى لتبسطه على من اتبع محمدًا ﷺ من بطون قريش نفسها، محاولين بذلك فتنتهم عن دينهم، وهذا ما تجمع عليه مصادر السيرة. يقول الطبرى بعد أن تحدث عن توسيع قريش لدائرة أذاها ضد المسلمين: «فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام، فافتتن من افتتن[1]، وعصم الله منهم من شاء، فلما فُعِل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشى، ، لا يُظْلم أحد بأرضه. . وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغًا[2] من الرزق وأمنًا ومتجرًا حسنًا، فأمرهم بها رسول الله ﷺ ، فذهب إليها عامتهم لما قُهِرُوا بمكة وخاف عليهم الفتن، ومكث هو فلم يبرح»[3].

---

(١) يذكر اليعقوبى أن العذاب حين اشتد على المسلمين « ونالهم منه أمر عظيم» رجع عن الإسلام خمسة نفر، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ...﴾ سورة النحل : [٢٨] . وانظر تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، صـ ٢٨ .

(٢) رفاغًا من الرزق: أى سعة فيه.

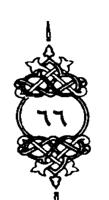
(٣) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٢٨ - ٣٢٩ . وانظر أيضًا : تاريخ ابن خلدون ، جـ ٢ ، صـ٣٩٨ .

يدور هذا النص المهم حول نقطتين أساسيتين: تتعلق النقطة الأولى بدوافع الهجرة ذاتها، وتتعلق النقطة الثانية بأسباب اختيار الحبشة دون سواها لتكون مُهاجَرًا للمسلمين.

وفيما يتصل بالنقطة الأولى يبدو من الواضح تمامًا أن دوافع الهجرة ارتكزت على محورين هما: حماية الدين، وحماية النفس. لقد استطاع المشركون أن يفتنوا بعض المسلمين عن دينهم، أو - على الأقل - أن يجعلوهم يتظاهرون بترك دينهم. ثم إن وحشية التعذيب الذى تعرض له المسلمون على أيدى هؤلاء جعلتهم لا يأمنون على حياتهم، وقد أراد الرسول ﷺ أن يرفع عنهم هذا التهديد المزدوج، وهو تهديد الدين وتهديد النفس، فأمرهم بالهجرة.

مناقشة رأى «مونتجومرى وات» حول دوافع الهجرة إلى الحبشة:

رغم أن ملابسات الهجرة إلى الحبشة ودوافعها - كما عرضناها الآن - تبدو منسجمة تمامًا مع السياق التاريخى الذي حدثت فيه - فإن للمستشرق البريطانى «مونتجومرى وات» رأيًا آخر تجدر مناقشته هنا. فهو يرفض الدوافع التى تقدمها مصادر السيرة، ويطرح بدلا منها دوافع أربعة محتملة: أما أولها فهو رغبة محمد ﷺ فى الحصول على مساعدة عسكرية من الحبشة تمكنه من السيطرة على مكة. وأما الثانى فهو رغبته ﷺ فى تحويل الحبشة إلى قاعدة لمهاجمة تجارة مكة، كما فعل بعد ذلك فى المدينة. وأما الدافع الثالث فهو محاولته ﷺ أن يتوصل إلى طريق تجارى بديل يتجه من الجنوب إلى الإمبراطورية البيزنطية حتى يكسر الاحتكار الذى كان يمارسه المكيون على طريق التجارة إلى هذه البقاع. وأما الدافع الرابع والأخير فهو وجود خلافات حادة فى الرأى داخل صفوف المجتمع الإسلامى بين مجموعة يتزعمها أبو بكر الصديق، ومجموعة أخرى معارضة يتزعمها عثمان بن مظعون وخالد بن سعيد بن العاص.وفى ضوء هذا الدافع الأخير يرى «وات» أن الهجرة إلى الحبشة لم تكن تنفيذًا لتوجيهات الرسول ﷺ بل تمت بمبادرة قام بها المهاجرون أنفسهم، ولكنه فى الوقت نفسه يطرح احتمال أن يكون الرسول هو الذى أمر أصحابه بالهجرة عندما ترامت إليه أنباء الانشقاق الذى حدث فى صفوفهم، وعندما يوازن «وات» بين هذه الدوافع الأربعة يرى أن الأخير منها هو أكثرها قبولا[1].

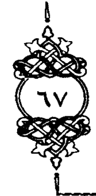


(1) M. Watt, Muhammad at Mecca , Pp> 114 - 117. See Also the Same`s Muhammad and Statesman, P. 68.

والحق أن كل الدوافع التى طرحها «وات» وراء هجرة المسلمين إلى الحبشة لا تصمد أمام المناقشة. وهو فيما يعرضه لا يستند إلى أى دليل تاريخى، بل يعتمد على الخيال، والخيال لا يصلح حجة للمؤرخ. فرغبة الرسول ﷺ فى الحصول على مساعدة عسكرية من الحبشة ـ لو صحت ـ لم تكن تتطلب هجرة المسلمين للإقامة هناك، بل كان يكفى حيالها إرسال بعثة من شخص أو عدة أشخاص لتؤدى المهمة ثم تعود. ولم يكن الرسول ـ بكل ما أوتى من فطنة ،وبعد نظر ـ ليتوقع من إمبراطور الحبشة أن يقبل القيام بمغامرة غير محسوبة ويلبى طلبًا كهذا. أما رغبة الرسول ﷺ في تحويل الحبشة إلى قاعدة لمهاجمة تجارة مكة فهى لم توجد إلا في خيال «وات» ؛ ذلك أن إمبراطور الحبشة لم يكن ليقبل ببساطة أن تتحول بلاده إلى مركز لمهاجمة تجارة المكيين، لأنَّ قبوله بذلك كان يعنى تعريض بلاده لأزمات اقتصادية وسياسية هى فى غنى عنها، هذا فضلا عن أن وضع المسلمين فى ذلك الوقت لم يكن يسمح لهم بالدخول فى مثل هذه المواجهة.

أما القول بأن الرسول ﷺ كان يتطلع إلى التوصل إلى طريق تجارى بديل يتجه من الجنوب إلى الإمبراطورية البيزنطية فهو قول لا سند له من تاريخ أو منطق، فلم تكن إمكانات المسلمين المحدودة فى ذلك الوقت تسمح للرسول بالتفكير فى مشروع كهذا، ثم إننا نقول هنا ما قلناه قبل ذلك، وهو أنه لو صح هذا الافتراض لما تطلب الأمر هجرة إلى الحبشة واستقرارًا فيها، بل لأمكن تحقيق هذه الغاية من خلال بعثة محدودة العدد تبلغ رسالتها ثم ترجع، لا من خلال مهاجرين مع زوجاتهم وأبنائهم يذهبون بهدف الإقامة المفتوحة.

يبقى الدافع الأخير الذى يعده «وات» أكثر الدوافع قبولا، وهو وجود خلافات حادة فى الرأى بين مجموعة أبى بكر ومجموعة عثمان بن مظعون. والحق أن هذا الدافع هو أكثر الدوافع التى طرحها «وات» تهافتًا وأشدها إمعانًا في الخيال. فليس فى مصادرنا ما يشير إلى انقسام السابقين إلى الإسلام إلى مجموعتين فضلاً عن وجود خلافات حادة بينهما. وكيف لنا أن نتصور أن السابقين الأولين سمحوا لأنفسهم أن يتمزقوا فى وقت كان فيه مشركو قريش يقعدون لهم كل مرصد يوعدونهم ويصدونهم عن سبيل الله؟، لقد كانت معركة المسلمين مع المشركين معركة حياة أو موت، ومن المستحيل أن يتطوع بعض المسلمين فى تلك الظروف ليعينوا المشركين على أنفسهم[1].



(١) لمزيد من التفاصيل حول عرض ومناقشة آراء «وات» فيما يتصل بهجرة المسلمين إلى الحبشة ودوافعها ارجع إلى : د. عبد الرحمن سالم : «قراءة نقدية فى كتابات مونتجومرى وات فى السيرة النبوية» مجلة المسلم المعاصر ، العدد : ٨٢ ، صـ ٩٦ ـ ١٠٦ .

فلا يبقى أمامنا من تفسير مقبول لهجرة المسلمين إلى الحبشة إلا ما تقدمه مصادرنا الموثقة من أن الهدف من ورائها كان حماية الدين والنفس فى ظروف جاوز فيها اضطهاد قريش للمسلمين حدود الاحتمال.

***

تبقى النقطة الثانية المتعلقة بأسباب اختيار الحبشة دون سواها مُهَاجَرًا للمسلمين. ويتضح من نص الطبرى الذى اقتبسناه آنفًا أن هذا الاختيار قام على سببين أساسيين:

أولهما: ما عُرف عن نجاشى الحبشة آنذاك[1] من عدل وصلاح. مما يتيح للمسلمين فى دياره أن يتمتعوا بالأمن والطمأنينة، وينعموا بحرية العبادة، مع أن النجاشى كان يدين بالمسيحية.

أما السبب الثانى: فيتمثل فى أن الحبشة كانت مكانًا تجاريًا معهودًا لقريش، بل كانت من الأماكن التى تروج فيها تجارتهم وتتسع فيها أرزاقهم؛ ومن هنا فقد كان من الطبيعى أن يجد فيها المسلمون المهاجرون إليها مصدرًا للرزق وسعة فيه عن طريق اشتغالهم بالتجارة، وما كانوا سيعيشون عالة على أحد.

وقد آثر رسول الله ﷺ ألا يهاجر مع مهاجرة الحبشة وأن يظل حيث هو بمكة حتى ينشر كلمة الله بين عَبَدة الأوثان رغم كل المصاعب والعقبات.

ويقسم معظم المؤرخين هجرة المسلمين إلى الحبشة إلى هجرتين: الهجرة الأولى وكانت فى رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية، وكانت تضم عشرة رجال وأربع نسوة طبقًا لرواية ابن إسحاق، أما الرجال فهم: عثمان بن عفان، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة بن مالك، وأبو سَبْرة بن أبى رُهم، وسهيل بن بيضاء، وأما النسوة فهن: رقية بنت رسول الله ﷺ وهى امرأة عثمان، وسهلة بنت سهيل بن عمرو وهى امرأة أبى حذيفة، وأم سَلَمة بنت أبى أمية ابن المغيرة امرأة أبى سلمة، وليلى بنت أبى حَثْمة امرأة عامر بن ربيعة[2]، ولكن البلاذرى يضيف إلى هؤلاء الرجال العشرة رجلين آخرين هما، عبدالله بن مسعود،

(١) واسمه «أصحمة» طبقًا لمصادرنا العربية التى يذكر بعضها أنه اعتنق الإسلام فى وقت متأخر. انظر: البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٤٣٨، وابن القيم: زاد المعاد، جـ ٢، صـ ٤٥.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ ١، صـ ٣٤٤ - ٣٤٥.





وحاطب بن عمرو بن عبدشمس، وإلى النسوة أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، وهى امرأة أبى سَبْرة بن أبى رُهْم[1]. فبناءً على هذه الرواية تكون الهجرة الأولى قد ضمت اثنى عشر رجلاً وخمس نسوة، وهى الرواية التى نطمئن إليها.

ونحن نلاحظ من خلال نظرة سريعة إلى أسماء هؤلاء المهاجرين أن بعضهم كان ينتمى إلى عشائر ذات قوة ومكانة كعثمان بن عفان، وأبى حذيفة، وأبى سلمة، والزبير بن العوام، وهذا يؤكد ما سبق أن قلناه من أن دائرة الأذى الذى كان يتعرض له المسلمون الأولون اتسعت بحيث لم تعد مقصورة على المستضعفين.

لم يطل مُكْث المسلمين بالحبشة فى هجرتهم الأولى؛ فقد هاجروا إليها فى رجب من السنة الخامسة للبعثة كما ذكرنا، وعادوا إلى مكة فى شوال من السنة نفسها[2]. والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: لماذا عاد المسلمون من الحبشة بعد حوالى ثلاثة أشهر من هجرتهم إليها؟

تذكر بعض مصادر السيرة والتفسير سببًا لذلك يدور حول الحادثة المعروفة بقصة الغرانيق[3]؛ وخلاصتها أن الرسول ﷺ لما رأى إعراض قومه عنه تمنّى فى نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبينهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾. فلما انتهى إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠﴾[4]. ألقى الشيطان على لسانه: «تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى». فلما سمع المشركون ذلك فرحوا وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم، وعندما انتهى الرسول إلى آية السجدة من سورة النجم - وهى ختام السورة - سجد، «فسجد المسلمون بسجود نبيهم، تصديقًا لما جاء به واتباعًا لأمره، وسجد من فى المسجد من المشركين من قريش وغيرهم، لمَا سمعوا

---

(١) أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٢٠٤، صـ ٢١٩. ويذكر اليعقوبى أن الذين هاجروا هجرة الحبشة الأولى كانوا اثنى عشر رجلا، ولكنه لا يحدد أسماءهم. تاريخ اليعقوبى، جـ ٢، صـ٢٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، صـ ٧٧.

(٣) الغَرانيق: جمع غُرْنوق أو غِرْنيق. ومن بين ما ذكره علماء اللغة من معانيها أنها طائر أبيض من طير الماء، ويذكر ابن منظور أن المشركين «كانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من الله عز وجل وتشفع لهم إليه، فشُبِّهت بالطيور التى تعلو وترتفع فى السماء». لسان العرب: مادة غرنق. جـ ٥، صـ ٣٢٤٩.

(٤) سورة النجم: [١٩ - ٢٠].



من ذكر آلهتهم»[١]. ووصل نبأ هذه السجدة إلى من بأرض الحبشة من المسلمين فلم يساورهم الشك فى أن قريشًا قد أسلمت إذ سجدت بسجود رسول الله ﷺ ، ومن هنا قرروا اللحاق بالرسول والمسلمين بمكة. وتمضى الرواية قائلة إن جبريل أتى الرسول يعرِّفه أنه تلا على الناس ما لم يأته به عن الله سبحانه، فحزن ﷺ حزنًا شديدًا، «فأنزل الله عز وجل - وكان به رحيمًا - يعزِّيه ويخفِّض عليه الأمر ويخبره أنه لم يكن قبله نبى ولا رسول تمنى كما تمنى، ولا أحَبَّ كما أحبّ، إلا والشيطان قد ألقى فى أمنيته، كما ألقى على لسانه ﷺ ، فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته.. فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (٥٢) ﴾[٢]، فأذهب الله عز وجل عن نبيه الحزن وآمنه من الذى كان يخاف، ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم... بقول الله عز وجل حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى: ﴿ **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ** (٢١) **تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ** (٢٢) ﴾، أى عوجاء ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم** ﴾ إلى قوله: ﴿ **لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ** ﴾[٣]. فكيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده؟!»[٤].

فلما رأت قريش أن محمدًا ندم على ما ذكر من منزلة آلهتهم عند الله ازدادوا شرًّا إلى ما كانوا عليه وشدةً على المسلمين، «وأقبل أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا من أرض الحبشة لما بلغهم من إسلام أهل مكة حين سجدوا مع رسول الله ﷺ . حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن الذى كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفيًا[٥].

---

(١) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٣٨.

(٢) سورة الحج : [٥٢].

(٣) النص الكامل للآيات: ﴿ **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ** (٢١) **تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ** (٢٢) **إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ** (٢٣) **أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ** (٢٤) **فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ** (٢٥) **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ** (٢٦) ﴾ [**النجم**: ٢١ - ٢٦].

(٤) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣٣٩.

(٥) نفس المصدر والجزء، صـ ٣٤٠.

فهذه خلاصة قصة الغرانيق وما ترتبط به من بيان السبب فى عودة مهاجرى الحبشة الأولين إلى مكة. وقد احتفل المستشرقون كثيرًا بهذه القصة وأخذوها على أنها حقيقة مؤكدة، كما أطلقوا عليها اسمًا مثيرًا هو: «الآيات الشيطانية»: Satanic Verses بل إن الكاتب البريطانى الجنسية الهندى الأصل سلمان رشدى (الذى ينحدر من أسرة مسلمة) جعل من «الآيات الشيطانية» عنوانًا لروايته المشهورة التى أصدرها فى أواخر الثمانينيات من هذا القرن وحشاها بكل ما لا يخطر على البال من صور البذاءة والافتراء ضد الإسلام ونبيه ﷺ.

والنظر الفاحص فى قصة الغرانيق يؤكد أنها مختلقة فى جوهرها فهى تحمل فى طياتها عوامل تهافتها وانهيارها، وهذا ما انتهى إليه كثير من الباحثين المحققين فى العصر الحديث مثل الإمام محمد عبده، والشيخ محمد الخضرى، والدكتور محمد حسين هيكل، والأستاذ سيد قطب وغيرهم. ومجيئها فى بعض كتب التفسير لا يعنى وثاقتها؛ فما أكثر الدخيل فى مصادر التفسير! ويمكننا أن نبلور الأسباب التى تدعونا إلى رفض هذه القصة فيما يأتى:

أولا: إن حجر الزاوية فى رسالة الإسلام هو التوحيد الخالص الذى لا تشوبه شائبة من شرك؛ فكيف ينطق الرسول ﷺ بكلمات فيها تمجيد للات والعزى ومناة، وإشارة إلى ما يرتجى من شفاعتها؟

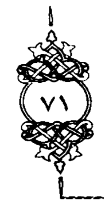
ثانيًا: إن مبدأ عصمة الأنبياء فيما يبلغونه عن الله مبدأ ثابت لا جدال فيه. والآيتان الثالثة والرابعة من سورة «النجم» تؤكدان ذلك بما لا يدع مجالا للشك: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾**﴾. فكيف يزعم زاعم أن الرسول ﷺ فقد العصمة فى هذا الموقف فنطق بما نطق به بوحى من الشيطان؟[1]

ثالثًا: لو صح أن الرسول - أثناء تلاوته سورة النجم - جرى لسانه بهاتين الجملتين: «تلك الغرانيق العلا. وإن شفاعتهن لترتجى» لما فات سامعيه من المسلمين والمشركين على السواء - وهم أهل فصاحة وبيان - أن يدركوا مدى التناقض الصارخ بين هذا الكلام وبين قوله سبحانه بعد ذلك بقليل: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ**﴾[2]. فكيف يجتمع ذم صريح لشىء ما مع مدح

---

(١) راجع: محمد حسين هيكل: حياة محمد، صـ ١٧٦، وسيد قطب: فى ظلال القرآن، جـ٤، صـ ٢٤٣٢.

(٢) سورة النجم: ٢٣.



صريح له فى سياق واحد دون أن يسترعى ذلك انتباه أحد؟ [1] ،والمعروف أن الرسول ﷺ ـ طبقًا لهذه الرواية ـ تلا السورة بتمامها فى المجلس المذكور حتى وصل إلى آية السجدة فى ختامها فسجد وسجد الجميع معه.

رابعًا : إن قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ** ﴾ يفيد أن صنيع الشيطان هذا أمر عام فى الرسالات كلها مع الرسل كلهم، وليس أمرًا خاصًا بالرسول ﷺ ؛ فهذه إذن قاعدة شاملة، ومن هنا ـ كما يستنتج الأستاذ سيد قطب ـ «لابد أن يكون المقصود أمرًا عامًّا يستند إلى صفة فى الفطرة مشتركة بين الرسل جميعًا، بوصفهم من البشر، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل» [2] . يمكننا أن نقول ـ بعبارة أخرى ـ : إن هذه الآية لا تصلح على الإطلاق مستندًا لحديث الغرانيق.

وفى ضوء هذا يكون التفسير المقبول للآية هو أن الرسل عندما يناط بهم إبلاغ الرسالة إلى الناس يتمنون لو استطاعوا جذب الناس إلى دعوتهم بأسرع السبل ويودون لو هادنوا الناس بصورة مؤقتة فيما رسخ فى نفوسهم من عادات وتقاليد ، وذلك حتى يقبلوا الدعوة ، ثم يمكن بعد ذلك صرفهم عن تلك العادات المتأصلة لديهم. ويجد الشيطان فى ذلك فرصة للكيد للدعوة وإلقاء الشبهات حولها فى النفوس، ولكن الله يحول دون كيد الشيطان ويبين الحكم الفاصل (أى يُحْكِم آياته) فيما يحاول الشيطان الكيد فيه[3].

بهذا يتبين لنا أن حديث الغرانيق حديث متهافت لا يتسق مع رسالة التوحيد ولا مع العصمة النبوية ولا مع المنطق السليم. ومن هنا كان علينا أن نبحث عن سبب آخر وراء عودة مهاجرى الحبشة الأولين إلى مكة غير ما قيل من أن عودتهم كانت من أجل ما سمعوه من إسلام قريش فى قصة الغرانيق.

إن ما يمكننا أن نستنتجه هو أن الظروف التى أحاطت بهؤلاء المهاجرين الأولين لم تكن مشجعة تمام التشجيع، فقد كانوا عددًا قليلاً مما عَمَّق إحساسهم بالغربة رغم حسن استقبال النجاشى لهم. وتشير بعض مصادرنا إلى ما تعرض له النجاشى خلال تلك الفترة من اضطرابات داخلية جعلت بعض المسلمين يأخذ صفه ويقاتل بجانبه،

---

(١) محمد الخضرى: نور اليقين، صـ ٤٤ ، ومحمد حسين هيكل: حياة محمد، صـ ١٨٠.
(٢) فى ظلال القرآن جـ ٤ ، صـ ٢٤٣٣.
(٣) نفس المصدر والصفحة.



ومن هؤلاء الزبير بن العوام، الذى يقول عنه البلاذرى إنه «قاتل مع النجاشى عدوًا له»[1]. والواضح أن هذه مسألة لم تكن تثير بواعث الطمأنينة فى نفوس المهاجرين. ويضاف إلى ذلك ما لعله ترامى إلى أسماعهم من اتساع دائرة الإسلام بمكة، وهكذا اجتمعت هذه العوامل كلها لتشجع مهاجرة الحبشة الأولين على العودة إلى مكة، فعادوا وهم يطمعون فى أن يجدوا موقف أهل مكة من المسلمين قد تغير، ولكنهم «لما كانوا دون مكة بساعة من نهار» ـ كما يقول ابن القيم ـ «بلغهم أن قريشًا أشد ما كانوا عداوة لرسول الله ﷺ، فدخل من دخل منهم بجوار»[2]، ودخل بعضهم مستخفيًا[3]. وكان عثمان بن مظعون أحد هؤلاء الذين دخلوا مكة بجوار، حيث أجاره الوليد بن المغيرة، ثم ردّ عثمان جوار الوليد قائلا: أكون فى ذمة مشرك! جوار الله أعزّ! فقام بعض بنى المغيرة فلطم عين عثمان بن مظعون، فضحك الوليد شماتة به حيث رد عليه جواره، وقال له: ما كان أغناك عن هذا! فقال عثمان: إن عينى الأخرى لمحتاجة إلى مثل ما نالت هذه! فقال له الوليد: هل لك أن تعود إلى جوارى؟ قال: لا أعود إلى جوار غير الله[4].

هكذا تهيأت الظروف للهجرة الثانية إلى الحبشة؛ فقد تعرض المهاجرون الأولون للأذى بعد عودتهم إلى مكة، كما تعرض للأذى غيرهم من المسلمين، فهاجر إلى الحبشة ثانية من رجع منها، وانضم إليهم كثير من المسلمين التماسًا لحماية عقيدتهم وأرواحهم. ولا نجد فى مصادرنا إشارة إلى التاريخ الدقيق الذى حدثت فيه هذه الهجرة الثانية، ولكننا نرجح أنها كانت فى مطالع العام السادس للبعثة؛ لأن أصحاب الهجرة الأولى عادوا فى شوال من العام الخامس للبعثة، والغالب أنهم مكثوا بضعة أشهر فى مكة قبل أن يتمكنوا من إعداد أنفسهم للهجرة الثانية، وكان الذين انضموا إليهم يحتاجون إلى مثل هذا الإعداد أيضًا.

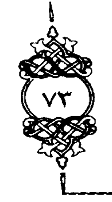
---

(١) أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٢٠١ - ٢٠٢. ويشير ابن هشام إلى هذه الاضطرابات ودور الزبير فيها. ولكن كلام ابن هشام يفيد أنها حدثت بعد الهجرة الثانية. انظر سيرة ابن هشام، جـ ٢، صـ ٣٦١. والراجح مع ذلك أن هذه الاضطرابات ترجع بجذورها إلى وقت أبعد من ذلك.

(٢) زاد المعاد، جـ ٢، صـ ٤٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، صـ ٧٧.

(٤) نفس المصدر والجزء. صـ ٧٨. وانظر أيضًا لنفس المؤلف: أسد الغابة. جـ ٣، صـ ٥٩٩.



ولا يتفق مؤرخو السيرة حول عدد الذين ذهبوا إلى الحبشة فى الهجرة الثانية، فيذكر ابن هشام أنهم كانوا ثلاثة وثمانين رجلا سوى نسائهم وأبنائهم إن كان عمار بن ياسر فيهم، فإن لم يكن فيهم فقد كانوا اثنين وثمانين[1]. ويذكر اليعقوبى أنهم كانوا سبعين سوى نسائهم وأبنائهم[2]. ويبدو أنه لا يُدْخل فيهم أصحاب الهجرة الأولى، وقد كانوا عنده اثنى عشر رجلا، ويقدم البلاذرى عرضًا مفصلاً بأسماء كل مهاجرة الحبشة، وهم عنده ستة وتسعون رجلاً. ولكنه يشير فى ثنايا عرضه إلى من اختُلف فى هجرته وهم عشرون، كما يذكر أسماء النساء المهاجرات بصحبة أزواجهن ، وهن ثمانى عشرة[3]، وقد كان من أبرز المهاجرين فى المرة الثانية - بالإضافة إلى من ذكرنا أسماءهم فى الهجرة الأولى - جعفر بن أبى طالب[4]، وأبو عبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح، والمقداد بن عمرو بن ثعلبة (وهو المقداد بن الأسود) ، وشرحبيل بن حسنة، وسلمة بن هشام بن المغيرة (أخو أبى جهل)، وهشام بن العاص بن وائل (أخو عمرو ابن العاص).ولا شك أن هجرة هذا العدد الضخم من المسلمين إلى ذلك البلد النائى - وفيهم الكثير ممن ينتمى إلى عشائر ذات قوة - يشى بمقدار ما كانوا يتعرضون له من إيذاء وملاحقة، بل إن أبا بكر نفسه - بكل ما كان يتمتع به من مكانة رفيعة بين أهل مكة - أجمع أمره على الهجرة فى المرة الثانية فرارًا من الاضطهاد، فبينما هو فى بعض الطريق لقيه أحد أشراف العرب، وهو الحارث بن يزيد المعروف بابن الدُّغُنَّة[5] (أو ابن الدُّغينة) فسأله عن وجهته، فقال أبو بكر: أخرجنى قومى، فأنا أسيح فى الأرض فأعبد ربى. فقال ابن الدغنّة: مثلك يا أبا بكر لا يَخْرُج ولا يُخْرَج، وأخذ يعدد فضائله، ثم عرض عليه أن يجيره بمكة، فقبل أبو بكر، وأنفذت قريش جوار ابن الدُّغُنَّة بشرط أن يستخفى أبو بكر بصلاته وقراءته فى منزله، فمكث أبو بكر يعبد الله فى داره، ثم إنه ابتنى بفناء داره مسجدًا فكان يجتمع نساء المشركين وأبناؤهم حين يقرأ القرآن، فراع ذلك قريشًا، فأخبروا ابن الدغنة بما يصنع أبو بكر، فقال له: قد علمت ما عاقدك القوم

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ ١ ، صـ ٣٥٣. وانظر أيضًا: زاد المعاد لابن القيم، جـ ٢ ، صـ ٤٤- ٤٥ والبداية والنهاية لابن كثير، جـ ٣ ، صـ ٦٤.

(٢) تاريخ اليعقوبى، جـ ٢ ، صـ ٢٩.

(٣) ارجع إلى التفاصيل فى : أنساب الأشراف، جـ ١ ، صـ ١٩٨ - ٢٢٧.

(٤) ويروى أن «جعفرًا» كان أمير المهاجرين إلى الحبشة. انظر الطبقات الكبرى لابن سعد، جـ ٤ ، صـ ٣٤.

(٥) هو سيد بنى الهون بن خزيمة، وهم القارة. انظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم، صـ ١٩٠ وأنساب الأشراف للبلاذرى، جـ ١ ، صـ ٢٠٥.

عليه؛ فإما أن تقتصر عليه، وإما أن ترد علىَّ جوارِى وذمتى . فقال أبو بكر: فإنى أُرجع إليك جوارك وأرضى بجوار الله![1] وواجه أبو بكر - بغير جوار الدغنة - أذى المشركين صابرًا لا تلين له قناة.

ومن المشروع هنا أن نتساءل: ماذا كان رد فعل قريش إزاء هجرة المسلمين إلى الحبشة؟

يحدثنا التاريخ أن عناد مشركى قريش فى مقاومتهم لدعوة الإسلام بلغ بهم حدًا جعلهم يتعقبون هؤلاء المهاجرين في مأواهم الجديد. ولعل قريشًا خشيت أن تؤثر حماية النجاشى للمسلمين تأثيرًا إيجابيًا على الدعوة المحمدية فى داخل شبه الجزيرة العربية؛ فيتزايد أتباع هذا الدين، أو لعلها خشيت أن تشتد شوكة هؤلاء المهاجرين فيعودوا إلى مكة أكثر قدرة على تقديم كل صور العون لدعوة الإسلام[2].

وتجمع مصادرنا على أن قريشًا أرسلت بعض مبعوثيها إلى النجاشى فى محاولة منها لصرفه عن إيواء المسلمين وتقديم الحماية لهم؛ ولكنها تختلف حول عدد البعثات التى أرسلتها بهذا الصدد وحول بعض الشخصيات التى اشتركت فيها. فرواية ابن إسحاق - وهى التى وردت في سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى وغيرهما - تشير إلى أن قريشًا أرسلت إلى النجاشى بعثة واحدة مكونة من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة[3]. ورواية موسى بن عقبة - وهى التى وردت فى تاريخ اليعقوبى وغيره - تشير إلى أن قريشًا أرسلت إلى النجاشى بعثة واحدة مكونة من عمرو بن العاص، وعُمارة بن الوليد بن المغيرة[4]. وهناك من الروايات ما يشير إلى أن قريشًا أرسلت بعثتين: الأولى مع عمرو بن العاص وعُمارة بن الوليد، والثانية مع عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعة[5].

على أن ما نرجحه هو أن قريشًا أرسلت إلى النجاشى بعثة واحدة هى بعثة عمرو ابن العاص وعبدالله بن أبى ربيعة، وذلك في ضوء اتفاق معظم مصادرنا على ذلك.

---

(١) أنساب الأشراف ، جـ١ صـ ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد ، صـ ١٦٩ .

(٣) سيرة ابن هشام ، جـ ١ صـ ٣٥٦ ، وتاريخ الطبرى جـ ٢ ، صـ ٣٣٥، وأنساب الأشراف للبلاذرى جـ ١ ، صـ ٢٣٢ .

(٤) تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، صـ ٢٩ .

(٥) هذه إحدى الروايات التى يعرضها ابن كثير وينقلها عن أبى نعيم فى الدلائل. انظر البداية والنهاية ، جـ ٣ ، صـ ٧٤ .



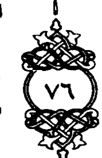
وينفى البلاذرى نفيًا قاطعًا أن يكون عمارة بن الوليد هو الذى صحب عمرا في بعثة قريش إلى النجاشى، ويذكر أن عمارة صحب عمرا فى رحلة تجارية إلى الشام لا صلة لها بأى سفارة سياسية، وكانت مع عمرو امرأته، فراودها عمارة عن نفسها فامتنعت، ففطن عمرو لذلك وبيَّت الشر لعمارة، فعندما انتهيا إلى أرض الحبشة حاول عمارة أن يتصل بامرأة النجاشى وأن يُغْويها، وعلم عمرو بما حاوله عمارة فحدث به النجاشى، فيقال إن النجاشى قتل عمارة، ويقال إنه سحره[1]. وهناك رواية يرويها ابن كثير عن الزهرى خلاصتها أن بعثة عمرو بن العاص، وعبدالله بن أبى ربيعة إلى النجاشى أرسلتها قريش بعد غزوة بدر «لينالوا ممن هناك ثأرًا»[2]، أما بعثة عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد فقد حدثت فى المرحلة التى نناقشها الآن. وهذه رواية لا تجد لها صدى في مصادرنا التاريخية، ولهذا نعيد ما سبق أن رجحناه منذ قليل وهو أن قريشًا أرسلت إلى النجاشى بعثة واحدة هى بعثة عمرو بن العاص وعبدالله بن أبى ربيعة بعد الهجرة إلى الحبشة بقليل.

ومهما يكن من خلاف حول عدد البعثات التى أرسلتها قريش إلى النجاشى وحول بعض الشخصيات التى شاركت فيها فإن ما يتفق عليه مؤرخو السيرة هو أن محاولة قريش للوقيعة بين النجاشى وبين المهاجرين المسلمين باءت بالفشل. لقد حمل عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة معهما هدايا قيِّمة إلى النجاشى وحاشيته، وحاولا إغراء الحاشية بأن تشجع النجاشى على طرد هؤلاء المهاجرين. وعندما أذن لهما الإمبراطور بالمثول بين يديه قالا له: «أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومك ولم يدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثْنَا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم. .». ومع أن الحاشية أعلنت تصديقها لكلام السفيرين فإن النجاشى أبى إلا أن يسمع ما يقوله المهاجرون أنفسهم، فأرسل إليهم يستدعيهم فدخلوا عليه، وعندئذ سألهم النجاشى: «ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل؟» فتصدى جعفر بن أبى طالب للإجابة عن سؤاله قائلا: «أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده،

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ، جـ ١ صـ ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٣ ، صـ ٧٤.





ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونـه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكـفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكلِ مال اليتيم وقـذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأمـرنا بالصلاة والزكاة والصيام. . . فصدقناه وآمنـا به واتبعناه على ما جاء به من الله . . . فعدا علينا قومنا فعذبـونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعـالى، وأن نستحل ما كنا نستـحل من الخبائث، فلما قهـرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننـا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلـم عندك أيها الملك. .»[1] ثم طلب النجاشـى من جعفر أن يقرأ عليه بعض ما أُنزل على محمد ﷺ ، فقرأ عليه جعفر صدرًا من سورة مريم، فلما وقف النجـاشى على معـانيها قال: «إن هـذا والذى جاء به عيـسى ليخرج من مـشكاة واحدة» وأبى أن يرد المهاجـرين إلى قريش، فقال عمرو بن العاص لرفـيقه عبد الله بن أبى ربيعـة بعد أن خرجا من عنـد النجاشى خائبـين: «والله لآتينه غدًا بما أسـتأصل به خضراءهم»[2]. . والله لأخبرنـه أنهم يزعمون أن عيـسي ابن مريم عبـد». ثم جاءه فى الغد فقـال له: «أيها الملك ، إنهـم يقولون فى عيسـى ابن مريم قولا عظيـمًا» فأرسل إليهم النجـاشى يسألهم عن هذا القول، فأجابـه جعفر: «نقول فيه الذى جـاءنا به نبينا ﷺ: هو عبـد الله ورسوله وروحه وكـلمته ألقـاها إلى مريم العـذراء البتول». فـأخذ النجاشى عودًا من الأرض قال: «والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود». ![3]

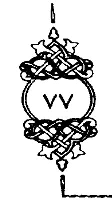
هذا هو موقف النجاشي إزاء من هاجر إلى أرضه من المسلمين كما تجمع عليه مصـادرنا . وفى هذا الجو الآمن طـالت إقامة بعض الـمسلمين إلـى أربعة عشر عـامًا تقريبًا، ومـن هؤلاء جعفر بن أبى طالب، وخـالد بن سعيد بن العـاص، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس وغيرهم، فى حين آثـر بعضهم العودة إلى مكة قبل هجرة الرسول ﷺ منها إلى المدينـة عندما رأوا الظروف مواتية لذلك، ومن هؤلاء عثـمان بن عفان، وأبو حذيفـة بن عتبة بن ربيعـة، والزبير بن العوام، ومـصعب بن عمير، وعـثمان بن مظعون، وعبـد الرحمن بن عوف، وعتبـة بن غزوان، وكثير غيرهـم. وقد مات بعض

---

(١) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ٣٥٩.

(٢) يقال: أباد الله خضراءهم: أصلهم الذي منه تفرعوا، أو خصـبهم وسعتهم ونعيمهم، والخضراء سواد القوم ومعظمـهم. وفى حديث الفتح : «أبيدت خضراء قريش» . انظـر المعجم الوسيط: مادة «خضراء» جـ ١ ، صـ ٢٤٩.

(٣) سيرة ابن هشام . جـ ١ ، صـ ٣٥٩ ـ ٣٦٠.



المسلمين بأرض الحبشة ودفنوا هناك، ومن هؤلاء عمرو بن أمية بن الحارث بن أسد ابن عبد العزى، وعبدالله بن الحارث بن قيس بن عدى، والمطلب وطليب ابنا أزهر بن عبد عوف[1]. وتجدر الإشارة إلى أن بعض الأحباش اعتنقوا الإسلام على أيدى هؤلاء المهاجرين، وهذا واضح من قول البلاذرى عند حديثه عن عودة جعفر بن أبى طالب من أرض الحبشة: «قدم منها هو وجماعة أقاموا معه من المسلمين وجماعة أسلموا من الحبش، وقد فتح رسول الله ﷺ خيبر» [2]، أى فى العام السابع من الهجرة.

إن هجرة الحبشة ـ بكل ما أحاط بها من ملابسات وما ترتب عليها من ردود فعل ـ لتوضح المدى الذي وصل إليه مشركو قريش فى محاولاتهم اليائسة من أجل القضاء على الدعوة الإسلامية وملاحقة أنصارها حيث وُجدوا. ولكن دعوة الحق كانت تمضى فى ثبات، وكان يمضى فى خط مواز لها كيد المشركين وعنادهم. وقد كان أمام القرشيين فى تلك المرحلة كثير من أساليب المكر التى لم يجربوها، وكلما فشل أسلوب لجأوا إلى سواه: ﴿ .. وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [3].

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب وتأثير ذلك في مسار الدعوة:

يتفق مؤرخونا على أن حمزة بن عبدالمطلب (وهو عم الرسول ﷺ) كان أسبق إسلامًا من عمر بن الخطاب، ويتفقون كذلك على أن المسلمين عزّوا وامتنعوا بإسلام حمزة وعمر، ومع ذلك لا نجد اتفاقًا فى مصادرنا على التاريخ الذي أسلم فيه حمزة على وجه التحديد. ونحن نتردد كثيرًا فى قبول ما يرويه ابن الأثير من أنه أسلم فى العام الثانى للبعثة [4]. فالواضح من السياق الذي يتناول فيه المؤرخون ـ ومن بينهم ابن الأثير ـ إسلام حمزة أنه أسلم بعد دخول الدعوة الإسلامية في مرحلة الجهر، والمعروف أن الدعوة ظلت ثلاث سنين فى طى الكتمان، والواضح أيضًا من السياق نفسه أنه أسلم بعد أن بدأ المشركون يوجهون أذاهم المباشر إلى الرسول ﷺ، وهذا لم يحدث إلا بعد أن حاولوا حَمْل عمه أبى طالب على منعه من الاستمرار فى دعوته. ثم إنهم عندما فشلوا فى ذلك لم يوجهوا أذاهم إلى الرسول مباشرة بل إلى

---

(١) انظر التفاصيل فى: أنساب الأشراف للبلاذرى، جـ ١ صـ ١٩٨ ـ ٢٢٧.

(٢) نفس المصدر والجزء، صـ ١٩٨.

(٣) سورة الأنفال: [٣٠].

(٤) أُسْد الغابة، جـ ٢، صـ ١٥.



المستضعفين من أصحابه، ثم إلى الذين أسلموا من عشائر قريش. وربما جاز لنا أن نستنتج فى ضوء ذلك أن إسلام حمزة تأخر إلى العام الخامس للبعثة، ويقال إنه أسلم قبل عمر بثلاثة أيام، أى فى العام السادس للبعثة[١]، كما سيأتى.

يروى المؤرخون فى سياق حديثهم عن إسلام حمزة أن أبا جهل (وهو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى) [٢] مر برسول الله ﷺ وهو جالس عند الصفا «فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره» فلم يرد عليه رسول الله ﷺ. وقد شهدت هذا الموقف مولاة لعبدالله بن جُدعان فأخبرت حمزة بذلك وهو على شركه، فاحتمله الغضب وكان راجعًا من رحلة صيد له، فلم يطف بالكعبة كعادته، بل انطلق يبحث عن أبى جهل، فوجده جالسًا فى الكعبة بين جمع من قريش، فأقبل نحوه ورفع قوسه فضربه ضربة شجت رأسه شجة منكرة، وقال: أتشتمه؟ فأنا على دينه أقول ما يقول، فردّ ذلك علىّ إن استطعت! وكان حمزة أعز قريش وأشدها شكيمة، ولما قام رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل قال أبو جهل: «دعو أبا عُمارة، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا»[٣]. هكذا دخل حمزة فى الإسلام منذ ذلك الوقت، و«عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع وأن حمزة سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه»[٤].

ثم جاء إسلام عمر بن الخطاب بعد إسلام حمزة ليزيد الإسلام عزًّا ومَنَعَة. والمعروف أن عمر كان قبل إسلامه غليظًا قاسيًا يلقى المسلمون منه أذى وشدة، وكان المسلمون يستبعدون إسلامه لما يرون من قسوته حتى إن بعضهم قال: «لا يسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب!»[٥] والرواية التى تقدمها معظم مصادرنا حول الملابسات

---

(١) انظر السيوطى: تاريخ الخلفاء، صـ ١٢٣ ، ١٢٥ ، وأبو نعيم الأصفهانى: حلية الأولياء ، جـ١ ، صـ ٤٠.

(٢) أبو جهل هى الكنية التى أطلقها الرسول ﷺ على عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكان يكنى قبل ذلك: «أبا الحكم». انظر : البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ ١ ، صـ ١٢٥.

(٣) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ٣١٢ ـ ٣١٣ . وأبو عُمارة كنية حمزة.

(٤) نفس المصدر والجزء، صـ ٣١٣ ، وتاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، ٣٣٤.

(٥) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ٣٦٥، والكامل لابن الأثير، جـ ٢ ، صـ ٨٤ ، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى، جـ ١ ، صـ ٧٥ . وقائل هذه العبارة هو عامر بن ربيعة بن مالك، أحد أصحاب الهجرة الأولى إلى الحبشة.



التى أحاطت بإسلام عمر تتلخص فى أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت مصدر إيلام لبعض ذويهم من غير المسلمين، وكان عمر يرى أن الدين الجديد هو سبب تفريق أمر قريش، ومن هنا صمم على أن يقتل محمدًا بصفته - فى نظره - مسئولا عن ذلك، وهكذا خرج عمر يومًا متوشحًا سيفه يريد رسول الله ﷺ، فلقيه نُعَيْم بن عبدالله النَّحامّ [١]- وهو رجل من بنى عدى كان مسلمًا يكتم إسلامه - فقال له: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمدًا هذا الصابئ الذى فرق أمر قريش وسفَّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله! فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟! وكانت أخت عمر فاطمة بنت الخطاب، وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قد أسلما وأخفيا إسلامهما عن عمر خوفًا من بطشه، فأخبره نعيم بذلك، فذهب إليهما، وكان عندهما خَبّاب بن الأرتّ يقرئهما القرآن من صحيفة كانت معه، فلما أحسوا بقدوم عمر استتر خباب وأخفت فاطمة الصحيفة، وكان عمر قد سمع قراءة القرآن عندما اقترب من بيت أخته، فلما دخل قال: ما هذه الهَيْنَمة[٢] التى سمعتُ؟ فلم يجيباه إجابة شافية. فأخبرهما بما علم من إسلامهما، ثم بطش بِخَتَنه سعيد بن زيد، فحاولت أخته أن تدافع عن زوجها فضربها فأسال دمها، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم رقّ لها وندم على ما صنع وطلب منها أن تعطيه الصحيفة، وكان بها سورة «طه»، فقالت له: إنا نخشاك عليها، فحلف لها بآلهته ليردنَّها إليها إذا قرأها، فطلبت منه أخته أن يغتسل قبل أن تعطيه الصحيفة، فاغتسل فأعطتها له.

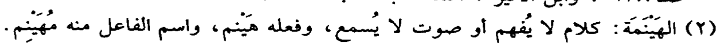
فلما قرأ صدرًا مما فيها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! وكان خباب فى مكمنه يسمع هذا الحوار، وعندما لمس تأثر عمر بالقرآن طمع فى إسلامه، فخرج عليه وقال له: والله يا عمر إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ﷺ فإنى سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيِّد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب». فالله الله يا عمر! فقال عمر: فدلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له: هو فى بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه. فذهب عمر إلى هناك متوشحًا سيفه، فلما طرق الباب وهمَّ أحد المسلمين أن يفتح له رآه من خَلَل الباب، فرجع إلى الرسول ﷺ فزعًا وهو يقول: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحًا سيفه! وكان حمزة

---

(١) نُعيم بن عبد الله بن أَسيد بن عبد عوف، عُرف بالنَّحام ؛ لأن الرسول ﷺ قال: «دخلت الجنة فسمعت نَحْمةً من نُعيم فيها»، والنَّحمة: السعلة. محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٤ ، صـ ١٣٨ . وابن الأثير : أسد الغابة ، جـ ٥ ، صـ ٣٤٦.

(٢) الهَيْنَمَة: كلام لا يُفهم أو صوت لا يُسمع، وفعله هَيْنم، واسم الفاعل منه مُهَيْنِم.





بين الحاضرين ، فاقترح على الرسول ﷺ أن يأذن له ، وقال فى ذلـك: إن كان جاء يريد خيرًا بذلـناه له، وإن كان يريد شرًا قتلناه بسيفه فـأذن له الرسول. فلما دخل عمر أخذ الـرسول بمـجمـع ردائه ثم جـذبه جذبـة شديدة وقـال له: «مـا جاء بك يـا ابن الخطاب؟! فوالله مـا أرى أن تنتهى حتى ينـزل الله بك قارعة» ! فقال عـمر: يا رسول الله، جئت لأومن بالله وبرسـوله وبما جاء من عند الله. فكبر رسـول الله ﷺ تكبيرة، فعرف أصحابه فى البيت أن عمر قد أسلم(١).

وهناك رواية أخرى فى إسلام عمر مؤداها أنه بيـنما كان عند الكعبة يريد الطواف إذا برسول الله ﷺ قائم يصلى ويقرأ القرآن، فرقّ قلب عمر تأثرًا بما سمع من القرآن، وبكى، وأصبحت نفسه مهيأة للدخول فى الإسلام، فلما قضى الرسول صلاته وفرغ من تلاوته انصـرف إلى بيتـه، فانصرف وراءه عـمر حتى أدركـه، ثم أقرّ أمامـه بالإسلام، فانطلـق لسان الرسول بحـمد الله، ثم قال له: «قـد هداك الله يا عمر»! ومـسح صدره ودعا له بالثبات(٢).

ومهما تكن الرواية الصحيحة حول الملابسات التى أحاطت بإسلام عمر، فإن ما نطمئـن إليه أن إسلامه لـم يكن قرارًا عفويًّا جاء وليد اللـحظة، بل كان مسبوقًـا بتدبر عميق وصراع داخلي حـاد. ومثل عمر لا يتخذ القرارات الارتجاليـة، وقد كان إسلامه راسخًا رسوخ الجـبل، ولا يتأتى ذلك عن طريق قرار سريع خاطف. لـقد أعطى عمر للإسلام نفسه، فعزّ بالإسلام وعزّ به الإسـلام. ومما يروى عن عبد الله بن مسعود فى هذا الصدد قوله: «إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة. ولقد كنا وما نصـلى عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسـلم عمر قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه».

ونختم حديثنا عن إسلام عمر بمحاولة تحديد التاريخ الذى أسلم فيه، والملاحظ أن العديـد من مصادرنا تذكـر أن المسلمـين اكتملـوا أربعين بانضـمام عمر إلـيهم(٣)، وبعضها يرفـع هذا العدد قليلاً(٤). ولكننا نشك كـثيرًا فى ذلك، فقد اكتمـل المسلمون

---

(١) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ٣٦٥ ـ ٣٦٨ ، والبداية والـنهاية لابن كثير ، جـ ٣ ، صـ ٧٧ ـ ٧٨ . والكامل لابن الأثير، جـ ٢ . صـ ٨٤ ـ ٨٦ ، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى، جـ ١ صـ ٧٥ ـ ٧٧.

(٢) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ٣٧٠.

(٣) انظر على سبيل الـمثال: ابن قتيبة: المعارف، صــ ١٨٠، وابن الأثير: الكامل، جـ ٢ ، صـ ٨٤، وأسد الغابة، جـ ٤ ، صـ ١٤٦، وأبو نعيم الأصفهانى: حلية الأولياء، جـ ١ ، صـ ٤١.

(٤) السهيلى : الروض الأنف، جـ٢ ، صـ ١٢٠.



أربعين والدعـوة فى مرحلة الكتمـان. وقد بلغ عدد مهاجـرى الحبشة فى المرة الـثانية أكثر من سبعين، وربما جاز لنا أن نقبل ذلك لو كان المقصود به المسلمين المتبقين فى مكة بعد هجرة من هاجر منهم إلى الحبشة[1]، وفى ضوء ذلك نطمئن إلى التاريخ الذى تقدمه بعض مصادرنا لإسلام عمر وهو العام السادس للبعثة»[2].

اتجاه قريش فى مقاومة الدعوة بعد هجرة الحبشة:

ارتبط بهجـرة المسلمين إلـى الحبشة إسلام عـمر بن الخطاب كمـا رأينا، وكان إسلام حمزة قبله بوقـت غير طويل كما سبقت الإشارة، وقد ذكرنـا أن المسلمين عزوا وامتنعوا بإسلام حمـزة وعمر، وأن المشركين كفوا عن محمـد ﷺ بعد ما كانوا ينالون منه، وهذا ما تردده معظم مصادرنا. ولكننا نجد فى هذه المصادر نفسها ما يشير إلى أن قريشًا لم تكفّ أذاها عن الرسول ﷺ وأصحابه بعد هـجرة المسلمين إلى الحبشة وبعد إسلام حمزة وعمر. بل إن عمر نفسه ناله نصيب من هذا الأذى، ذلك أنه ذهب يتحدى قريشًا بعد إسلامـه ويعلن على الملأ أنه قـد أسلم. وعندما سمعـوا ذلك «ثاروا إليه، فمابرح يقاتلهم ويقاتلونـه حتى قامت الشمس على رؤوسهم»[3]. وقد أجاره خاله أبو جهل ابن هشام[4] فردّ عمر عليه جواره. يقول عـمر: «فمازلت أضْرَب وأضْرِب حتى أعز الله الإسلام»[5].

إن ما يبـدو أكثر قـبولا هو أن قـريشًا لم تتـوقف عن إيذاء الرسـول ﷺ وإيذاء المسلمين بعد هجـرة الحبشة وبعد إسلام حمزة وعمر، بل عـدَّلت أساليبها فى الإيذاء ومقاومة الدعوة وطورتها حتى تتناسب مع المتغيِّرات الجديدة. والحق أن هجرة الحبشة

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٣، صـ ٧٧.

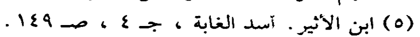
(٢) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ٤، صـ ١٥١، ويزيد السيـوطى الأمر تحديدًا حين يذكر أنه أسلم «فى ذى الحجة من السنة السادسة من النبوة». تاريخ الخلفاء، صـ ١٢٥.

(٣) سيرة ابن هشام، جـ ١، صـ ٣٧٠.

(٤) تذكر بعض مصادرنا أن أم عـمر هى حنتَمة بنت هشام بن المغيـرة أخت أبى جهل. انظر سيرة ابن هشام، جـ ١، صـ ٣٧١، ومروج الذهب للمسعودى، جـ ٢، صـ ٣١٣. وتذكر مصادر أخرى أن حنتـمة هى بنت هاشـم بن المغيـرة المخزومى فـهى بنت عم أبى جهـل. ابن حزم: جمهـرة أنساب العرب، صـ ١٤٤، وابـن الأثير: أسد الغـابة جـ ٤، صـ ١٥١. وأهل الأم كلهم أخوال، كما يقول ابن الأثير.

(٥) ابن الأثير. أسد الغابة، جـ ٤، صـ ١٤٩.





وما ارتبط بهـا من إسلام عمر وحمـزة قبله تعد نقـطة تحول أساسية فـى تاريخ الدعوة الإسلامية فى مكة وموقف المشركين منها. فقد كانت قريش حتى ذلك الوقت تنظر إلى الإسلام نظرة فيها قدر كبير من الاستخفاف والاستهانة؛ فهذا الدين الجديد لم يكن فى رأيها إلا بدعة روج لها مدع يحب الظهور، ومن السهل القضاء عليها بأساليب المقاومة العادية البسيطة، ولهذا رأينا مقاومة قـريش للدعوة تنحصر في البداية فى عدم الإصغاء للرسـول ﷺ وعدم أخذ دعـوته مأخـذ الجد، ثم اتـخذت المقـاومة شكلا آخـر وهو محاولة إغراء أبى طالب بـالتخلى عن نصرة ابن أخيه حتى لا تجـد دعوته من يساندها فتنتهى إلى زوال، وأخيرًا اتجهت قريش فى مـقاومتها للدعوة إلى أتباع رسول الله ﷺ تصب عليهم سـوط عذاب ، وتذيقهم صنوف الأذى والهوان حتى تصـرفهم عن دعوته فيطويها النسيان.

ولكن الدعوة مضت فى طريقها واثقـة تكتسب مزيدًا من الأنصار، ووجد هؤلاء الأنصار مـلاذًا آمنا فى كنف نجـاشى الحبشة واكـتسب الإسلام أتبـاعًا فى قامـة حمزة وعمر. وهنا سُقط فى أيدى قريش وأدركـت أن الأمر جد لا هزل فيه، وأن هذه الدعوة التى استخفـوا بها أخطر كثيرًا مما يظـنون، ومن هنا لم يجدوا بدًا من أن يعيدوا تقييم الموقف كله وأن يعدّلوا أساليب مقاومتهم للـدعوة في ضوء هذا التقييم. ولهذا نعيد ما سبق أن ذكرناه منذ قليل من أن هجرة الحبشة تعد خطًا فاصلاً فى تاريخ مقاومة مشركى قريش للدعوة الإسلامية.

وقد ارتكزت مقاومة قريش للدعوة بعد هجـرة الحبشة على محورين: أما أولهما فهو إنزال الأذى المـباشر بالرسول ﷺ ، وأما الثـانى فهو ملاحقة كـل من يسانده من عشيرته من بنى هاشم وبنى المطلب.

أ ـ إنزال الأذى المباشر بالرسول:

كانت قريش قبل هجـرة المسلمين إلى الحبشة ترعى مكـانة أبى طالب وحقوقه عليها فـلا تبسط يدها بالسوء إلـى محمد ﷺ لما تعلـمه من حماية عمـه له. أما بعد هجرة الحبشة فقد أسقطت قريش هذا الاعتبار من حسبانها، فوجهت أذاها المباشر إلى الرسول. بل إن أبا طالب نفسه امتدت إليه بعض آثار هذا الأذى كما سوف نرى.

وقد رأت قريش أن تـتدرج فى إيذائها للرسـول ﷺ ، فسلطت عليـه فى البداية ألوانًا من الأذى النفسى، فـرمته بالسحر والكهانة والجنـون وأنه شاعر، وقد أرادت من وراء ذلك أن تقـضى علـى مـصداقـية دعوته وأن تـصرف الناس عـما يقـول ، ولكن



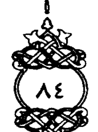
الرسول ﷺ لم يعرف عنه شيء من هذه الصفات التى رموه بها، فلم يتسبب ذلك بالتالى في صرف الناس عن دعوته. وقد أشار القرآن الكريم في غير موضع إلى هذه الافتراءات التى حاول المشركون إلصاقها بالرسول ﷺ ، وكان يحثه دائما على أن يمضى قدمًا فى طريق دعوته وأن يصبر على ما يقولون. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[1]. وأيضًا: ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[2].

وعندما لم تُجْدِ هذه الأساليب فى الحد من انتشار دعوة الإسلام بدأت قريش تبسط لسانها فى الرسول ﷺ بالسب المباشر القبيح، كما بدأت تناله بالأذى البدنى. ومما يروى فى هذا السياق أن الرسول مر يومًا على مشركى قريش عند الكعبة فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون له : أنت الذى تقول كذا وكذا؟! لما يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول: نعم، أنا الذى أقول ذلك. فتقدم إليه عقبة بن أبى مُعَيْط[3] فلوى ثوبه فى عنقه وخنقه خنقًا شديدًا، فقام أبو بكر من خلفه، فوضع يده على منكبه، فدفعه عن الرسول ﷺ وهو يقول: ياقوم: «أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله»[4]. وقد كان عقبة هذا من أشهر من عُرفوا بين القرشيين بإيذاء النبى ﷺ ، وقد قال فيه ﷺ: «إنه وطئ على عنقى وأنا ساجد، فما رفع حتى ظننت أن عينىَّ قد سقطتا»[5].

ومن بين من اشتهروا كذلك بإيذاء الرسول ﷺ فى هذه المرحلة: أبو جهل وأبو لهب ، وأمية بن خلف، وأخوه أبىّ بن خلف[6].

---

(١) سورة الطور : [٢٩ ـ ٣١].
(٢) سورة الذاريات : (٥٢ ـ ٥٥].
(٣) هو عقبة بن أبى مُعَيْط أبان بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس. انظر: جمهرة أنساب العرب لابن حزم، صـ ١١٤.
(٤) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣٣٣.
(٥) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١ ، صـ ١٤٨.
(٦) أمية وأبىّ هما ابنا خلف بن وهب بن حذافة بن جُمَح.



أما أبو جـهل فقد كان يكـنى أبا الحكم فكناه الـرسول أبا جهل لفـرط فجوره، وقال: « من قال لأبى جهل أبا الحكم فقد أخطـأ خطيئة يستغفر الله منها » [١]. وكان أبو لهب (ومعه عقبة بن أبي معـيط) من بين جيران رسول الله ﷺ فقال ﷺ فى ذلك: «كنت بين شر جـارين: بين أبى لهب ، وعقبة بـن أبى معيط»[٢]. وأما أميـة وأبىّ ابنا خلف «فكانا عـلى شر ما يكون عليـه أحد من أذى النبى ﷺ وتكذيـبه» كما يصفـهما البلاذرى[٣].

والحق أن الأذى الـذى لقيـه رسول الله ﷺ من هؤلاء ومن غـيرهم مـن وجوه قريش فى الـمرحلة التى نتنـاولها الآن لم يزده إلا تمـسكًا بدعوته وإصرارًا عـلى حمل أمانة تبليغها.

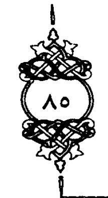
ب ـ حصار قريش لبنى هاشم وبنى المطلب:

ربمـا كانت هذه الخـطوة من أكثـر الخطوات التـى اتخذتهـا قريش ضـد دعوة الإسلام تطرفًـا وغرابة وقسوة. ووجه الـتطرف والغرابة فيهـا أنها لم تكن موجـهة ضد رسول الله ﷺ فقـط بل ضد غير المـسلمين أيضًا مـن عشيرة الرسول مـن بنى هاشم وأشياعـهم من بنى المطلب، وعلى رأس هـؤلاء جميعًا أبو طـالب الذى وقف مع ابن أخيه منذ البداية يناصره بكل ما أوتى من حول وقوة.

أما وجه القسوة فى هذه الخطوة فهو أنـها فَرَضَتْ على مَنْ وُجِّهَتْ ضدهم نوعًا من الحـصار الاقتصـادى والاجتمـاعى كان يهدف إلـى القضاء علـيهم ماديًا ومعنويًا بتجـويعهم وعزلهم فـيسهل على قريـش حينذاك أن تملى علـيهم شروطها أو تتـركهم لمصيرهم. وقد حدث هذا الحصار في السنة السادسة من البعثة بعد هجرة الحبشة وبعد إسلام حمزة وعمـر؛ وتمَّ بناءً على صحيفة كتبتـها قريش ووثَّقتها بثمانيـن خاتمًا، كما يقول اليعقوبى[٤]، وعلقـتها فى جـوف الكعبة. أمـا ما تعاقـدت عليه قـريش فى هذه الصحيـفة فهو ألا يزوجوا أحدًا مـن بنى هاشم وبنى المطلب ولا يتـزوجوا منهم، ولا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم. وقد وقفت بنو هاشم وبنو المطلب ـ مسلمهم وكافرهم ـ فى هذه المحنة صفًا واحدًا مع رسول الله ﷺ .

---

(١) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ ١ ، صـ ١٢٥ .
(٢) نفس المصدر، صـ ١٣١ .
(٣) نفس المصدر ، صـ ١٣٧ .
(٤) تاريخ اليعقوبى، جـ٢ ، صـ ٣١ .



أما المسلم فقد انبعث موقفه من إسلامه ودينه، وأما الكافر فقد فعل ذلك «حمية أن يضام وقومه»[١] . لكن أبا لهب بن عبد المطلب خرج من بنى هاشم وانضم إلى قريش فى حصارهم لقومه[٢]. يقول اليعقوبى فى حديثه عن حصار الشِّعب: «ثم حصرت قريش رسول الله ﷺ وأهل بيته فى الشِّعب الذي يقال له شعب بنى هاشم[٣]، بعد ست سنين من مبعثه، فأقام ومعه جميع بنى هاشم وبنى المطلب فى الشعب ثلاث سنين حتى أنفق رسول الله ﷺ ماله، وأنفق أبو طالب ماله، وأنفقت خديجة بنت خويلد مالها، وصاروا إلى حد الضر والفاقة»[٤].

وقد استغلت قريش هذا الموقف الدقيق الذى كان يمر به الرسول والذين معه، فبدأت تلجأ إلى أسلوب المساومة معهم لعلَّها تظفر منهم بما عجزت عنه قبل ذلك. فيروى أن سادتها عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ، وأن يزوجوه من أراد من النساء مقابل أن يكفَّ عن شتم آلهتهم. فلما لم يجبهم الرسول إلى هذا عرضوا عليه أن يعبد اللات والعُزَّى سنة ويعبدوا إلهه سنة![٥] فنزل فى ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [٦]. وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝٦٤﴾ [٧]. وحاول القرشيون أيضًا أن يؤثروا على أبى طالب مستغلين هذه الظروف، فقد جاءوه وقالوا له: «قد آن يا أبا طالب أن تذكر العهد وأن تشتاق إلى قومك وتدع اللجاج فى ابن أخيك!» [٨]. ولكن أبا طالب كان على موقفه السابق الذى لا يلين.

وقد استمر بنو هاشم وبنو المطلب يعانون من وطأة هذا الحصار ثلاث سنين[٩]، وصل الأمر بمشركى قريش خلالها إلى حد أنهم قطعوا عنهم الأسواق، فلم يتركوا

---

(١) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ ١ ، صـ ٢٣٠ .

(٢) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ٣٧٢ .

(٣) ويعرف أيضًا بـ «شعب أبى طالب» . انظر أنساب الأشراف ، جـ ١ صـ ٢٣٠، وتاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣٣٦ .

(٤) تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ ، صـ ٣١ .

(٥) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٣٧ .

(٦) سورة الكافرون : [١ - ٢].

(٧) سورة الزُّمَر: [٦٤].

(٨) تاريخ اليعقوبى، جـ ٢ ، صـ ٣١ - ٣٢ .

(٩) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ ١ ، صـ ٢٣٣ .

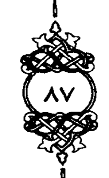


طعامًا يقدم مكة ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه،[1] ثم أحس بعض رجال من قريش بمدى الجُرْم الذي يرتكبونـه ضد بنى عمومتهم،فسعوا إلى نقض هذه الصـحيفة الظالمة دون أن يبالوا باعـتراض المعترضـين وعلى رأسهم أبو جهل. وكـان أول من سعى إلى تكوين جبهة مقاومـة قرشية لهذه الصحيفة هو هشام بن عمـرو بن ربيعة (من بنى عامر ابن لؤى). وقد نجح هشام فى إقناع أربعة من وجهاء قريش بوجهة نظره؛ وهؤلاء هم: زهير بن أبى أمية بن الـمغيرة المخزومى، والمطعم بن عدى بـن نوفل بن عبد مناف، وأبو البَخْتَرَى العاص بن هاشم بن الحارث بـن أسد بن عبد العزى، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العُزّى [2]. وهكذا اتفق هؤلاء الخمسة على رفع الصحيفة من جوف الـكعبة وتمـزيقها، وعـندما توجهـوا لتنفيـذ قرارهم وقف دونهم أبـو جهل معترضًا ففاجأه إجماعهم على هذا الأمر وإصرارهم عليه، فقال: «هذا أمر قُضى بليل، وتُشوور فيه بغير هـذا المكان»! ثم تقدم المطعم بن عدى إلى الصحيفة لـيمزقها فوجد الأرضةَ قد أكلـتها إلا عبارة: «باسـمك اللهم»، وهى التى كـانت قريش تفتتـح بها ما تكتب[3]، وبذلك انتـهى هذا الحصار الأثـيم الذى كان قمة مـا انتهت إليـه قريش فى مقاومـة الإسلام وأنصاره، وخرج منه المـسلمون كما دخلوا فـيه، مستمسـكين بدعوة الدين الجديد، ملتفين حول الداعى إليه.

وهناك عدد من الملاحظات الأساسية التى نختم بها حديثنا عن حصار شعب بنى هاشم:

الملاحظة الأولى: أن الذى دفع قـريشًا إلى فرض هذه المقاطعـة الظالمة هو ما أظهره الرسول ﷺ من عزيمة وإصرار على مواصلة دعوته رغم كل صور التحدى، وما كانت تحققه تلك الدعوة من نجاح وانتـشار مطرد. ولا شك أن هجرة الحبشة أزعجت قريشًا وجعلتها تحس أن الأمور فى طريقها إلى الخروج عن نطاق السيطرة وأنه لابد من اتخاذ قرار سـريع وحاسم لمواجـهة هذا الموقف المـتردى. ومما يقولـه ابن هشام فى ذلك: « فلـما رأت قريـش أن أصحاب رسـول الله ﷺ قد نزلوا بـلدًا أصابوا بـه أمنًا وقرارًا، وأن النجاشى قد مـنع مَنْ لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسـلم فكان هو وحمزة

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، صـ ٨٢.
(٢) أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٢٣٥ - ٢٣٦.
(٣) تاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ٣٤٢ - ٣٤٣.



ابن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابًا. .»[1].

الملاحظة الثانية: أن أبا طالب كان هو الذي أخذ قرار اللجوء إلى الشعب عندما أدرك أن قريشًا بيّتت النية لقتل رسول الله ﷺ [2]، وقد كان يهدف من هذا القرار إلى توفير الحماية الكافية للرسول ﷺ عن طريق إحاطة أهله وعشيرته به، وعندما رأى مشركو قريش ذلك اتخذوا قرار المقاطعة الذى كان يرمى إلى القضاء على محمد وعلى كل من يقف بجانبه.

والملاحظة الثالثة: أن الرسول ﷺ خلال هذا الحصار الطويل ما وهن عزمه ولا نكص عن حَمْل أمانة الدعوة بكل ما أوتى من قوة وما أتيح أمامه من وسيلة، وهذا ما يجمع عليه علماء السيرة فى سياق حديثهم عن حصار الشعب. فمما يقولونه فى هذا الصدد: «ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهارًا، سرًا وجهارًا، مباديًا بأمر الله، لا يتقى فيه أحدًا من الناس» [3].

وعندما انتهى حصار الشعب بدأت الدعوة الإسلامية تدخل مرحلتها الأخيرة فى مكة.

وفاة أبى طالب وخديجة:

توفى كل من أبى طالب عم الرسول، وخديجة زوجته، فى عام واحد، وكان ذلك قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين، أى فى العام العاشر من البعثة[4]، وتختلف الروايات فى ترتيب وفاتهما وفى التاريخ الدقيق لذلك، ولكن المشهور أن أبا طالب توفى قبل خديجة[5]، ولا حاجة بنا إلى أن نتحدث كثيرًا عن مدى التصاق هذين بالرسول ﷺ وقربهما من نفسه ووقوفهما بجانبه، فلا عجب أن تترك وفاتهما فى نفسه

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ ١، صـ ٣٧١ - ٣٧٢.

(٢) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٢٣٠، وابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، صـ٨٢.

(٣) سيرة ابن هشام، جـ ١، صـ ٣٧٦، وتاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ٣٣٦، والبداية والنهاية لابن كثير، جـ ٣، صـ ٨٥.

(٤) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٢٣٦، وسيرة ابن هشام، جـ ٢، صـ ٢٥ - ٢٦.

(٥) راجع: شرح النووى على صحيح مسلم، جـ١، صـ ٢١٥، حيث يذكر أن أبا طالب توفى قبل خديجة بثلاثة أيام. وانظر أيضًا: ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ٧، صـ ٨٥، =



ألمًا عـميقًا، ومـما يروى فى ذلك أن الـرسول ﷺ عندما عـلم بوفاة عمـه أبى طالب «عَظُم ذلك فى قلبه واشتـد جزعه، ثم دخل فمسح جبينه الأيمـن أربع مرات، وجبينه الأيسر ثلاث مرات، ثـم قال: يا عم! ربيتَ صغيرًا، وكـفلتَ يتيمًا، ونصـرتَ كبيرًا، فجزاك الله عنى خيرًا! ومشى بين يدى سـريره وجعل يعرضه ويقول: وصلتك رحم، وجزيتَ خيرًا»! (١) وكان أبو طالب حين توفى قد نيَّف على الثمانين.

أما خديجة ـ رضى الله عنها ـ فقد كانت عونًا صادقًا للرسول ﷺ فى كل مراحل حياته منذ زواجه منهـا حتى وفاتها، وقد دخل عليها وهى تجود بنفـسها فقال: «بالكُرْه منى ما أرى، ولعل الله أن يجعـل فى الكره خيرًا كثيرًا». ثم عبـر عن مدى تأثره بوفاة أبى طالب وخديجة فى زمـان متقارب فقال: «اجتمعـت على هذه الأمة فى هذه الأيام مصيبتان لا أدرى بأيهما أنا أشد جزعًا»، يعنى وفاة أبى طالب وخديجة (٢)، ويروى أنه ذكر خديجـة يومًا أمام عائشـة فقالت: «ما تذكر من عـجوز من عجائز قـريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر، قـد أبْدَلَكَ الله خيرًا منها»! (٣)، فغضب الرسول ﷺ من كلام عائشة «حتـى اهتزّ مقدَّم شعره من الغضب، ثم قـال: لا والله ما أبدلنى الله خيرًا منها، آمـنت إذ كفر الناس، وصدقـتنى وكذبنى النـاس، وواستنى فى مالهـا إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله مـنها أولادًا إذ حرمنى أولاد الـنساء»(٤). وقد توفيت خـديجة عن خمس وستين سنة.

ليس عجيـبًا إذن ـ وهذه هى مكانة أبى طالب وخديجـة من نفس الرسول ﷺ ـ أن يطلق على العام الذى مـاتا فيه «عام الحزن» (٥). وليس عجيبًا كذلك أن تزداد جرأة

=وابن كثير: البدايـة والنهاية جـ ٣، صـ ١٢٠. وتذكر بعض المصادر أن خديـجة توفيت قبل أبى طالب. انظـر على سبيـل المثال: البـلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٢٣٧، وتاريخ اليعقوبى، جـ ٢، صـ ٣٥.

(١) تاريخ اليعقوبى، جـ٢، صـ ٣٥.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) صحيح البخارى، جـ ٥، صـ ٤٨ ـ ٤٩.

(٤) ابن الأثير: أُسْد الغابة، جـ ٧، صـ ٨٥.

(٥) محمد الخضرى: نور اليقين، صـ ٤٩.

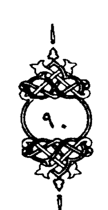


المشركين عليه بعد أن فقد هذين النصيرين، وخاصة عمه أبا طالب الذي كان يدفع عنه كثيرًا من طيشهم . ومما يروى في هذا السياق أن سفيهًا من سفهاء قريش نثر التراب على رأسه ﷺ فدخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهى تبكى والرسول ﷺ يقول لها: «لا تبكى يابنية ، فإن الله مانعٌ أباك»[1].

ما هى التطورات التى مرت بها الدعوة الإسلامية فى مكة منذ وفاة أبى طالب وخديجة حتى الهجرة إلى المدينة؟

هذا هو موضوع الفصل التالى..

(١) سيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، صـ ٢٦.



الفصل الخامس

تطور الدعوة في مكة منذ وفاة أبي طالب وخديجة حتى الهجرة إلى المدينة

تُعَدّ السنوات الثلاث التى تلت وفاة أبي طالب وخديجة من أكثر الفترات حسمًا فى تاريخ الدعوة الإسلامية بمكة، وقد توِّجتْ هذه السنوات الثلاث بهجرة الرسول والمسلمين إلى المدينة.

وأهم الأحداث التى سندير حولها حديثنا فى هذا الفصل هى على الترتيب التالى:

١ ـ رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف.

٢ ـ الإسراء والمعراج.

٣ ـ بيعتا العقبة.

١ ـ رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف:

بوفاة أبى طالب فقد الرسول ﷺ أكبر نصير له بين بنى هاشم. وازدادت قريش عليه جرأة وبه مكرًا. وقد حل أبو لهب محل أخيه أبى طالب فى زعامة بنى هاشم[1] فلم يجد فيه الرسول ﷺ إلا مزيدًا من المكر به والكيد له والتحريض عليه. ولكن الدعوة لابد أن تمضى في طريقها رغم كل العقبات، تنفيذًا لأمر الله بتبليغ رسالته. ومن هنا فكر الرسول ﷺ فى ارتياد ميدان جديد من ميادين الدعوة لعله يجد فيه آذانًا صاغية، فذهب إلى مدينة الطائف يعرض على أهلها من ثقيف دعوة الإسلام. والواضح أن الرسول ﷺ كان يراوده الأمل فى أن تجد الدعوة الإسلامية ملاذًا آمنا فى الطائف، تلك المدينة الحصينة التى يُعْرَفُ أهلها بالبأس وقوة الشكيمة، فخرج إليها

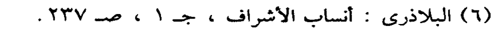
---

(1) M . Watt, Muhammed , Prophet and Stateman, P. 79.

لثلاث ليال بقين من شوال سنة عشر من البعثة [1]، وكان بصحبته مولاه زيد بن حارثة. فلما انتهى إلى الطائف التقى بثلاثة من أشراف ثقيف وهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير وأخواه مسعود وحبيب، فعرض عليهم الإسلام ودعاهم إليه، فأعرضوا عنه وسخروا منه، بل إن واحدًا منهم قال له: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك؟! ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرجمونه ويصيحون به[2]. وكان من بين ما قاله سادة ثقيف في ردهم عليه: «كرهك أهل بلدك وقومك ولم يقبلوا منك، فجئتنا، فنحن والله أشد لك إباءً، وعليك ردًا، ومنك وحشة!»[3] وقد اضطر الرسول ﷺ إزاء مطاردة سفهاء ثقيف له أن يلجأ إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة محتميًا به، فجلس هناك تحت ظل كَرْمة وانصرف عنه الناس، فقال يناجي ربه: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهَوَاني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى مَنْ تكلني؟! إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري؟! إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي! ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل عليَّ سخطك. لك العتبى حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك» [4].

وبعد هذه التجربة القاسية التي تعرض لها رسول الله ﷺ بالطائف رجع بصحبة مولاه زيد بن حارثة إلى مكة «وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه». ومن هنا! لم يستطع أن يدخل مكة بغير جوار. وقد التمس جوار غير واحد بها فلم يجره إلا المطعم بن عدى[5]. وقد دخل ﷺ مكة عائدًا من الطائف في الثالث والعشرين من ذى القعدة سنة عشر من البعثة[6].

هكذا توالت المحن على الرسول ﷺ؛ فقد توفي اثنان من أحب الناس إليه وأكثرهم رحمة به، وخذلته ثقيف وسخرت منه وردته ردًا قبيحًا، كما اشتد عليه أذى قومه من قريش. ولكن الرسول ﷺ - رغم هذا كله - لم ييأس من نصر الله.



(١) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٢٣٧.
(٢) تاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ٣٤٤ - ٣٤٥، وتاريخ اليعقوبى، جـ ٢، صـ ٣٦.
(٣) أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٢٣٧.
(٤) تاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ٣٤٥.
(٥) نفس المصدر والجزء، صـ ٣٤٧.
(٦) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٢٣٧.

٢ ـ الإسراء والمعراج:

فى تلك الظروف حدث حادث الإسراء والمعراج، ولعل الله سبحانه أراد به نوعًا من الدعم النفسى للرسول ﷺ فى محنته، حتى يستطيع أن يواصل طريق الدعوة واثقًا أن الله حافظه ومؤيده. ويختلف علماء السيرة حول التاريخ الدقيق لهذا الحادث. فبينما يرى البعض أنه كان قبل وفاة أبى طالب وخديجة يرجح آخرون حدوثه بعد ذلك، وهو ما نطمئن إليه. بل إن البعض يذكر أنه كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة أو بستة عشر شهرًا[(١)]. وقصة الإسراء والمعراج ذائعة مشهورة، وما يعنينا منها هنا هو ما ترتب عليها من ردود أفعال لدى المشركين والمسلمين على السواء. وقد أشار القرآن الكريم إلى الإسراء فى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾[(٢)]. كما أشار إلى المعراج فى قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾[(٣)]. وقد فُرضت الصلوات الخمس عندئذ بهيئتها المعروفة[(٤)] كما سبقت الإشارة.

وعندما أذاع الرسول ﷺ حديث الإسراء والمعراج فى مكة كان لذلك صدى عميق في نفوس من سمعوه، سواء أكانوا مشركين أم مسلمين. أما المشركون فنحن لا نتوقع منهم سوى الإنكار التام، وأنَّى لهم أن يفعلوا غير ذلك وقد أنكروا رسالة الرسول ﷺ من أساسها؟! فيروى المؤرخون أنَّ أبا جهل حين سمع بحديث الإسراء والمعراج من الرسول ﷺ قال له: «أرأيت إن دعوتُ قومك لك لتخبرهم، أتخبرهم بما أخبرتنى به؟ قال: نعم. فجمع له أبو جهل قريشًا وقال للرسول: أخبر قومك بما أخبرتنى به! فقصّ عليهم رسول الله ﷺ خبر ما رأى وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة، وصلى فيه! «فمن بين مُصفِّق ومُصَفِّر تكذيبًا له واستبعادًا لخبره»[(٥)]. وأما المسلمون فيتضح موقفهم

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى البداية والنهاية لابن كثير، جـ ٣ ، صـ ١٠٧ وما بعدها.

(٢) سورة الإسراء : [١].

(٣) سورة النجم : [١٣ ـ ١٨]. وقد ربط البعض ـ كما أشرنا ـ بين سورة النجم وقصة الغرانيق التى ارتبطت بهجرة الحبشة، وهذا يمكن أن يُعَدَّ دليلا آخر على تهافت هذه القصة . راجع صـ٦٩ – ٧٢ فيما سبق.

(٤) سيرة ابن هشام ، جـ ١ ، صـ ١٥ .

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ، جـ ٣ ، صـ ١١١ . وانظر أيضًا: ابن الأثير: الكامل ، جـ ٢ ، صـ ٥٦ .



من خلال الرواية التالية التى تحدثنا عن موقف أبى بكر، فقد ذهب إليه الناس يخبرونه أن محمدًا يقول إنه أُسرِىَ به إلى المسجد الأقصى وعُرِجَ به من هناك، فقال أبو بكر: إنكم تكذبون عليه! فقالوا: والله إنه ليقوله! فقال: «والله إن كان قاله لقد صدق، فما يُعْجبكم من ذلك؟! فوالله إنه ليخبرنى إن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه»[1]. وقد لقّب الرسول أبا بكر بالصديق منذ ذلك الوقت[2].

ولا شك أنّ رَدَّ أبى بكر على المشركين فى البداية بقوله: «إنكم تكذبون عليه» يدل على أن حديث الإسراء والمعراج كان مفاجأة للمسلمين جميعًا فضلاً عن الخاصة منهم كأبى بكر؛ ولهذا يُروى أن بعض المسلمين ارتد عند سماعه بذلك الحديث[3]. وكان ما يستند إليه الكفار والمتشككون هو أن الإبل تسير شهرًا من مكة إلى الشام ذاهبة، وشهرًا آيبة؛ فكيف يذهب محمد ويعود فى ليلة واحدة؟! ومن هنا كان حديث الإسراء والمعراج اختبارًا ليقين المسلمين وتمحيصًا لإيمانهم. وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ ... وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ... ﴾[4].
وكان راسخو الإيمان من المسلمين يعتمدون على أن الرسول ﷺ صادق مصدَّق فى كل ما يقول ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ ﴾ كما وصفه القرآن الكريم[5].

---

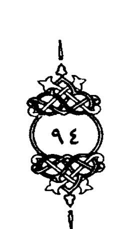
(١) سيرة ابن هشام، جـ ٢، صـ ٥.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر. صـ ٤ . وانظر أيضًا: ابن الأثير: الكامل، جـ ٢، صـ ٥٦.

(٤) سورة الإسراء : ٦٠ . وانظر حول ذلك: سيرة ابن هشام، جـ ٢، صـ ٥، ولكلمة «الرؤيا» تفسيرات أخرى راجعها فى الكشاف للزمخشرى، جـ٢، صـ ٦٧٥ ـ ٦٧٦.

(٥) قد يكون من المناسب هنا أن نشير إلى ما ثار من خلاف حول كيفية الإسراء والمعراج، فيرى جمهور المسلمين أن الإسراء والمعراج كليهما كانا بالروح والجسد معًا. ويذهب البعض إلى أن الإسراء من مكة إلى بيت المقدس كان بالروح والجسد، وكان المعراج بالروح فقط. ويرى آخرون أن الإسراء والمعراج كليهما كانا بالروح فقط، وهم يعتمدون على مفهوم كلمة «الرؤيا» التى جاءت فى قوله تعالى: ﴿ ... وما جعلنا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ... ﴾ ؛ فالرؤيا منامية أو روحية، والرؤية عينية. ويروى فى هذا السياق عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت: «ما فُقِدَ جسدُ رسول الله ﷺ، ولكن الله أسرى بروحه»، وكان معاوية إذا سئل عن مسرى رسولَ الله ﷺ يقول: «كانت رؤيا من الله صادقة». لمزيد من التفصيل. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، صـ ١١٢ وما بعدها؛ وابن القيم: زاد المعاد، جـ ٢، صـ ٤٨ ـ ٤٩؛ والدكتور محمد حسين هيكل: حياة محمد، صـ ٢٠٢ ـ ٢٠٩.



٣ ـ بيعتا العقبة:

الظروف التى مهدت لبيعة العقبة الأولى: أشرنا منذ قليل إلى أن الرسول ﷺ بعد وفاة أبى طالب وخديجة ذهب إلى الطائف يلتمس نصرة ثقيف، وإلى أن ثقيفًا أساءت استقباله وردته ردًا قبيحًا ، ولم يُضْعِف هذا من عزم رسول الله ﷺ على مواصلة تبليغ الدعوة لكل من استطاع أن يتصل به من العرب بل ومن البشر جميعًا، والأمر متروك بعد ذلك لإرادة هؤلاء: ﴿ .. فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴾[1].

فكان المنهج الذي اتبعه الرسول ﷺ بعد ذلك هو أن يعرض نفسه فى المواسم ـ إذا كانت ـ على قبائل العرب، يدعوهم إلى دين الله «ويخبرهم أنه نبى مرسل ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به»[2]. ويتضح هذا مما يرويه ربيعة بن عباد[3] إذا يقول: «إنى لغلام شاب مع أبى بمِنَى ، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول: يا بنى فلان، إنى رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به»[4].

ولم تكن مهمة الرسول سهلة؛ فطالما لقى إعراضًا من هؤلاء الذين كان يدعوهم، وتكذيبًا له وسخرية منه. وكان من بين القبائل التى عرض عليها نفسه ودعوته قبيلة كندة، وكلب، وبنى عامر بن صعصعة، وبنى فزازة، وبنى مرة، وبنى عبس، وبنى سليم، وبنى بكر بن وائل ، وبنى محارب، وبنى حنيفة وغيرهم[5]. وقد أعرض هؤلاء جميعًا عن دعوته، وقال له رجل من بنى محارب يومًا: « والله لا يؤوب بك قوم

---

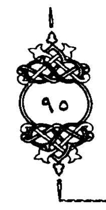
(١) سورة الكهف : [٢٩].

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٤٨.

(٣) ربيعة بن عِبَاد (بكسر العين وتخفيف الباء) ، ويروى : عُبَاد (بضم العين وتخفيف الباء) ، وقيل: عبَّاد (بالتشديد)، هو من بنى الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وهو مدنى، أحد رواة الحديث، وقد عُمِّر طويلا، ومات بالمدينة فى خلافة الوليد بن عبد الملك. انظر ترجمته فى: أسد الغابة لابن الأثير، جـ ٢ صـ ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٤) تاريخ الطبرى ،جـ ٢ ، صـ ٣٤٨.

(٥) نفس المصدر والجزء، صـ ٣٤٩ ـ ٣٥٠. وانظر أيضًا: البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١ ، صـ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.



إلى دارهم إلا آبوا بشرٍّ ما آب به أهل موسم»![1] ولكن لم يكن فى هذه القبائل جميعًا أقبح ردًّا عليه من بنى حنيفة وبنى عامر بن صعصعة[2].

ومما زاد المهمة تعقيدًا أمام الرسول ﷺ أن مشركى قريش كانوا يحاولون الوقوف فى وجهه وصد الناس عنه وهو يُبلِّغ دعوته فى المواسم. يروى ربيعة بن عباد بهذا الصدد أنه رأى أبا لهب بعكاظ «وهو يتبع رسول الله ﷺ ، وهو يقول: ياأيها الناس، إن هذا قد غوى، فلا يُغْوِيَنّكم عن آلهة آبائكم. ورسول الله ﷺ يفر منه، وهو على أثره»[3].

على أن هذا كله لم يزد الرسول إلا إصرارًا على المضى فى طريق تبليغ رسالته. وكانت آيات الوحى يتوالى نزولها عليه لتشد من أزْره، ضاربة له المثل بمن أرسلوا قبله فصبروا على التكذيب والأذى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾[4]

ثم أراد الله للأنصار أن ينالوا شرف تصديقه ﷺ والإيمان به من بين القبائل التى وجَّه إليها دعوته. يروى ابن كثير أن الرسول ﷺ لم يأت أحدًا من تلك القبائل إلا قال: «قوم الرجل أعلم به! أترون رجلا يُصْلِحنا وقد أفسد قومَه ولفظوه؟! وكان ذلك مما ذخره الله للأنصار وأكرمهم به»[5].

فقد خرج الرسول ﷺ فى أحد المواسم ـ وكان ذلك فى العام الحادى عشر للبعثة، أى قبل الهجرة بعامين ـ فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم. فبينما هو عند العقبة (على مشارف مكة)[6] إذْ لقى ستة رجال من الخزرج، فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فأجابوه وصدَّقوه وقالوا له: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى الله أن

---

(١) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٢٣٧.

(٢) المصدر السابق، صـ ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة، جـ ٢، صـ ٢١٥.

(٤) سورة الأنعام: [٣٤].

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، صـ ١٣٨.

(٦) العقبة المقصودة هنا هى المكان الذى كان يقع بين منى ومكة، وبينها وبين مكة نحو ميلين، ومنها ترمى جمرة العقبة. انظر: ياقوت: معجم البلدان، جـ ٤، صـ ١٥١.



يجمعهم بك. وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك» (١). ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم. أما هؤلاء الرجال الستة فهم: أسعد بن زُرارة (أبو أمامة)، وعوف بن الحارث ابن رفاعة (وهو ابن عفراء)، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعتبة بن عامر بن نابى، وجابر بن عبد الله بن رئاب(٢).

فلما قدم هؤلاء يثرب على قومهم «ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ»(٣).

فهذه هى الظروف التى مهدت لبيعة العقبة الأولى.

أ - بيعة العقبة الأولى وانتشار الإسلام فى يثرب:

بعد مضىّ عام على لقاء الرجال الستة من الخزرج بالرسول ﷺ واستجابتهم لدعوته يمَّمَ اثنا عشر رجلا من الأنصار شطر مكة، وذلك فى العام الثانى عشر من البعثة، فلقوا رسول الله ﷺ بالعقبة فبايعوه البيعة التى اشتهرت باسم «بيعة العقبة الأولى» كما عرفت أيضًا ببيعة النساء (٤). والملاحظ أن اللقاء السابق - وهو الذى تم فى العام الحادى عشر من البعثة - لم تحدث فيه بيعة، وإنما ترتب عليه إسلام رجال الخزرج الستة.

كان بين الرجال الاثنى عشر الذين شهدوا بيعة العقبة الأولى عشرة من الخزرج واثنان من الأوس. أما رجال الخزرج فهم: أسعد بن زرارة (أبو أمامة)، وعوف ومعاذ ابنا الحارث (وهما ابنا عفراء)، ورافع بن مالك بن العجلان، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابى، وذكوان بن عبد قيس، وعُبادة بن الصامت، وأبو

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ٣٥٤.

(٢) نفس المصدر والجزء، صـ ٣٥٤ - ٣٥٥، وسيرة ابن هشام، جـ ٢، صـ ٣٨ - ٣٩.

(٣) سيرة ابن هشام، جـ ٢، صـ ٣٩.

(٤) سميت بيعة النساء؛ لأنها وافقت ما نزلت عليه بيعة النساء عام الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة، وهى التى يشير إليها قوله تعالى في سورة الممتحنة آية [١٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، صـ ١٤٨.



عبدالـرحمن يزيد بن ثعلـبة، والعباس بن عُـبَادة بن نضْلة. وأمـا الرجلان من الأوس فهما: أبو الهيثم مالك بن التَّيهان، وعُوَيم بن ساعدة[1].

أما بنود هذه البيعـة فيوضحها عبادة بن الصامت ، أحد مـن شارك فيها، حيث يقول: «كنت فيمن حضر العقبـة الأولى، وكنا اثنى عشر رجلا، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النسـاء، وذلك قبل أن يُفْترض علينا الحرب: على ألا نـشرك بالله شيئًا، ولا نسرق ، ولا نزنى، ولا نـقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتـان نفتريه من بين أيـدينا وأرجلنا، ولا نعصيه فى معروف، فإن وفيتم فلكم الجـنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل: إن شاء غفر، وإن شاء عذب»[2].

وعندما رجـع أصحاب بيعـة العقبة الأولـى إلى يثرب أرسل معـهم الرسول ﷺ مصعب بن عُمَير[3] (وكان من بـين من عادوا من الـحبشة)، وأمـره أن يقرئهـم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين. وقد عُـرف مصعب هناك بالمقرئ، وكانت إقامته عند أسعد بن زرارة[4].

ازداد الإسلام انتـشارًا فى يثـرب بعد بيعـة العقبـة الأولى؛ وذلك بفضل حـركة الدعوة التـى قام بها السابـقون إلى الإسلام من الأنصـار، ثم بفضل الجهـد الذى بذله مصعـب بن عمير فـى هذا المجال. وعلى يـد مصعب أسلم رجـلان من الأوس كان لإسلامهما أثر كبـير فى نشر دين الله بين قومهما من بنى عبـد الأشهل، وهما سعد بن معاذ، وأسيد بن حُـضَير. والجدير بالذكر أن أسيد بن حضـير ذهب أولا إلى سعد بن زرارة ومصعـب بن عمير لـيصدهما عن الـدعوة، وذلك بتوجـيه من سعد بـن معاذ، وعندما دخل عليهما قـال لهما مؤنبًا: ما جاء بكما إلينا تسفهـان ضعفاءنا؟! اعتزلانا إن كانت لكما فى أنفسكما حاجة! ولكن مصـعبًا كلمه بحكمة ولين وعرض عليه الإسلام عرضًا ترك فى نفسه أعظم الأثر، فأعلن اعـتناقه له؛ ثم أغرى سعد بن معاذ أن يذهب

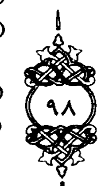
---

(١) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٥٥ ـ ٣٥٦ ، وسيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، صـ ٤٠ ـ ٤١.

(٢) سيـرة ابن هشام ، جـ ٢ ، صـ ٤١. وانـظر أيضًا: صحـيح البخـارى، جـ ٥ ، صـ ٧٠ (مع اختلاف يسير فى العبارة).

(٣) هو مصعب بن عُمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى.

(٤) سيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، صـ ٤٢.



إلى أسعد ومصعب ليسمع منهما بنفسه، ففعل سعد، ولم يلبث أن أسلم على يد مصعب كما أسلم أسيد، وقد كان لإسلام سعد بن معاذ أعظم الأثر فى إسلام قومه من بنى عبد الأشهل، فيروى أنه جمعهم بعد إسلامه وقال لهم: يا بنى عبد الأشهل، كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة! قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله! فما أمسى فى دار عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة![1]

ب - بيعة العقبة الثانية :

لما وافى ذو الحجة من العام الثالث عشر للبعثة - أى قبل الهجرة بثلاثة أشهر - قدم إلى العقبة ثلاثة وسبعون رجلا من مسلمى يثرب[2]، ومعهم امرأتان[3]، واجتمعوا بالشِّعب عند العقبة ينتظرون مقدم رسول الله ﷺ، حتى جاء ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان لم يُسْلم بعد، ولكنه أراد أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ؛ لأنه عرف أن هناك حلفًا بينه وبين أهل يثرب بما قد يترتب على ذلك من حرب ضد قريش. ولما كان بنو هاشم قد تعاهدوا أن يمنعوا محمدًا وينصروه فلابد أن يستوثق العباس لابن أخيه حتى لا تكون كارثة يصْلَى بنو هاشم نارها ويتخلى عنهم اليثربيون؛[4] ولهذا كان العباس أول من تكلم، فقال للمجتمعين : «إن محمدًا منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا، وهو فى عز من قومه ومَنَعَة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم؛ فإن كنتم ترون أنكم وافون لهُ بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفوه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه فى عز ومنعة من قومه وبلده»[5].

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣٥٧ - ٣٥٩.

(٢) سيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، صـ ٤٩ . ويروى الطبرى (جـ٢ ، صـ ٣٦٢) أنهم كانوا سبعين رجلا.

(٣) هما أم عُمارة، وهى نسيبة بنت كعب امرأة زيد بن عاصم؛ شهدت بيعة العقبة، وبيعة الرضوان، ويوم اليمامة، وباشرت القتال بنفسها وشاركت مع ابنها عبد الله فى قتل مسيلمة؛ والأخرى أم منيع، وهى أسماء بنت عمرو بن عدى، وكلتاهما من الخزرج. السهيلى : الروض الأنف، جـ٢ صـ ٢٦٥ - ٢٦٦.

(٤) د . محمد حسين هيكل : حياة محمد، صـ ٢١٧.

(٥) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٦٢.



فقال أهل يثرب للعباس: قد سمعنا ما قلت؛ فتكلم يا رسول الله، وخذ لنفسك وربك ما أحببت. فتلا رسول الله ﷺ عليهم القرآن ودعا إلى الله ثم قال: أبايعكم على أن تمنعونى مما تـمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فقال البَرَاء بن مـعرور - وكان سيدًا فى قومه من الخزرج - : «والذى بعثك بالحق لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا (أى نساءنا)[1]؛ فبايعنا رسـول الله ﷺ، فنحن والله أهل الحرب وأهل الحَلْقـة (أى السلاح) ، ورثناها كابرًا عن كابر»[2].

ولكن أبا الهيثم مالك بن التيهان سأل رسول الله ﷺ سؤالا لا شك أنه كان يدور بخاطر بعض الأنصار. حيث قال له: «يارسـول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها (يعنى اليهود) ؛ فهل عـسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟» فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدمُ الدمُ، والهدْمُ الهدْمُ، أنا منكم وأنتم منى؛ أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»! [3].

ثم طلب منـهم رسول الله ﷺ أن يختاروا مـن بينهم اثنى عـشر نقيبًـا (أى أمينًا وممثـلا) فاختاروهم له. وهم تسـعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهؤلاء هـم نقباء الخزرج: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالـك بن العجـلان، والبراء بن مـعرور، وعبـد الله بن عمـرو بن حرام، وعبـادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمـرو بن خُنَيْس. أما نقباء الأوس فهم: أُسَيْد ابن حُضَير، وسعد بن خيثمة بن الحارث، وأبو الهيثم بن التيهان[4].

وقد قال العبـاس بن عبادة - أحد شهود هذه البـيعة والبيعة السابقـة - لقومه من الخزرج عند بيعة رسول الله : يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصـيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فـمن الآن فدعوه، فهو والله

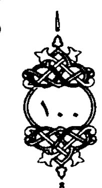
---

(١) جاء فى السهيلى: «نـبايعك على أن نمنعك مما نمنع منه أُزُرنـا: أراد : نساءنا؛ والعرب تكنى عن المرأة بالإزار، وتكنى أيضًـا بالإزار عن النفس، وتجعل الثوب عبارة عـن لابسه. . فقوله: مما نمنع منه أُزُرنا، يحتمل الوجهين. .» الروض الأنف ، جـ ٢ ، صـ ٢٦٧.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ ٢ ، صـ ٥٠.

(٣) نفس المصدر ، صـ ٥٠ - ٥١ ، وقوله ﷺ :« بل الدم الدم والهدم الهدم» أى: ذمتى ذمتكم، وحرمتى حرمتـكم. وكان العرب تقول عند عقد الحلـف والجوار: «دمى دمك وهدمى هدمك، أى : ما هدمت من الدماء هدمته أنا» . انظر : الروض الأنف، جـ ٢ ، صـ ٢٦٨.

(٤) سيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، صـ ٥١ - ٥٣ ، وأنساب الأشراف للبلاذرى. جـ ١ ، صـ ٢٥٢.



خزى الدنيا والآخرة إن فـعلتم، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعـوتموه إليه: على نهكة الأموال وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خـير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيـبة الأموال وقتل الأشراف، فـما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفّـيْنا؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه[1].

فهذه هى بيعة العقبة الثانية أو بيعة العـقبة الكبرى كما تسمى بحق، ويطلق عليها أحيانًـا «بيعة الحرب» وهـى التى تمت فى ذى الحجـة من العام الثـالث عشر للبـعثة. والذى لا شك فيه أن هذه البيعة تُعَدُّ نقطة تحول كبرى فى تاريخ الإسلام، ولهذا يروى عن كعب بن مالك ـ أحد شهود هذه البيـعة ـ أنه قال: «لقد شهدت مع النبى ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، ومـا أحب أن لى بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها»[2].

بين بيعة العقبة الأولى والثانية:

نلاحظ فى بيعة العقبة الأولى أن أصحابها بايعوا رسول الله ﷺ على ألا يشركوا بالله شيئًا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان ولا يعصوا رسول الله ﷺ فى معـروف. أما فى بيعة العـقبة الثانيـة فقد أضاف أصـحابها إلى ذلك كله بـيعة رسول الله ﷺ على النصرة، أى على أن يمنعوه مـما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، أو مما يمنعون منه أُزُرهم كما قال البراء بن مـعرور، أو على حد تعبير العباس بن عبادة : «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس» ؛ فهى ـ إذن ـ بيعة على النصرة التامة لرسول الله ولـدينه؛ ومن هنا ذهب أهل يثرب بذلك اللقب الـخالد فى التاريخ، وهو «الأنصار» ومن هنا أيـضًا كانت هذه البيعة مـقدمة حقيقيـة لهجرة رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

***

---

(١) تاريـخ الطبـرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٦٣ ـ ٣٦٤ . وانظر أيضًـا : سـيرة ابـن هشـام ، جـ ٢ ، صـ٥٥.

(٢) صحيح البخارى، جـ ٥ ، صـ ٦٩ ـ ٧٠.



ولكن قبل أن نتناول الهجرة إلى المدينة لابد أن نتوقف هنا ونتساءل:

ما الذى جعل عرب يثرب أسرع من سواهم من قبائل العرب إلى الاستجابة لدعوة الرسول والوقوف بجانبه؟

يقدِّم الباحثون عدة أسباب لذلك لعل أهمها ما يأتى:

أولا: ما ترتب على جوار العرب لليهود في يثرب من آثار روحية جعلت العرب هناك أكثر فهمًا وتقبلا لحقيقة الدين السماوى الذى جاء به محمد ﷺ . وقد كان اليهود - وهم أهل كتاب - يعيبون على عرب يثرب عبادتهم للأصنام. ومع ذلك لم يعتنق عرب يثرب اليهودية لأن اليهود لم يقدموا - بسلوكهم العملى - مثالا يحتذى أمام جيرانهم كما أشرنا قبل ذلك؛ ولأن اليهودية تحولت - على يد أتباع موسى عليه السلام إلى دين عنصرى قائم على فكرة شعب الله المختار . فلما جاء الإسلام كان عرب يثرب أكثر فهمًا لأبعاده وأسرع استجابة له من غيرهم من قبائل العرب نتيجة احتكاكهم المتصل باليهود وجوارهم الدائم معهم[1].

ثانيا: التوتر المتصل فى العلاقات بين اليهود والعرب فى يثرب. وقد أدى هذا التوتر إلى تهديد اليهود للعرب بقولهم : «إن نبيًّا الآن مبعوث قد أظل زمانه، نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرَم». فعندما التقى رسول الله ﷺ بمن التقى بهم من عرب يثرب ودعاهم إلى الإسلام قال بعضهم لبعض: «تعلمون والله إنه للنبى الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقُنَّكم إليه»[2]. وهكذا أسرع عرب يثرب إلى اعتناق الإسلام ليكتسبوا بإسلامهم عزًّا وسلطانًا فى وجه من يتحداهم من اليهود.

ثالثا: العداء المحتدم بين عرب يثرب من الأوس والخزرج. وقد وصل هذا العداء ذروته في يوم بعاث[3]، حيث كانت فيه ملحمة عظيمة بين هاتين القبيلتين قتل خلالها عدد من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم. وقد حدث ذلك قبل بيعة العقبة الأولى بوقت قصير. ولم يمض زمن طويل على يوم بعاث حتى التقى رسول الله ﷺ

---

(١) راجع : د . محمد حسين هيكل: حياة محمد ، صـ ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٥٤.

(٣) بعاث مكان بالقرب من المدينة، على مسيرة ميلين شرقى المدينة أو إلى جنوبها الشرقى على التحديد، وهو الذى شهد الحرب التى نشبت بين الأوس والخزرج قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ببضع سنين، وقد دارت الدائرة فيها أول الأمر على الأوس، ولكنها انتهت بهزيمة الخزرج هزيمة منكرة. وبعاث موطن قبيلة بنى قريظة اليهودية. انظر بول Buhl: مادة بعاث فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) ، جـ ٧ صـ ٣٤٣.



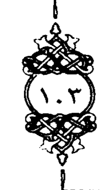
بالرجال الستة من الخزرج ودعاهم إلى الإسلام فأجابوه إليه، وقالوا له: «إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم. وعسى الله أن يجمعهم بك. وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك»[1]، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى حديثنا عن الظروف التى مهدت لبيعة العقبة الأولى.

فهذه هى أهم الأسباب التى أتاحت لعرب يثرب سرعة الاستجابة لدعوة الإسلام. ولكن قد يضاف إلى ذلك كله ما حباهم الله به من فطرة صحيحة جعلتهم يستوعبون حقيقة هذا الدين الذى لا يتصادم مع الفطرة بل يتسق معها كل الاتساق، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...**﴾[2].

---

(١) حول الظروف الخاصة التى خلقت فى عرب يثرب الاستعداد للدخول فى الإسلام. راجع: د. أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، جـ ١، صـ ١٢٩ - ١٣٠.

(٢) سورة الروم: [٣٠].





الفصل السادس

الهجرة إلى المدينة
ونشأة الدولة الإسلامية

كان واضحًا من خلال بيعة العقبة الثانية أن «يثرب» ستكون المركز الجديد للدعوة الإسلامية، وهذا المركز الجديد للدعوة كان مختلفًا عن مركزها السابق وهو مكة من حيث إنه كان مرشحًا ليصبح معقلا للدعوة وحصنًا حصينًا لها، بخلاف مكة التى كانت حربًا على الدعوة ومصدر تهديد لمعتنقيها. ولا شك أن الرسول ﷺ منذ لقائه الأول برجال الخزرج الستة كان يراوده الأمل فى أن تحتضن يثرب دعوة الإسلام. وعندما تمت بيعة العقبة الثانية تهيأت كل الظروف لتحويل هذا الأمل إلى حقيقة. وقد كان كلام العباس بن عبد المطلب فى مفاوضات البيعة الثانية يتضمن إشارة واضحة إلى ذلك حيث قال للأنصار: « إن محمدًا قد أبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم». كما تضمن كلام أبى الهيثم بن التيهان نفس هذه الإشارة عندما عبر عن مخاوفه من أن يلحق الرسول ﷺ بقومه فى مكة بعد أن يظهره الله على أعدائه، فكان رد الرسول حاسمًا: «أنا منكم وأنتم منى..!».

ولماذا يتردد الرسول والمسلمون فى الهجرة إلى يثرب فرارًا بدينهم من اضطهاد قريش وقد هاجر المسلمون قبل ذلك إلى الحبشة لذات السبب رغم بُعْد الشقة واختلاف اللسان والبيئة والدين؟ فها هى يثرب تقدم للرسول والمسلمين ما لم تقدمه الحبشة: من لسان مشترك وبيئة واحدة، ثم فضلا عن ذلك كله، بل وأهم من ذلك كله؛ لتقدم لهم أنصارًا وإخوة فى دين الله هم مستعدون لأن يمنعوهم مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وأن يبذلوا دماءهم دون ذلك.

الهجرة وموقف قريش منها:

هكذا فتح رسول الله ﷺ لأصحابه باب الهجرة إلى يثرب بمجرد أن تكونت للإسلام قاعدة هناك، وقال لهم في ذلك: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانًا ودارا تأمنون فيها» [1]. فبدأ المسلمون ينفذون أمره دون إبطاء، «فخرجوا أرسالا، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه بالخروج من مكة» [1].

أدركت قريش خطورة الموقف بعد أن رأت مسلمي مكة يلحقون تباعًا بإخوانهم من أهل يثرب. إن هذا كان يعني لديهم أن تصبح يثرب حصنًا للإسلام بمن أسلم من أهلها وبمن انضم إليهم من مسلمي مكة؛ وهذا يترتب عليه أولا تهديد لأمن قريش بمكة، ويترتب عليه ثانيًا تهديد لتجارة قريش إلى الشام؛ لأن يثرب تقع فى الطريق بين مكة والشام [2]. وكان أكثر ما يُفزع قريشًا أن يلحق رسول الله ﷺ بأصحابه بيثرب؛ لأنه إن فعل أصبحت للمسلمين هناك قيادة توشك أن تجتاحهم بحرب تقضى على نظامهم كله. يذكر الطبرى أن قريشًا لما رأت «أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا وأصابوا منهم مَنَعة، فحذِروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع أن يلحق بهم لحربهم، فاجتمعوا له فى دار الندوة، وهى دار قُصَىّ بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرًا إلا فيها، يتشاورون فيها ما يصنعون فى أمر رسول الله ﷺ حين خافوه» [3].

وقد كان هذا أخطر اجتماع عقدته قريش فى دار الندوة؛ ولهذا حضره ممثلون عن كل قبيلة من قبائل قريش. وكان على رأس الحاضرين أبو سفيان بن حرب، وشيبة وعتبة ابنا ربيعة، وطعيمة بن عدى، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل، والنضر بن الحارث بن كَلَدَة، وأبو البخترَى العاص بن هاشم، وزمْعة بن الأسود بن المطلب، وحكيم بن حزام، وأبو جهل بن هشام، ونَبَيه ومنبِّه ابنا الحجاج، وأمية بن خلف، «ومن كان معهم وغيرهم ممن لا يُعَدّ من قريش» [4].

---

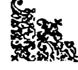
(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣٦٩.

(٢) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد ، صـ ٢٢١ ، ود. أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى والحضارة ، جـ ١ ، صـ ١٣٢.

(٣) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٧٠ ، وسيرة ابن هشام، جـ ٢ ، صـ ٩٢ - ٩٣.

(٤) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٧٠ - ٣٧١، وسيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، صـ ٩٣.





وكان القضية التى طرحها المؤتمرون للمناقشة هى:

ماذا يصنعون مع رسول الله ﷺ حتى يحولوا بينه وبين الهجرة؟

وطال نقاش الحاضرين واختلفت آراؤهم. فمنهم من رأى أن يُقَيَّدَ الرسول ﷺ ويُحْبسَ حتى يأتيه أجله. ولكن هذا الرأى لم يلق استحسانًا ؛ لأن الرسول لو قُيِّدَ وَحُبِسَ لخرج أمره من وراء الباب الذى أُغلق دونه إلى أصحابه فوثبوا على قريش فانتزعوه من أيديهم وغلبوهم على أمرهم. ولهذا اقترح بعضهم حلا بديلاً وهو أن تقوم قريش بنفى رسول الله ﷺ من مكة، ولا يهمهم بعد ذلك أين ذهب ولا حيث وقع. ولكن هذا الرأى وجد من يعترض عليه قائلا: «ألم تروا حُسْن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به؟! والله لو فعلتم ذلك ما أمنتُم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم فى بلادكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد.. أديرُوا فيه رأيًا غير هذا»(١).

وأخيرًا جاء اقتراح أبى جهل الذى لقى استحسان الجميع. قال أبو جهل: «أرى أن تأخذوا من كل قبيلة شابًّا فتى جليدًا نسيبًا وسيطًا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمَدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعَقْل (أى الدية) فعقلناه لهم»(٢) أى دفعنا لهم ديته. وهكذا تفرق القوم وهم مجمعون على رأى أبى جهل. وفى هذا نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾(٣) .

كان الرسول ﷺ فى تلك الفترة ينتظر إذن الله له بالهجرة إلى يثرب بعد أن هاجر معظم أصحابه إلى هناك. وقد أراد أبو بكر الهجرة واستأذن الرسول ﷺ فى ذلك غير مرة، فكان ﷺ يقول له: «لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحبًا» ،فطمع أبو بكر أن

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣٧١ ، وسيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، صـ ٩٤ .
(٢) سيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، صـ ٩٤ ـ ٩٥ .
(٣) سورة الأنفال: [٣٠].



يكون هو صاحبه[1] . وكان على بن أبى طـالب أيضًا من بين القليلـين الذين ظلوا مع الرسول ﷺ فى تلك المرحلة الأخيرة من مراحل إقامته بمكة.

فلما أذن الله لـرسوله ﷺ بالهجـرة ذهب إلى أبى بكر ليـخبره بذلك؛ فـقال له أبوبكر: الصحبة يا رسول الله! قال: الصحبـة. تقول عائشة: «فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى من الفرح»[2] !

ولقد اتخذ الرسول قرار الهجـرة ـ بعد أن أذن الله له بذلك ـ فى نفس الليلة التى بيتت فيها قريش قتله ﷺ، ولم تكن تعلم بقراره ذلك. وهكذا اجتمع ممثلوها وأحاطوا ببيتـه عندما جن الليل ليـثبوا عليه ويقتـلوه. وفى تلك الليلة أمر الرسـول على بن أبى طالب أن ينام فى فراشه ويتشح ببردته تضليـلا للمشركين، ثم خرج في سكون الليل ـ وقد أخذت القوم غشاوة فلم ينتبهوا إليه ـ وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[3] . وتوجه الرسول إلى بيت أبى بكر حيث كان أبو بكر فى انتظاره وقد أعـد راحلتين: إحداهما له، والأخرى للرسول، وخرج الاثنـان من باب صغـير خلفى فى بـيت أبى بكر، واستـأجروا رجلا يـقال له: عبدالله بن أريقط الدِّيلى (من كنانة بن خزيمة)[4] ليدلهما على الطريق . ولما كان من المتوقع أن يشتد طـلب المشركين للرسول ﷺ بعد أن يكتشفـوا عدم وجوده فى بيته، فقد قرر الرسول ﷺ الاخـتفاء مع أبى بكر فى غار ثور بمكة حـتى يخفّ عنه الطلب. وكانت مدة إقامته مع أبى بكر في هذا الغار ثلاثـة أيام اشتد خلالها طلب المشركين له حتى أحاطوا بالغار وكادوا يدخلونه لولا أن أبصروا عش حمامة على بابه فقالوا: ما فى هذا الغار أحد! وانصرفوا [5] .ويقال إن قريشًا خلال هذه الأيام الثلاثة بلغ بها اجتهادها فى طـلب الرسـول ﷺ أنـها جـاءت بقـائـفَيْـنِ يقـصـان الأثر، أحـدهـمـا كُـرْز بن علقمة الخزاعى، فاتبعا آثار الرسول ﷺ حتى انتهيا إلى غار ثور، فرأى كرز عليه نسج العنكبـوت، فقال: هاهنا انقطـع الأثر. وعندما همَّ بعضـهـم بدخول الغار قـال أمية بن خلف: «وما أرَبَكـم إذ الغار وعليه من نسْـج العنكبوت ما علـيه؟! والله إنى لأرى هذا

---

(١) سيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، صـ ٩٧ ، وتاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٦٩.

(٢) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣٧٨.

(٣) سورة يس : [١ ـ ٩].

(٤) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ ١ ، صـ ٢٦٠.

(٥) تاريخ اليعقوبى، جـ ٢ ، صـ ٣٩.



النَّسْجَ من قبل أن يولد محمد»! (١). وقد قال أبو بكر للرسول ﷺ خلال هذا الموقف العصيب: «لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا»! فقال ﷺ: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»!(٢) وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾(٣).

وهناك ثلاثة قاموا بأدوار بالغة الروعة والأهمية خلال إقامة الرسول ﷺ وأبي بكر بالغار، وهم: عبدالله بن أبي بكر، وأسماء بنت أبي بكر، وعامر بن فهيرة. فكانت مهمة عبدالله أن يسمع ما يقوله المشركون عنهما أثناء النهار ثم يأتيهما بما سمع ليلاً حتى يتصرفا في ضوء ذلك. وكانت مهمة أسماء أن تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يحتاجان إليه، ويروى أنها جاءتهما في اليوم الثالث بسُفْرتهما - أي بطعامهما - في جراب، ولكنها لم تجد ما تعلق به هذا الجراب في رحالهما، فحلَّتْ نطاقها - وهو حزام الوسط - فشقته اثنين، فربطت الجراب وعلقته بواحد، وانتطقت بالآخر؛ فلذلك سميت «ذات النطاقين» (٤). أما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر فكانت مهمته أن يرعى غنم مولاه بين أهل مكة نهارًا ثم يتبع بالغنم أثر عبدالله بن أبي بكر وأسماء في طريقهما من وإلى الغار حتى يعفِّي عليه فلا يجد المشركون دليلاً على مخبأ الرسول وأبي بكر(٥).

وكان الرسول ﷺ وأبو بكر قد اتفقا مع دليلهما عبدالله بن أريقط على أن يأتي غار ثور صبيحةَ اليوم الثالث من دخولهما في الغار ومعه الراحلتان اللتان أعدهما أبوبكر. وفي الساعة المتفق عليها انطلق الرسول وأبو بكر ومعهما الدليل وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وذلك بهدف خدمتهما وتقديم العون اللازم لهما أثناء تلك الرحلة الشاقة. وقد آثر الدليل أن يسلك بهما طرقًا غير مألوفة بالقرب من ساحل البحر الأحمر(٦).

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ ١، صـ ٢٦٠ - ٢٦١.
(٢) صحيح البخاري، جـ ٥، صـ ٤.
(٣) سورة التوبة: [٤٠].
(٤) صحيح البخاري، جـ ٥، صـ ٧٥، ٧٨. وانظر أيضًا: سيرة ابن هشام، جـ ٢، صـ ٩٩، وتاريخ الطبري، جـ ٢، صـ ٣٧٩.
(٥) سيرة ابن هشام، جـ ٢، صـ ٩٨، وتاريخ الطبري، جـ ٢، صـ ٣٧٩.
(٦) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، صـ ٢٢٦.



وفى تلك الأثناء كانت الحيلة قد أعيت قريشًا فى الاهتداء إلى موضع رسول الله ﷺ وعبثًا حاولوا قبل ذلك أن يظفروا من «على» بكلمة ترشد إليه. فيروى أنهم عندما سألوه: أين صاحبك؟ قال: «لا أدرى؛ أورَقيبًا كنت عليه؟! أمرتموه بالخروج فخرج!» فضربوه وحبسوه بعض الوقت ثم يئسوا منه فتركوه[١].

وعندما استنفدت قريش وسائل البحث عن رسول الله ﷺ جعلت لمن يأتى به حيًّا أو ميتًا مائة من الإبل، «ونادوا بذلك فى أسفل مكة وأعلاها»[٢]. فطمع في ذلك سُراقة بن مالك بن جُعْشم، فركب جواده منطلقًا نحو المدينة حتى دنا من رسول الله ﷺ والذين معه، فكبا به جواده عدة مرات قبل أن يدركهم، فتطير سراقة، ونادى رسول الله ﷺ معلنًا إسلامه وعارضًا عليه ما يستطيع من عون، فقال له ﷺ : «أَخْفِ عنا» أى لا تكشف أمرنا لقريش، فامتثل سراقة لهذا الأمر وأخذ يضلل المشركين «فكان أول النهار جاهدًا على نبى الله ﷺ ، وكان آخر النهار مسلحة له»[٣].

كانت محاولة سراقة نهاية المحاولات التى بذلتها قريش في سبيل إحباط هجرة الرسول ﷺ. وبعد فشل هذه المحاولة أصبح الطريق أمام الرسول آمنًا إلى يثرب، فوصل أولا إلى قباء، على مشارف يثرب، وكان ذلك يوم الإثنين فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول فى العام الثالث عشر للبعثة (سبتمبر ٦٢٢م) [٤]، وهناك أقام أربعة أيام حيث أسس مسجد قُباء، وهو أول مسجد بنى فى الإسلام، ويرى البعض أنه المقصود بقوله تعالى: ﴿ ... لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[٥]. وأثناء إقامة الرسول ﷺ وأبى بكر بقباء لحق بهما على بن أبى طالب، وذلك بعد أن أقام بمكة ثلاثة أيام عقب هجرة الرسول حتى يؤدى الودائع التى كانت عنده إلى الناس، وقد كان أهل مكة يؤثرون أن يودعوا ما يخشون عليه من نفائس ممتلكاتهم عند رسول الله ﷺ «وإنما كان يسمى الأمين»[٦].

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣٧٤.

(٢) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ ١ ، صـ ٢٦١.

(٣) صحيح البخارى، جـ ٥ ، صـ ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩.

(٤) السهيلى: الروض الأُنفُ ، جـ ٢ ، صـ ٣٣٠.

(٥) سورة التوبة : ١٠٨ . وانظر أيضًا: الروض الانف، جـ ٢ ، صـ ٣٣٢ ـ ٣٣٣ ، والكشاف للزمخشرى جـ ٢ ، صـ ٣١١.

(٦) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ ١ ، صـ ٢٦١ ـ ٢٦٢.



ثم توجه الجميع صوب يثرب، فدخلها رسول الله ﷺ ومن معه فى نفس اليوم الذى غادروا فيه قباء، وهو يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول. وقد أدركهم وقت صلاة الجمعة فى واد يقال له «وادى رانوناء» فصلاها رسول الله ﷺ بالمسلمين هناك؛ فهى أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بيثرب(١). ثم ركب ﷺ ناقته - وحوله أصحابه - وكلما مر بدار من دور الأنصار أخذوا بزمام ناقته ودَعَوْه إلى أن ينزل لديهم، فكان الرسول ﷺ يقول: «دعوها فإنها مأمورة؛ فإنما أنزل حيث أنزلنى الله». فلما انتهت إلى دار أبى أيوب الأنصارى (وهو خالد بن زيد بن كليب)(٢) بركت على الباب فقال: «هذا إن شاء الله المنزل»، فدخل بيت أبى أيوب حتى ابتنى مسجده ومساكنه(٣).

ولقد كان استقبال أهل يثرب لرسول الله ﷺ حافلا بكل مشاعر الحفاوة والإيمان؛ فبعد أن سمعوا بمخرجه من مكة أصبحوا يغدون كل غداة إلى الحَرَّة بظاهر المدينة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة(٤). وعندما قدم رسول الله ﷺ خرج الكل لاستقباله فى مشهد رائع(٥).

وأصبحت يثرب - بعد أن اتخذها الرسول ﷺ مقرًّا له ومركزًا للدعوة الإسلامية - تعرف باسم المدينة.

---

(١) سيرة ابن هشام. جـ٢، صـ ١١٢.

(٢) وهو من بنى مالك بن النجار من الخزرج، وقد شهد العقبة وبدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، ومات مجاهدًا سنة ٥٢ هـ فى جيش يزيد بن معاوية وهو يغزو الروم، ودفن بالقرب من القسطنطينية. انظر ترجمته فى أسد الغابة لابن الأثير، جـ ٢، صـ ٩٤ - ٩٦.

(٣) انظر حول ذلك: صحيح البخارى، جـ ٥، صـ ٧٨، وتاريخ الطبرى، جـ ٢، صـ ٣٩٦.

(٤) صحيح البخارى، جـ ٥، صـ ٧٧.

(٥) يذكر بعض المؤرخين أن أهل المدينة خرجوا لاستقبال الرسول ﷺ وهم ينشدون:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

وقيل إنهم أنشدوا هذا الشعر فى استقبال الرسول سنة ٩ هـ عند عودته من تبوك. «لأن ثنيات الوداع إنما هى من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ولا يمر بها إلا إذا توجَّه إلى الشام». زاد المعاد لابن القيم، جـ ٣، صـ ١٠.



أهم دروس الهجرة:

هذه هي قصة الهجرة بكل ما تحفل به من مواقف رائعة ومن دروس بالغة الدلالة:

١ - وأول ما يسترعي الانتباه في تلك القصة الخالدة هو أن دعوة الحق تؤتي ثمارها إذا لم يستسلم أصحابها لعوامل الخذلان. لقد ضرب محمد ﷺ مثلاً فذًا في الثبات على المبدأ والسعي نحو بلوغ الهدف مهما كلفه ذلك من طاقة. والهدف هنا هو أداء أمانة التبليغ عن الله عز وجل وإتاحة الفرصة أمام الجميع أن يعتنقوا دعوة الحق دون اضطهاد من أحد حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. وقد حدد الرسول ﷺ هذا الهدف تحديدًا حاسمًا في بداية الدعوة عندما قال لعمه أبي طالب: «لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته». وها هي تباشير تحقيق هذا الهدف تلوح من يثرب، وقد كانت الهجرة مفتاحًا عمليًا لتحقيقه، وتحمَّل محمد ﷺ كل مخاطرها وأهوالها راضيًا من أجل غايته الكبرى.

٢ - ومما يلفت النظر أيضًا في قصة الهجرة ويفيض بالعبرة البالغة أن الرسول ﷺ وأبا بكر لم يتركا الأمور للصدفة ولا لضربات الحظ بل قدَّرا لكل خطوة موضعها، وكانت الخطة التي رسماها لتنفيذ مشروع الهجرة غاية في الإحكام والدقة. لقد رأينا كيف ذهبا إلى غار ثور واختفيا به ثلاثة أيام حتى يخف عنهما الطلب، وكيف أمر الرسول ﷺ عليًا أن ينام في فراشه تضليلاً لقريش، وكيف كان عبد الله بن أبي بكر يسمع نهارًا ما يقوله كفار قريش عن الرسول وأبي بكر، ثم يأتيهما بخبر ذلك ليلاً حتى يعدّلا خطتهما في ضوء ذلك. ثم رأينا كيف كان عامر بن فهيرة يُعَفِّي أثر عبدالله وأسماء بالغنم الذي كان يرعاه لأبي بكر، ورأينا أيضًا كيف اختار الرسول ﷺ دليلاً حاذقًا للاهتداء به في الرحلة، وكيف سلك بهما ذلك الدليل طرقًا غير مطروقة. إن كل ذلك ليقدِّم أنصع دليل على أن التواكل ليس من منهاج الإسلام وأن على المسلم أن يبذل كل ما في وسعه من جهد بحثًا وتمحيصًا قبل أن يُقْدِم على اتخاذ خطوة ما، ثم عليه بعد ذلك أن يرضى بقدر الله. فإذا كان الرسول ﷺ - رغم منزلته من ربه - قد اتخذ كافة الأسباب، فجدير بالمسلمين جميعًا ألا يرسموا بتواكلهم صورة تسيء إلى الإسلام.

٣ - ثم إننا نقرأ في الهجرة دروسًا عن الفدائية والإيثار وروعة الوفاء الذي يزداد عمقًا بالإيمان الخالص فتصبح الحياة هينة رخيصة أمام متطلبات ذلك الوفاء. يروى بهذا الصدد أن أبا بكر عندما انتهى مع الرسول ﷺ إلى الغار قال: «مكانك يا رسول



الله حتى أستبرئ لك الغار» أى حتى أتأكد من براءته من الأذى؛ وذلك ضنا برسول الله ﷺ وحرصًا عليه. وقد كان أبو بكر يمشى ساعة أمام الرسول وساعة خلفه ، وهما متوجهان إلى الغار، فسأله الرسول ﷺ عن سبب ذلك فقال: «أذكر الطلب فأمشى خلفك، ثم أذكر الرَّصَدَ فأمشى بين يديك»(1) . هكذا كان أبو بكر فى وفائه وإيمانه مستعدًا أن يبذل نفسه دون رسول الله ﷺ . وقد قدم على بن أبى طالب أيضًا مثالا نادرًا للوفاء والتضحية فى ملحمة الهجرة وذلك حين نام مكان الرسول وهو يعلم حق العلم أنه قد يدفع حياته ثمنًا لذلك. كما قدم عبد الله بن أبى بكر وأسماء بنت أبى بكر وعامر بن فهيرة أمثلة رائعة جديرة بالإعجاب لعميق الإحساس بالمسئولية والارتفاع إلى مستوى الموقف، ولا غرو؛ فهذه كلها نفوس صاغها الدين الجديد فى قالب فذ فريد.

وهكذا استقر الرسول ﷺ وأصحابه من مسلمى مكة فى المدينة لتبدأ مرحلة أخرى من مراحل الكفاح فى سبيل تبليغ كلمة الله وإقامة دولة الإسلام.

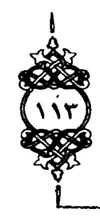
ولكن قبل أن نتحدث عن خطوات تكوين الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة نتوقف قليلا لنقدم نبذة موجزة عن:

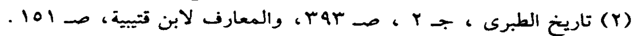
بداية التأريخ الهجرى:

المعروف أن المسلمين اتخذوا العام الذى هاجر فيه الرسول ﷺ إلى المدينة بداية التأريخ الهجرى الذى نعرفه اليوم. وقد ذكرنا أن الرسول ﷺ وصل إلى قباء فى الثانى عشر من ربيع الأول من العام الثالث عشر للبعثة (سبتمبر ٦٢٢م) . ولكن التأريخ الهجرى لم يبدأ فى ذلك اليوم بل بدأ قبل ذلك بشهرين واثنى عشر يومًا، أى فى بداية المحرم؛ لأن أول السنة المحرم(2). والجدير بالملاحظة أن المسلمين اتخذوا هجرة الرسول مبدأ للتاريخ الإسلامى بعد وفاة الرسول ﷺ فى أصح الأقوال؛ وذلك على يد الخليفة عمر بن الخطاب. ومما يروى فى سبب ذلك أن عمر رُفع إليه صك لرجل على آخر موعده شعبان. فقال عمر: أى شعبان؟ أشعبان هذه السنة أو السنة الماضية أو الآتية؟ ثم جمع الصحابة فاستشارهم فى وضع تأريخ للمسلمين. ومع ذلك فنحن نرى أن سبب وضع التأريخ الإسلامى لا يمكن أن ينحصر فى مثل هذه الحادثة المحددة، وإنما دعت إليه التطورات الهائلة فى الدولة الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب، وهى

(1) انظر حول ذلك. ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٣ ، صـ ١٧٨. والرَّصَدَ بفتحتين: القوم يرصدون ، كالحرس؛ يستوى فيه الواحد والجمع والمؤنث.

(2) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٣٩٣، والمعارف لابن قتيبة، صـ ١٥١.





التطورات التى كان من الضرورى أن يرتبط بها وضع تأريخ خاص بهذه الدولة الآخذة فى القوة والاتساع. وقد اختلفت آراء الصحابة حين استشارهم عمر فى وضع تأريخ للمسلمين ؛ فمنهم من اقترح أن يتبع المسلمون تأريخ الروم، ومنهم من اقترح تأريخ الفرس، ومنهم من رأى أن يكون مولد الرسول ﷺ مبدأ للتاريخ الإسلامى، ومنهم من رأى أن يكون مبعثه مبدأ لذلك ، ومنهم من رأى التأريخ بوفاته أو بهجرته . وبعد مناقشة كل هذه الآراء رأى عمر أن يبدأ التأريخ الإسلامى بهجرة الرسول ﷺ ؛ لأن الهجرة - على حد تعبير عمر - فرقت بين الحق والباطل؛ أو من الممكن أن نقول بتعبيرنا: إنها كانت بداية عملية لتكون الدولة الإسلامية وسحق نظام الوثنية. وقد اتفق المسلمون على التأريخ بالهجرة فى العام السابع عشر أو الثامن عشر من هجرة الرسول ﷺ[1].

المدينة والنشأة المبكرة للدولة الإسلامية:

تتكون الدولة - كما هو معروف - إذا تحققت عناصر ثلاثة هى الأرض والشعب والقيادة، أو الوطن والمواطن والحكومة. وإذا نظرنا إلى المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ والمسلمين إليها وجدنا هذه العناصر متحققة فيها. فهناك الأرض المتمثلة فى حدود المدينة، وهناك المجتمع المسلم الذى يهيمن على هذه الأرض وله الغلبة فيها، وهناك الزعامة أو القيادة المتمثلة فى الرسول ﷺ . وقيادة الرسول لهذا المجتمع قيادة دينية ودنيوية معًا، فمن المعلوم أن الإسلام نظام يشمل كل جوانب حياة المسلم. وليس من المتصوَّر - والأمر كذلك - أن تقتصر مهمة محمد ﷺ على تقرير الجوانب الروحية البحتة فى حياة المسلم بل إن هذه المهمة لتتسع لتغطى كل جوانب حياته؛ فهى إذن بالضرورة تغطى جوانب حياة المجتمع الإسلامى بأسره. وإذا كانت الدولة الإسلامية الأولى - أو نواة الدولة الإسلامية - قد تكونت فى المدينة بهجرة الرسول ﷺ إليها - كما وضحنا الآن - فإن التشريعات الإسلامية فى المدينة اتجهت لتقرير القواعد الأساسية التى يقوم عليها المجتمع الجديد فيما يتصل بشئون الحرب والسلم وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض والعلاقة المتبادلة بين الراعى والرعية وجباية الأموال من مصادرها وصرفها فى مصارفها،إلى غير ذلك من الأمور التى لم يكن لمعظمها مجال فى المجتمع الإسلامى المحدود فى مكة قبل أن تنشأ الدولة الإسلامية. ومن هنا اتجه

(١) انظر تفصيل ذلك فى تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣٨٨ - ٣٩٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير، جـ ٣ ، صـ ٢٠٤ - ٢٠٥.



الكثير من آيات القرآن الكريم التي نزلت بالمدينة إلى علاج هذه الجوانب، فى حين أن ما نزل من القرآن بمكة كان منصبًا فى جملته على تقرير أصول العقيدة الإسلامية وما يتعلق بالبعث والثواب والعقاب، وآيات الله الكبرى فى الكون وغير ذلك مما يتلاءم مع مجتمع تأصلت فيه الوثنية، فكان على الرسول ﷺ أن يخرجه من ظلام الشرك إلى نور الإيمان.

وهكذا أصبحت المهمة الأولى أمام الرسول ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة أن ينظم علاقات المجتمع فى الدولة الجديدة على أسس راسخة حتى يضمن تماسكه واستقراره فتنطلق دعوة الإسلام خارج هذا المجتمع لتشمل ما شاء الله من بقاء الأرض.

الخطوات التى اتخذها الرسول ﷺ لتوطيد قواعد الدولة الجديدة:

رغم أن الدولة الإسلامية نشأت بعد الهجرة إلى المدينة - كما أسفلنا - نظرًا لتحقق العناصر الضرورية لنشأتها من أرض وشعب وقيادة - فإن الرسول ﷺ قام باتخاذ عدد من الخطوات التى رأى فيها تعزيزًا لكيان هذه الدولة. ومن الممكن بلورة أهم هذه الخطوات فيما يأتى:

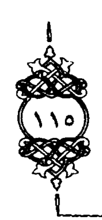
أولا: إصدار دستور المدينة:

كان من بين أهم ما بدأ به الرسول ﷺ حياته فى المدينة أن كتب كتابًا نظم فيه العلاقة بين المسلمين وغيرهم فى مجتمع المدينة، وأشار إلى هؤلاء جميعًا بأنهم «أهل هذه الصحيفة» أى هذا الكتاب الذى كتبه. وتُعدّ هذه الصحيفة بمثابة دستور الدولة الإسلامية الناشئة فى المدينة[1]. ومن هنا يطلق الكثير من الباحثين المحدثين على هذه الصحيفة - بحق - مصطلح «دستور المدينة» The Constitution of Madinah أو «ميثاق المدينة»[2] The Charter of Madinah.

---

(١) ارجع إلى نص هذه الصحيفة فى كتاب: الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة، للدكتور محمد حميد الله، صـ ١ - ٧.

(٢) انظر على سبيل المثال: M. Watt, Muhammad, Prophet and Statesman, P. 94; S. Ameer Ali, A Short History of the Saracens, P. 12. وانظر أيضًا: فقه الشورى والاستشارة للدكتور توفيق الشاوى صـ ٣٢٠، وفى النظام السياسى للدولة الإسلامية، للدكتور محمد سليم العوا، صـ ٥٠.



وقد كفلت هذه الصحيفة لليهود حرية الدين والعبادة وأمنتهم على أنفسهم وأموالهم، وأعطتهم حق المواطنة الكاملة فى هذه الدولة، فقد أعلنت أنهم «ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» «وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة» أى حارب أهل المدينة، وأن لهم «النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم» . وقد حدد الرسول ﷺ أيضًا فى هذه الصحيفة وضع غير المسلمين من عرب المدينة فجعل عليهم ألا يجيروا مشركى قريش ولا أموالهم ولا من ناصرهم. ثم أصدر ﷺ حكمًا عامًّا يشمل أهل الصحيفة، أى أهل المدينة، وذلك حين قال: «إنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ». فالواضح هنا أن الرسول ﷺ هو الرئيس الأعلى للمدينة بجميع طوائفها، بجانب قيادته الروحية للمجتمع الإسلامى فيها.

ثانيًا : عقد حلف التضامن والإخاء بين مسلمى المدينة:

ثم إن الرسول ﷺ رأى أن من أهم ما يلزم القيام به بعد الهجرة عَقْد حلف تعاون وتضامن بين مسلمى المدينة يهدف إلى تأكيد المفهوم الذى يغرسه الإسلام دائمًا فى أتباعه وهو «أنهم أمة واحدة دون الناس» كما عبّر الرسول ﷺ. وقد عُقد هذا الحلف فى دار أنس بن مالك وأصبح مسلمو المدينة على أساسه ملزمين بأن يكونوا يدًا واحدة على عدوهم وأن يتكافلوا فيما بينهم وينصف بعضهم بعضًا. وتعميقًا لمفهوم هذا الحلف آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ فيروى أنه قال لهم: «تآخوا فى الله أخوين أخوين» ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال: «هذا أخى» ،وآخى بين أبى بكر وخارجة بن زيد، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وبين عثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر، وبين أبى عبيدة وسعد بن معاذ، وبين عبد الرحمن ابن عوف وسعد بن الربيع، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وبين مصعب ابن عمير وأبى أيوب ، وبين أبى حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر، وبين سعيد بن زيد بَن عمرو بن نفيل وأُبىّ بن كعب، وبين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وهكذا فعل مع بقية أصحابه من المهاجرين والأنصار[1]. وقد جعل الرسول ﷺ لهذا الإخاء حكم إخاء الدم والنسب، فازدادت وحدة المسلمين عمقًا ورسوخًا.



(١) راجع تفاصيل ذلك فى سيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، صـ ١٢٤ ـ ١٢٦ . وقارن بما فى أنساب الأشراف للبلاذرى ، جـ ١ ، صـ ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

ثالثًا : بناء مسجد الرسول بالمدينة :

ذكرنا آنفًا أن الرسول ﷺ - بعد هجرته إلى المدينة - نزل دار أبى أيوب وأقام بها حتى ابتنى مسجده ومساكنه. ولا شك أن بناء المسجد لم يكن يعنى بالنسبة للرسول ﷺ والمسلمين مجرد تهيئة مكان للصلاة؛ بل كان يعنى - فضلا عن ذلك - إتاحة مقر لعقد الاجتماعات المهمة، وممارسة التعليم والتثقيف، والقضاء بين الناس، واستقبال السفراء والوفود، إلى غير ذلك من الأمور التى تتصل بإدارة شئون الدولة الجديدة. ومن أجل هذا كان بناء المسجد ضرورة ملحة بعد وصول الرسول ﷺ إلى المدينة. وقد بنى الرسول ﷺ مسجده فى الموضع الذى بركت فيه ناقته بجوار بيت أبى أيوب. وكان ﷺ قدوة لأصحابه من المهاجرين والأنصار أثناء العمل فى البناء، « وطفق ينقل معهم اللَّبن فى بنائه» كما يروى البخارى فى صحيحه؛ وكان يقول وهو ينقل اللَّبِن: «اللهم إن الأجر أجر الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرة»[1]. وقد اتسم مسجد الرسول ﷺ بالبساطة فقد بنى باللَّبن كما أشرنا، وكان سقفه من الجريد، وعمُده من جذوع النخل، وظل على بساطته تلك فى أيام أبي بكر وعمر[2].

***

بقيت نقطة ينبغى الحديث عنها هنا رغم أنها تبدو - من حيث الظاهر - بعيدة الصلة عما نحن فيه، وتلك هى دخول الرسول ﷺ بعائشة فى شوال أو ذى القعدة من العام الأول للهجرة، وكان قد عقد عليها بمكة قبل الهجرة بثلاث سنين بعد وفاة زوجته خديجة وعمرها عندئذ فى حدود سبع سنين[3]. والحق أن ارتباط الرسول ﷺ بعائشة لم يكن إلا صدى لارتباطه بأبيها أبى بكر الصديق وإلا توثيقًا وتعميقًا لتلك الصلة الرائعة التى ربطت بينه وبين ذلك الرجل الذى كان له نعم الرفيق والسند في كل المواقف. ومن المسلَّم به أن قضية السن لم يكن لها اعتبار كبير فى مثل هذا الأمر، فما تزوج الرسول ﷺ عائشة فى مثل تلك السن الصغيرة تطلعًا لأكثر مما أشرنا إليه. صحيح أن الرسول ﷺ كان يحب عائشة حبًّا عميقًا، ولكن ذلك - كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل « حب نشأ بعد الزواج لا حينه . . فليس مما يرضاه المنطق أن

---

(١) صحيح البخارى، جـ ٥ ، صـ ٧٨.

(٢) ولما جاء عثمان بنى جدرانه بالحجاة المنقوشة. وفى عهد الدولة الأموية أعاد الخليفة الوليد بن عبد الملك بناءه واستعان فى ذلك ببنائين أجانب وأدخل عليه كل مظاهر الأبهة والفخامة.

(٣) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٣٩٨ - ٣٩٩.



يكون قـد أحبها وهـي فى السن الصغـيرة» [1]هكـذا أراد الرسول ﷺ فـي بداية تـلك المرحلة «المدنيَّة» التى كانت الدولة الناشئة فيها فى حاجة إلى مزيد من الدعم أن يربط علاقته بأبى بكر برباط فوق رباط الصحبة ـ عـلى متانتها ـ وهو رباط المصاهرة، ولهذا آثر أن يعجل بإتمام زواجه من عائشـة. وقد كان أبو بكر من الرسول ﷺ بمنزلة وزيره الأول. وقد يجوز لنا هنا أن نستطرد قليـلاً فنذكر أن الرسول ﷺ لم يصنع هذا مع أبى بكر فقط بل صنع مثلـه أو شبيهه مع عمر وعثمان وعليّ فى فـترات وظروف مختلفة؛ فقد تزوج بحفصة بنت عمر في وقت لاحق. وغنى عن البيان أن عمر كان بمثابة وزيره الثانى. كما زوَّج عليًا بنته فاطمة، وزوَّج عـثمانَ بنته رقيَّة ، فلما مـاتت زوَّجه بنته أم كلثوم، وبهذا ربط الرسـول ﷺ بينه وبين هؤلاء الخاصة من أصحابـه ـ الذين أصبحوا فيما بعد خلفاءه الراشدين ـ برباط المصاهرة تزويجًا أو تزوجًا.

---

(1) حياة محمد ، صـ ٣٣٠.



الفصل السابع

تطور العلاقة بين المسلمين ومشركى قريش منذ الهجرة حتى صلح الحديبية (١ـ٦هـ)

رأينا قبل ذلك كيف استبد الهلع بقريش عندما هاجر معظم أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة، ورأينا كيف بذل زعماء قريش قصاراهم؟ لكى يحولوا بين رسول الله وبين أن يلحق بأصحابه فى المدينة ؛ لأنه إن لحق بهم هناك أصبح المسلمون في موئلهم الجديد مصدر خطر على نظامهم كله. أما وقد لحق الرسول بأصحابه فى المدينة ـ رغم كيد أعدائه ـ فإن مشركى قريش ما كان ليقر لهم قرار وهم يرون قوة المسلمين تنبثق ودولتهم تبرز إلى حيز الوجود. فلم يكن غريبًا أن يتوقع المسلمون من هؤلاء أن يكيدوا لهم وأن يطاردوهم محاولين تطويقهم ثم القضاء عليهم. وإذا كانت قريش قد طاردتهم وهم فى مُهَاجَرِهم بالحبشة خارج شبه الجزيرة العربية كلها، فهل من المستغرب أن تطاردهم وهم يعيشون بالقرب منها بالمدينة فى شمال الحجاز؟ ولا شك أن هذه الظروف كان لها تأثيرها الواضح فى أن تجعل مشركى قريش يحقدون على مسلمى المدينة ويتربصون بهم؛ وأن تجعل مسلمى المدينة ـ على الجانب الآخر ـ يسيئون الظن بهؤلاء ويتوقعون الأذى منهم. وهذا هو المناخ الذى اشتعلت فيه المواجهات الأولى بين قريش والمسلمين بعد الهجرة، وقد تمثل أبرز هذه المواجهات فى موقعة بدر وأحد والخندق.

على أن أول هذه المواجهات الأساسية ـ وهى موقعة بدر ـ سبقتها مناوشات بين الجانبين ينبغى أن نتحدث عنها الآن باختصار.

المناوشات الأولى بين المسلمين ومشركي قريش:

بعد الهجرة إلى المدينة نزل إذن الله للمسلمين بالقتال في قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ...**﴾[١]. يقول الزمخشري في تفسيره للآية الأولى: «المعنى: أذن لهم في القتال . . . (بأنهم ظلموا) أي بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول ﷺ: كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدًا، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم: اصبروا فإني لم أومر بالقتال، حتى هاجر فأنزلت هذه الآية، وهي أول آية أذن فيها بالقتال»[٢]. فالواضح إذن - في ضوء ذلك - أن الله أذن للمسلمين بالقتال بعد الهجرة ردًا على ما لحق بهم من أذى واضطهاد وعلى ما اضطروا إليه من تركهم لديارهم وأموالهم، فليس من العدوان أن ينتصفوا لأنفسهم وأن يستردوا بعض ما سلبه هؤلاء منهم. لقد وجد المسلمون أنفسهم في حالة حرب مع مشركي قريش ومن المشروع في حالة الحرب أن يبذل كل طرف قُصَاراه لإضعاف الطرف الآخر. ولما كان اقتصاد مكة ورخاؤها قائما على التجارة - كما شرحنا قبل ذلك - فقد كانت أشد الضربات إيلامًا للمكيين هي تلك التي تعرقل طريق تجارتهم. ومن هنا رأى الرسول ﷺ في تلك المرحلة أن يشن بعض الحملات على قوافل المكيين التجارية. ولم تكن تلك الحملات عنده وسيلة لإيجاد مورد رزق، بل كانت استردادًا لبعض حق، ثم إنها لم تكن بدءًا بعدوان، بل كانت ردًا على عدوان سابق، كما كانت وسيلة مشروعة من وسائل إضعاف الخصم في قانون الحروب. ومن ثم لا يسوغ القول بأن هذه الأنشطة القتالية للرسول ﷺ كانت تمثل حربًا هجومية يمكن أن تخلع عليه صفة العدوان كما يدعي بعض المستشرقين[٣].

وقد كانت أولى الحملات في هذا الصدد هي السرية التي تألفت من ثلاثين رجلا بقيادة حمزة بن عبد المطلب، وتوجهت لتعترض قافلة تجارية لقريش جاءت من الشام تريد مكة. وتروي مصادرنا «أن حمزة لقي أبا جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فحجز

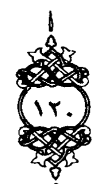
---

(١) سورة الحج: ٣٩ - ٤٠.

(٢) الكشاف، جـ ٣، صـ ١٦٠.

(3)M. Watt, Muhammad , Prophet and Statesman , P. 105.

ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى: د. عبد الرحمن سالم: قراءة نقدية في كتابات مونتجومري وات في السيرة النبوية. المرجع السابق، صـ ١١٦ - ١٢٤.



بينهم مَجْدىّ بن عمرو الجهنى فافترقوا، ولم يكن بينهم قتال»[1]. ويذكر الواقدى أن هذه السرية كانت فى رمضان من السنة الأولى للهجرة (مارس ٦٢٣م)[2] ، فى حين يرى ابن إسحاق أنها كانت فى الشهور الأولى من السنة الثانية[3].

وفى نفس تلك الفترة، أو فى شهر شوال من السنة الأولى للهجرة، أرسل رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف فى ستين أو ثمانين رجلا من المهاجرين، فالتقوا مع مشركى قريش بقيادة أبى سفيان بن حرب طبقًا لرواية الواقدى[4]، أو عكرمة بن أبى جهل طبقًا لرواية ابن إسحاق[5]، وذلك عند ماء يقال له «أحياء» بالحجاز. وكان المشركون مائتى رجل. ولم يكن بين الفريقين قتال، «إلا أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رُمِى به فى الإسلام»[6].

وفى صفر من السنة الثانية للهجرة (أغسطس ٦٢٣م) خرج رسول الله ﷺ بنفسه معترضًا لعير قريش فيما عُرف بغزوة «الأبواء» لأنه ﷺ سار إلى مكان يقال له : «الأبواء» بين مكة والمدينة[7]، فلم يلق قريشًا. «وفى هذه الغزاة وادع بنى ضمرة من كنانة على ألا يُكثروا عليه ولا يعينوا عليه أحدًا»[8].

وفى ربيع الأول من نفس السنة أيضًا خرج الرسول ﷺ فى مائتين من أصحابه يعترض عيرًا لقريش كان فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير. وقد بلغ رسول الله ﷺ مكانًا يقال له «بُوَاطَ» ومن ثَمَّ عُرفت هذه الغزوة بغزوة بواط. ثم رجع الرسول ﷺ «ولم يلق كيدًا» أى لم تحدث مواجهة بين الطرفين[9].

وفى ربيع الأول أيضًا من السنة نفسها خرج رسول الله ﷺ فى بعض أصحابه من المهاجرين يطلب كُرْز بن جابر الفِهْرى الذى كان قد أغار على سَرْح المدينة، أى إبلها

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٤٠٢ . وانظر أيضًا: المغازى للواقدى ، جـ ١ ، صـ ٩ .

(٢) المغازى ، جـ ١ ، صـ ٩ .

(٣) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٤٠٣ .

(٤) المغازى ، جـ ١ ، صـ ١٠ .

(٥) سيرة ابن هشام ، جـ ٢ ، صـ ٢٢٥ .

(٦) نفس المصدر ، صـ ٢٢٤ .

(٧) وبالأبواء قبر آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ .

(٨) المغازى للواقدى ، جـ ١ ، صـ ١٢

(٩) نفس المرجع والصفحة، وبواط جبل من جبال جهينة بناحية رضوى . ياقوت: معجم البلدان، جـ ١ ، صـ ٥٩٦ .



وأغنامها. وقد طلبه رسول الله ﷺ حتى بلغ بدرًا فلم يدركه؛ ولهذا سميت هذه الغزوة بغزوة بدر الأولى(١).

وفى نفس العام أيضًا خرج رسول الله ﷺ فى مائة وخمسين أو مائتين من المهاجرين يعترض عيرًا لقريش متوجهة إلى الشام، حتى بلغ العُشَيرة بينبع. ومن هنا عرفت هذه الغزوة بغزوة ذات العشيرة (أو ذى العشيرة) . وقد أقام فيها جمادى الأولى، وبعضًا من جمادى الثانية. ولم تحدث مواجهة بين الطرفين فى هذه الغزوة، وقد وادع فيها الرسول ﷺ بنى مُدْلج وحلفاءهم من بنى ضَمرة(٢).

ونحن نلاحظ فى كل هذه السرايا والغزوات أنها لم تسفر عن قتال ولا حصل المسلمون فيها على غنائم من مشركى قريش،ولكن قريشًا أصبحت على يقين من أن المسلمين أصبحوا قوة لا يستهان بها. ثم إننا نلاحظ أيضًا أن كل المشتركين فيها من صحابة رسول الله ﷺ كانوا من المهاجرين، و«لم يبعث رسول الله ﷺ أحدًا من الأنصار مبعثًا حتى غزا بهم بدرًا؛ وذلك لأنهم شرطوا له أن يمنعوه فى دارهم» كما يقول الواقدى(٣).

سرية نخلة ومقدمات غزوة بدر:

فى رجب من السنة الثانية للهجرة (يناير ٦٢٤م) بعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش فى ثمانية رجال من المهاجرين، أو فى اثنى عشر رجلا طبقًا لبعض الروايات، وكتب له كتابًا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيُمْضى ما به دون أن يستكره أحدًا من أصحابه. فلما سار عبدالله يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت فى كتابى هذا فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصَّدْ بها قريشًا وتَعلَّمْ لنا من أخبارهم»(٤). فمضى عبدالله مع أصحابه ولم يتخلف أحد منهم. فلما كان ببعض الطريق تخلف عنه اثنان من أصحابه وهما سعد بن أبى وقاص، وعتبة بن غزوان، وذلك أن بعيرًا لهما كانا يتبادلان الركوب عليه ضل منهما فذهبا يبحثان عنه، واستمر عبدالله بن جحش فى مسيره ومعه بقية أصحابه حتى نزل «نخلة» التى أشار إليها كتاب الرسول

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٤٠٧ ، والبداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ، صـ ٢٤٦.

(٢) المغازى للواقدى، جـ ١ ، صـ ١٢ - ١٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير، جـ ٣ ، صـ ٢٤٦.

(٣) المغازى ، جـ ١ ، صـ ١١.

(٤) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٤١١.

ﷺ، فمرت به عير تحمل تجارة لقريش، وكـان فى العير من مشركى قريش عمرو بن الحضرمى، وعثمان بن عبدالله بن المغـيرة المخزومى وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان المخزومى. وكان ذلك فى آخر يوم من رجب (أحد الأشهر الحرم)[1]. فأجمع أصحاب عبدالله علـى قتالهم بعد تـردد، فرمى واحد منهم - وهو واقـد بن عبد الله التمـيمى - عمرو بـن الحضرمى بسـهم فقتله. وأسـر المسلمون عـثمان بن عبـد الله والحكم بن كيسـان. أما نوفل بن عبدالله فـقد هرب وأعجز القوم. واسـتولى المسلمون عـلى عير قريش وقدموا بها مع الأسيرين على رسول الله ﷺ بالمدينة[2].

ولكن الرسول لم يطبْ نفـسًا بما فعل عبدالله وأصحابه، بـل عنَّفهم وقال لهم: «ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحـرام» ورفض أن يقبل شيئًا من الغنيمة[3]. فـ «سُقط فى أيدى القوم وظنوا أن قد هلكوا»[4]. وكثر تعنيف المسلمـين لعبدالله وأصحابه، وكان مما قالوه لهم: «صنعتم ما لم تؤمروا به وقاتلتم فى الشهر الحرام ولم تؤمروا بقتال»[5]! وأصبحـت «المدينة تفور فَـوْرَ المرجل»[6]! واستـغلت قريش هـذا الموقف فـحاولت التشنيع على المسلمين، وقالت فى ذلك: «قد اسـتحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال». وحاول بعض المسلمين ممن كانوا بمكة أن يـردوا على ذلك فقالوا: «إنما أصـابوا ما أصابوا فى شعبـان». وانتهزت اليهود الفرصة لمحاولة الإيقاع بين قريش والمسلمين[7].

فلما كـثر كلام الناس في ذلك أنزل الله عـز وجل قوله: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ... ﴾[8].

---

(١) والأشهر الحـُرُم أربعة: ثلاثة سَرْد (أى متتابعة) ، وواحد فـرد؛ فالسَّرْدُ ذو القعـدة وذو الحجة والمحرم ، والفرد رجب.

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٤١٢ .

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) الواقدى: المغازى، جـ ١ ، صـ ١٦ .

(٥) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٤١٢ .

(٦) المغازى ، جـ ١ ، صـ ١٦ .

(٧) تاريخ الطبرى ، جـ ٢ ، صـ ٤١٢ .

(٨) سورة البقرة : [٢١٧].



وهنا اطمأن رسول الله ﷺ والمسلمون، وقبض الرسول ﷺ العير والأسيرين، ثم أرسلت قريش فى فداء الأسيرين، فرفض رسول الله ﷺ ذلك حتى يقدم سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان، وقال لرسل قريش: «إنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم» . ثم قدم سعد وعتبة، فأطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين ، وهما عثمان بن عبدالله ، والحكم بن كيسان. وقد أسلم الحكم بن كيسان فحسن إسلامه، وظل عند رسول الله ﷺ حتى استشهد يوم بئر معونة[١] .

وهكذا أصبح الموقف بين قريش والمسلمين قابلا للانفجار فى أية لحظة. وجدير بنا هنا أن نسجل ما يرويه الطبرى من أن «الذى هاج وقعة بدر وسائر الحروب التى كانت بين رسول الله ﷺ وبين مشركى قريش ما كان مِن قَتْل واقد بن عبدالله التميمى عمرو بن الحضرمى»[٢] .

موقعة بدر: (١٧ من رمضان ٢ هـ - مارس ٦٢٤م):

كانت سرية عبدالله بن جحش سرية استطلاع تهدف فى الأساس إلى معرفة أخبار قريش والوقوف على تحركاتهم. ويتضح ذلك من قول الرسول ﷺ لعبدالله حين أمره أن ينزل بنخلة: «تَرَصَّدْ بها قريشًا وتعلَّمْ لنا من أخبارهم». ويروى الواقدى بهذا الصدد أن الرسول ما أمر عبدالله بن جحش وأصحابه بالقتال فى الشهر الحرام، ولا غير الشهر الحرام، «إنما أمرهم أن يتحسسوا أخبار قريش»[٣]. وقد تطور الأمر إلى ما تطور إليه من قتل عمرو بن الحضرمى وما ترتب عليه من توتر الموقف على الجانبين.

وبعد هذه السرية بقليل خرج أبو سفيان بن حرب يقود قافلة تجارية ضخمة إلى الشام مكونة من ألف بعير، وكان معه فى هذه الرحلة ما يقرب من سبعين رجلا من قبائل قريش كلها. فلما ترامت الأنباء إلى رسول الله ﷺ بخروج أبي سفيان ورفاقه إلى الشام أمر أصحابه أن يخرجوا معه لينتظروهم فى طريق العودة حتى يستردوا جانبًا من حقوقهم التى اغتصبها كفار قريش. فخرج الرسول وأصحابه «لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه لا يرونها إلا غنيمة لهم»[٤]. أى أنهم لم يخرجوا لقتال قريش ولا توقعوا

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٤١٣ .
(٢) نفس المصدر ، صـ ٤٢٠ .
(٣) المغازى ، جـ ١ ، صـ ١٦ .
(٤) نفس المصدر ، صـ ٢٧ ، وتاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٤٢١ .



أن يكون هناك قتال. وقد عسكر المسلمون عند بدر، وهى بئر عُرفت باسمها الجهة الواقعة فيها.

سمع أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ وأصحابه فسلك طريق الساحل وتحاشى المرور ببدر. وفى نفس الوقت أرسل إلى قريش يخبرهم أن محمدًا وأصحابه معترضون لهم، ويطلب منهم أن يجيروا تجارتهم[1]. ولا شك أن أصداء «نخلة» كانت ما زالت تتردد فى مكة وتحدث تأثيراتها، ومن هنا نفر عدد كبير من قريش يريدون قتال المسلمين ولم تكن بالمسلمين نية قتال كما أشرنا، بل ولم يعلموا بخروج قريش لقتالهم حتى أخبرهم بذلك بعض عبيد قريش. فقد سألهم رسول الله ﷺ عن عدد من خرج من قريش لحماية تجارتهم ولقتال المسلمين، فقالوا: لا ندرى كم هم. فسألهم عن عدد الجزائر (أى الإبل) التى ينحرونها فى اليوم، فذكروا له أنها تتراوح بين التسعة والعشرة، فقال ﷺ : «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف»[2]. وقد كان عددهم فعلا خمسين وتسعمائة[3].

خرجت قريش بجيشها فى أحسن هيئة، فقد تقدموا وهم يتقاذفون بالحراب، ومعهم القيان والدفوف، وكان فيهم مائة فارس، كلهم دارع ، وكان فى الرجالة دروع سوى ذلك، وكانت الإبل سبعمائة بعير. وطفق أبو جهل يقول: أيظن محمد أن يصيب منا ما أصاب بنخلة وأصحابُه؟ سيعلم أنمنع عيرنا أم لا؟! [4]

كان الهدف الأساسى - إذن - من خروج قريش بهذا الجيش الضخم هو حماية عير أبى سفيان حتى لا تتكرر تجربة نخلة. ولكن أبا سفيان سلك طريق الساحل واستطاع النجاة بقافلته التجارية من هجوم المسلمين، فلم تعد لهذا الجيش من مهمة، أو هذا ما كان ينبغى أن يكون. ومن هنا انقسم مشركو قريش على أنفسهم فريقين: فريق كان يرى عودة الجيش إلى مكة وعدم لقاء المسلمين، وعلى رأس هذا الفريق

---

(١) كان رسول أبى سفيان إلى قريس بمكة هو ضمضم بن عمرو الكنانى، وقد أمره أبو سفيان أن يخبر قريشًا أن محمدًا قد عرض لعيرهم، وأمره أن يجدِّع بعيره (أى يقطع أنفه) إذا دخل ، ويحول رحله ويشق قميصه من قُبُله ودبره ويصيح: الغوث! الغوث! . انظر: الواقدى المغازى جـ١ صـ ٢٨، والبلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ١ ، صـ ٢٩٠.

(٢) الواقدى: المغازى، جـ١ ، صـ ٥٢ - ٥٣.

(٣) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٤٢٣، وأنساب الأشراف للبلاذرى، جـ١ ، صـ ٢٩٠.

(٤) الواقدى: المغازى، جـ١ ، صـ ٣٩، والبلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ١، صـ ٢٩٠ - ٢٩١.



أبوسفيان وأمية بن خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وحكيم بن حزام، وأبو البخترى. وقد عبّر أبو سفيان عن رأى هذا الفريق حين أرسل إلى قريش بعد أن نجا بقافلته يقول لهم: «قد نجت عيركم، فلا تُجْزروا أنفسكم أهل يثرب، فلا حاجة لكم فيما وراء ذلك، إنما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم وقد نجاها الله»(١). أما الفريق الثانى فقد كان يرى ضرورة مواجهة المسلمين حتى بعد نجاة العير حتى يلقنوهم درسًا لا ينسونه. وعلى رأس هذا الفريق أبو جهل وعقبة بن أبى مُعَيط والنضر بن الحارث بن كَلَدة(٢). وقد قال هؤلاء فى الرد على أبى سفيان: «والله لا نطلب أثرًا بعد عين، ولندعَنّ محمد وصَبَاَتَه لا يعودون إلى التعرض لأموالنا وتجاراتنا بعدها»(٣). ويروى عن أبى جهل أنه قال بهذه المناسبة: «لا والله، لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا - وكان بدر موسمًا من مواسم الجاهلية يجتمع بها العرب ، لها بها سوق - تسمع بنا العرب وبمسيرنا، فنقيم على بدر ننحر الجُزُر، ونطعم الطعام، ونشرب الخمر، وتعزف القيان علينا؛ فلن تزال العرب تهابنا أبدًا»(٤). وقد أخذ هذا الفريق على عاتقه تحريض غير الراغبين فى القتال حتى يخرجوا. ومما يروى بهذا الصدد أن أمية بن خلف رفض فى البداية أن يخرج مع قريش إلى بدر «فأتاه عقبة بن أبى معيط، وأبو جهل، ومع عقبة مجمرة بها بخور، ومع أبى جهل مكْحلة ومرْود، فأدخلها عقبة تحته وقال: تبخر فإنما أنت امرأة! وقال أبو جهل: اكتحل فإنما أنت امرأة! قال أمية: ابتاعوا لى أفضل بعير فى الوادى..»(٥). وقد كانت الغلبة فى النهاية للفريق المتشدد: فريق أبى جهل ، وعلا نداء الحرب فوق كل نداء.

أما وقد خرجت قريش بهذه الصورة للقاء المسلمين فلم يكن أمام المسلمين بد من المواجهة.لقد خرج المسلمون فى البداية لاعتراض عير قريش فإذا بقريش تخرج بشوكتها وجموعها للقضاء عليهم. وقد كان ذلك اختبارًا حقيقيًا ليقين المسلمين وثقتهم في نصر الله مهما اجتمعت عليهم حشود الباطل. وقد نزل من القرآن في ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧﴾(٦).

---

(١) الواقدى: المغازى، جـ١ ، صـ ٤٣. ومعنى قوله : «لا تُجْزِروا أنفسكم أهل يثرب»، لا تعرضوا أنفسكم للذبح على يد أهل يثرب.

(٢) النضر بن الحارث بن كَلَدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَىّ.

(٣) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ١ ، صـ ٢٩١.

(٤) المغازى، جـ١ ، صـ ٤٣ ـ ٤٤.

(٥) المصدر السابق، صـ ٣٦. وانظر أيضًا: أنساب الأشراف ، جـ١ ، صـ ٢٩١.

(٦) سورة الأنفال: [٧].



ولعلنا ندرك دقة موقف المسلمين حين نعلم أن عددهم كان ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا فى مقابل ما يقرب من ألف من المشركين، فانعدم توازن القوى بين الجانبين.
وكان أول ما فعله الرسول ﷺ والمسلمون أنهم سبقوا المشركين إلى الماء فاحتلوه، وصفَّ عليه الرسول ﷺ أصحابه وأشرف بنفسه على ضبطهم وإنزالهم منازلهم للقتال، وبات يدعو ربه ويقول: «اللهم إنك أنزلت علىَّ الكتاب، وأمرتنى بالقتال، ووعدتنى إحدى الطائفتين، وأنت لا تخلف الميعاد. اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذِّب رسولك. اللهم نَصْرَك الذى وعدتنى! اللهم أحْنِهم الغداة»(1)! وقد كان اللواء الأعظم للرسول يومئذ - وهو لواء المهاجرين - مع مصعب بن عمير، ولواء الخزرج مع الحُباب بن المنذر، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ(2).

كانت هذه هى المواجهة الحقيقية الأولى فى الميدان بين جند الإيمان وجند الشرك، وعلى نتيجتها يتوقف مستقبل الإسلام، ولم يكن ما سبقها إلا مناوشات محدودة النطاق والتأثير. وقد أراد ﷺ فى هذا الموقف أن يبلو أصحابه ويعرف ما عندهم من عزم وإصرار على قبول التحدى، فاستشارهم. فقام أبو بكر فقال وأحسن، ثم قام عمر فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول الله ! امض لأمر الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. والذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك»(3) فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير.

ولكن الرسول ﷺ قال بعد هذا الموقف: «أشيروا علىَّ أيها الناس»وإنما كان يريد الأنصار. فقد أعطى الأنصار مواثيقهم للرسول ﷺ فى بيعة العقبة الثانية على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأولادهم، ومن الممكن أن يفسر ذلك على أنه التزام بتقديم الحماية والنصرة داخل المدينة لا خارجها. وهذه المواجهة فى بدر كانت خارج المدينة . فهل سيقدِّم الأنصار العون الضرورى فيها أو سيحجمون فى

---

(1) الواقدى : المغازى ، جـ1 ، صـ 59.
(2) نفس المصدر، صـ 58.
(3) نفس المصدر، صـ 48. و«بَرْك الغماد» موضع باليمن كما جاء فى لسان العرب لابن منظور، مادة «برك» صـ 268 . وقيل: إن المقصود ببرك الغماد الحبشة. انظر تاريخ الطبرى ، جـ2 ، صـ 434.



ضوء التفسير الحرفي لبيعة العقبة الثانية؟ هذا ما أراد أن يستوثق منه الرسول ﷺ عندئذ. وقد فطن سعد بن معاذ سيد الأوس لمراد الرسول فقال له: كأنك يا رسول الله تريدنا! قال: أجل. فقال: «.. إنا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن كل ما جئت به حق، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامض يا نبى الله، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما بقى منا رجل؛ وصِل من شئت، واقطع من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحبّ إلينا مما تركت. والذى نفسى بيده ما سلكت هذا الطريق قط، وما لى بها من علم، وما نكره أن يلقانا عدونا غداً، إنا لصبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك»[1].

كان هذا الموقف أحد المواقف الخالدة للأنصار، وقد أضافوا به جوهرة غالية إلى رصيدهم الذي لا ينفد فى الإخلاص للإسلام ونصرة رسوله. ولم يكن سعد بن معاذ فى كلامه هذا معبراً عن رأيه أو عن رأى قومه من الأوس فقط، بل كان معبراً عن جمهور الأنصار، ولهذا قال للرسول قبل بداية حديثه: «أنا أجيب عن الأنصار»[2].

اطمأنت نفس الرسول ﷺ لما سمع من كلام سعد، فأثنى عليه وقال له خيراً، ثم قال لأصحابه: «سيروا على بركة الله؛ فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين. والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم»[3].

ذكرنا منذ قليل أن المسلمين سبقوا قريشاً إلى الماء فسيطروا عليه وحالوا بينه وبين المشركين. وكان ذلك بناء على مشورة الحباب بن المنذر بن الجموح (من أعيان الخزرج)، فقد لاحظ الحباب أن المسلمين ينزلون بعيداً عن الماء فقال للرسول ﷺ: يا رسول الله؟ أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس لك بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نعوِّر ما سواه من القُلُب (أى نردم غيرها من الآبار)، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل الناس فنشرب ولا يشربون. فقال الرسول ﷺ: لقد أشرت بالرأى[4]. فكان الحباب يُدْعى «ذا الرأى»[5].

---

(١) الواقدى: المغازى، جـ١، صـ ٤٨ - ٤٩.
(٢) نفس المصدر، صـ ٤٨.
(٣) نفس المصدر، صـ ٤٩.
(٤) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٤٤٠.
(٥) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ١، صـ ٢٩٣.



وبينما كان المشركون فى منازل القتال يستعدون لمواجهة المسلمين أرسلوا رجلا منهم يقال له عُمير بن وهب الجُمَحى إلى معسكر المسلمين ليطوف حوله ويقدر عدد المقاتلين به، ففعل عمير ثم عاد إلى قريش وأخبرهم أن المسلمين فى حدود الثلاثمائة ومعهم سبعون بعيرًا وفَرَسان، ثم ذكر لهم أن هؤلاء القوم «ليست لهم مَنَعة ولا ملجأ إلا سيوفهم! ألا ترونهم خُرْسًا لا يتكلمون، يتلمَّظون تلمُّظَ الأفاعى» ! ثم أضاف : «والله ما أرى أن يقتل منهم رجل حتى يقتل منا رجلا، فإذا أصابوا منكم مثل عددهم فما خيرٌ فى العيش بعد ذلك! فارتأوا رأيكم»(٢).

وهنا حاول حكيم بن حزام وعتبة بن ربيعة أن يثبِّطَا قريشًا عن القتال: فمما قاله عتبة: «إنى أرى قومًا مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير! يا قوم، اعصبوها اليوم برأسى، وقولوا: جَبُن عتبة بن ربيعة! ولقد علمتم أنى لست بأجبنكم». وهنا احتد أبو جهل على عتبة وقال له: لقد ملئت رئتك وجوفك رعبًا! فقال عتبة: ستعلم اليوم أينا أجبن!(٣) وهكذا فشلت محاولات عتبة وحكيم بن حزام بسبب عناد أبى جهل وأمثاله. بل إن أبا جهل ذهب خطوة أبعد حين أرسل إلى عامر بن الحضرمى - وهو أخو عمرو ابن الحضرمى الذى قتله المسلمون فى سرية نخلة - وأغراه أن يصرخ مطالبًا بثأر أخيه؛ فقام عامر واكتشف للناس ، ثم حثا على رأسه التراب، ثم صرخ: واعمراه! فلاحت نُذُر الحرب واجتمع أمر قريش على ما هم عليه من الشر وأضاعوا الرأى الذى دعاهم إليه عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام(٤).

وقد نشبت الحرب حين شدَّ عامر بن الحضرمى بفرسه على جيش المسلمين(٥). ولم يجد عتبة وحكيم بن حزام مناصًا أن يشتركا مع قومهما فى القتال. وبدأ عتبة بدعوة المسلمين إلى المبارزة، وكان معه ابنه الوليد وأخوه شيبة، فبرز له فتية من الأنصار فلم يُرضه ذلك وطلب أن يبرز إليهم أكفاؤهم من مسلمى قريش، فأمر الرسول عمه حمزة وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف وعلى بن أبى طالب أن يبرزوا

---

(١) الواقدى : المغازى، جـ١ ، صـ ٦٢ . وانظر أيضًا: تاريخ الطبرى، جـ ٢ ، صـ ٤٤٢ .
(٢) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٤٢٥ - ٤٢٦ .
(٣) الواقدى : المغازى ، جـ١ ، صـ ٦٤ - ٦٥ .
(٤) نفس المصدر ، صـ ٦٥ .



إليهم. فلما عرفهم القوم قالوا: أكفاء كرام! فبارز حمزة عتبة بن ربيعة فقتله، وبارز عليٌّ الوليد بن عتبة فقتله، وبارز عبيدة بن الحارث - وكان أسنَّ الثلاثة - شيبة بن ربيعة فجرح كل واحد منهما صاحبه، فأسرع حمزة وعليٌّ إلى شيبة فقتلاه، واحتملا عبيدة ابن الحارث وهو ينزف دمًا، فكان من بين شهداء بدر[1].

أشعلت هذه البداية المظفرة حماسة المسلمين، فحمى الوطيس، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد»[2]. وأخذ ﷺ يحرض أصحابه على القتال بقوله: «والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة». فقال أحد الصحابة - وهو عمير بن الحُمام، وكانت فى يده تمرات يأكلهن - : بخ بخ!! فما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء! ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وهو ينشد:

ركضًا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد وكُلُّ زادٍ عرضة النفاد
غير التقى والبِرِّ والرشاد[3]

وظل يقاتل القوم حتى استشهد. وهكذا صدقت كلمة عتبة بن ربيعة لقريش: «إنى أرى قومًا مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير»!

وانجلى اليوم وقد قُتل من صناديد قريش سبعون أو يزيد، وأُسِر منهم سبعون أو يزيد[4]. أما المسلمون فقد استشهد منهم أربعة عشر[5]. وكان بين مَن قتل من رءوس الكفر يومئذ أبو جهل، وأمية بن خلف، وأبو البخترى بن هاشم، وزمعة بن الأسود، وعامر بن الحضرمى، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وحنظلة بن أبى سفيان بن حرب، وطعيمة بن عدى. والجدير بالاعتبار أن بلال بن رباح كان وراء مقتل أمية بن خلف.

---

(١) المغازى، جـ١، صـ ٦٩، وأنساب الأشراف للبلاذرى، جـ١ صـ١٥٢. ويذكر ابن هشام جـ٢، صـ ٢٦٥) والطبرى (جـ٢ صـ ٤٤٥) رواية عن ابن إسحاق أن قاتل شيبة هو حمزة، وأن عتبة بارز عبيدة بن الحارث فجرح كل منهما صاحبه، ثم كرَّ حمزة وعلى على عتبة فقتلاه.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ٢، صـ ٢٦٧.

(٣) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٤٤٨، والبداية والنهاية لابن كثير، جـ٣، صـ ٢٧٦ - ٢٧٧.

(٤) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ١، صـ ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٥) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٤٧٧.





وهذا أمية - كما ذكرنا - كان يسوم بلالا سوء العذاب ليكفر بمحمد ﷺ قبل الهجرة. وقد وقع أمية وابنه عليّ أسيرين في يد عبد الرحمن بن عوف يوم بدر. ثم إن بلالا لمح أمية يمشى مع عبد الرحمن فصرخ بأعلى صوته: «يا معشر الأنصار، أمية بن خلف رأس الكفر، لا نجوتُ إن نجا!» فأسرع إليه من سَمَع نداءه من المسلمين «كأنهم عُوذٌ حنَّت إلى أولادها»[1]. وأحاطوا بأمية وابنه فقتلوهما[2]. أما أبو جهل فقد استطاع أحد الأنصار - وهو معاذ بن عمرو بن الجموح - أن يصل إليه رغم الحراسة المشددة التى أحاطه بها المشركون، ثم ضربه بسيفه ضربة أطاحت بقدمه. ولكن معاذًا جرح جرحًا بالغًا بسيف عكرمة بن أبى جهل. ثم استطاع أنصارى آخر وهو معوِّذ بن عفراء (معوذ بن الحارث بن رفاعة) أن يضرب أبا جهل ضربة تركته وبه رمق. فلما انجلت المعركة وانكشف المشركون أمر الرسول ﷺ بأبى جهل أن يلتمس فى القتلى، فذهب عبد الله بن مسعود يبحث عنه فوجده لم يفارق الحياة بعد. فوضع ابن مسعود رجله على عنقه وقال: الحمد لله الذى أخزاك! فقال: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رُوَيْعِيَ الغنم! لمن الدائرة؟ قال ابن مسعود: لله ولرسوله. ثم قال له: إنى قاتلك يا أبا جهل! قال: لستَ بأول عبد قتل سيده! أما إن أشد ما لقيته اليوم فى نفسى لَقَتْلُك إياى وألاَّ يكون وَلِى قتلى رجل من الأحلاف أو من المطيِّبين! فأجهز عليه ابن مسعود واحتز رأسه[3].

أما أسرى بدر فقد كان فيهم العباس بن عبد المطلب، وعقيل بن أبى طالب، ونوفل بن الحارث[4]، وسهيل بن عمرو، وأبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول

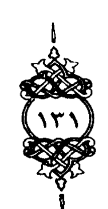
---

(١) العائذ: كل أنثى إذا وضعت مدة سبعة أيام؛ لأن ولدها يعوذ بها، والجمع عُوذ. انظر مادة «عوذ» فى لسان العرب، جـ ٤، صـ ٣١٦٣.

(٢) الواقدى: المغازى، جـ١، صـ ٨٣.

(٣) الواقدى: المغازى، جـ١، صـ ٨٩ - ٩٠، والبلاذرى: أنساب الأشراف، جـ١، صـ ٢٩٩.

(٤) فَدَى العباس بن عبد المطلب يوم بدر نفسه وابنى أخويه: عُقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وكان العباس ممن خرج مع المشركين إلى بدر مكرها، وكذلك عقيل ابن أبى طالب، وقد قال الرسول ﷺ يوم بدر: «من لقى العباس فلا يقتله فإنه أُخرج مكرهًا». وقيل إن العباس أسلم قبل الهجرة وكان يكتم إسلامه. أما عقيل فقد أتى المدينة مسلمًا قبل الحديبية. أما نوفل فقيل إنه أسلم بعد فداء العباس له فى بدر، وقيل إنه أسلم وهاجر أيام الخندق. راجع تراجم العباس وعقيل ونوفل فى: أسد الغابة لابن الأثير، جـ٣، صـ ١٦٤، جـ٤، صـ ٦٣، جـ٥، صـ ٣٦٩.



الله ﷺ(١)، وعقبة بن أبى معيط الذى كان يؤذى رسول الله ﷺ بمكة، والنضر بن الحارث. وقد أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أبى معيط، والنضر بن الحارث. وقد كان هذان الرجلان ـ كما يقول ابن كثير ـ «من شر عباد الله وأكثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا وهجاءً للإسلام وأهله»(٢). وقد استشار الرسول ﷺ أبا بكر وعمر بشأن جمهور الأسرى، : هل يقبل منهم الفداء أو يأمر بضرب أعناقهم؟ فأشار أبو بكر بقبول الفداء، وقال فى ذلك: «يا نبى الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضدا».
أما عمر فأشار بضرب أعناقهم وقال فى تبريره لذلك: «حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للكفار؛ هؤلاء صناديدهم وقادتهم وأئمتهم». فقبل رسول الله ﷺ رأى أبى بكر.
ثم نزل القرآن الكريم مؤيدًا لرأى عمر ومعاتبًا لرسول الله ﷺ على قبول الفداء؛ وذلك فى قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾**﴾(٣). ويروى أنه عندما نزلت هاتان الآيتان جلس الرسول وأبو بكر يبكيان تأثرًا من هذا العتاب، فدخل عليهما عمر وهما كذلك فقال: «يا رسول الله! أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيتُ، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما»! فأخبره ﷺ بما نزل من القرآن من عتاب فى فداء الأسرى، وقال له: «لقد عرض علىَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة»، مشيرًا إلى شجرة قريبة(٤). ومن المناسب أن نشير هنا إلى موقف لسعد بن معاذ شبيه بموقف عمر، فعندما دارت الدائرة على المشركين أثناء معركة بدر أقبل المسلمون على الكفار يأسرونهم، فرأى رسول الله ﷺ الكراهية فى وجه سعد لما يصنع الناس، فقال له: «لكأنك يا سعد تكره ما يصنع الناس»! فقال سعد: «أجل ـ والله ـ يا رسول الله ؛ كانت أول وقعة أوقعها الله

---

(١) فرَّق الشرك بن أبى العاص بن الربيع وزوجته زينب، ولما اعتنق أبو العاص الإسلام سنة ست من الهجرة رد رسول الله ﷺ إليه زينب بنكاح جديد. البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ١ ، صـ ٣٩٩.

(٢) البداية والنهاية ، جـ٣ ، صـ ٣٠٦.

(٣) سورة الأنفال : [٦٧ ـ ٦٨] ، و ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ : أى لولا حكم منه سبق إثباته فى اللوح المحفوظ، وهو أنه لا يعاقب أحدًا بخطأ غير مقصود، وكان هذا خطأ فى الاجتهاد. الكشاف للزمخشرى، جـ٢ ، صـ ٢٣٧.

(٤) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٤٧٥.





بالمشركين، فكان الإثخان فى القتل أعجب إلىَّ (أو أحبَّ إلىَّ) من استبقاء الرجال»[1].

وعندما اشتد عود الإسلام أباح الله للمسلمين أن يأسروا أعداءهم وأن يقبلوا الفداء منهم.

***

هذا هو يوم بدر الذى يسمى «يوم الفرقان»[2] لأنه كان فارقًا بين الحق والباطل. وهناك إجماع من المؤرخين على أن تاريخ هذا اليوم ـ أو تلك المعركة ـ هو رمضان من السنة الثانية للهجرة، ولكنهم يختلفون حول تحديد هذا اليوم. على أن الرواية التى يقبلها معظم المؤرخين هى أن تلك المعركة كانت يوم الجمعة فى السابع عشر من شهر رمضان [3].

أهم نتائج غزوة بدر:

تمثل غزوة بدر نقطة تحول أساسية فى تاريخ المسلمين، وقد كانت لهذه الغزوة نتائج بارزة لعل أهمها ما يأتى:

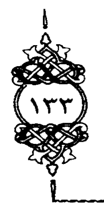
أولاً : كان لانتصار المسلمين فى غزوة بدر صدى هائل لا فى المدينة أو مكة وحدهما بل فى الجزيرة العربية كلها. فقبل سنوات ثلاث أو أربع كان الرسول ﷺ فى مكة يعرض نفسه على قبائل العرب فى المواسم ملتمسًا أن ينصروه ويمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه، ولم تكن للمسلمين دار آمنة ولا كان لأتباعه بصفة عامة شوكة ومنعة. ثم هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وكان الطرفان: المسلمون والمشركون، فى حالة ترقب، ثم جاءت غزوة بدر لتؤكد للجميع أن المسلمين أصبحوا قوة مرهوبة الجانب لا مطمع فيها لطامع. وهكذا كان لغزوة بدر الفضل فى ترسيخ أقدام الإسلام فى شبه الجزيرة العربية وفى تعزيز الثقة لدى المسلمين فى نصر الله سبحانه، وخاصة بعد أن رأوا رأى العين أن العدد القليل المتسلح بالإيمان قادر على أن يهزم أضعافه من عبيد الدنيا وعبدة الطاغوت.

---

(١) نفس المصدر، صـ ٤٤٩.

(٢) فى قوله تعالى: ﴿...إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ...﴾. سورة الأنفال [٤١]، فالمقصود بيوم الفرقان هنا يوم بدر، والجمعان هما الفريقان من المسلمين والكافرين. الزمخشرى: الكشاف جـ ٢ صـ ٢٢٣.

(٣) سيرة ابن هشام، جـ ٢، صـ ٢٦٦، تاريخ الطبرى جـ ٢، صـ ٤٤٦، تاريخ اليعقوبى، جـ٢، صـ ٤٥، عيون التواريخ لابن شاكر الكتبى، جـ١، صـ١١١.



ثانيًا : كان لانتصار بدر أيضًا أثر جاوز توطيد مكانة المسلمين فى شبه الجزيرة العربية إلى نشر كلمة الإسلام. فلا شك أن هذا الدين الذى نجح أتباعه فى قهر قريش بجموعها وخيلائها رغم قلة عددهم لجدير بأن يثير فضول الكثير من العرب ممن سمعوا بهذا النصر، وجدير بأن يجعلهم يحاولون الوقوف على ما فيه من دعوة وتوجيه؛ وكان ذلك مقدمة طبيعية أمام الكثيرين للانضواء تحت لوائه.

ثالثًا : مما لا ينكر أن انتصار المسلمين فى بدر كان لطمة قاسية لقريش زلزلت كيانها وأفقدتها الثقة فى نفسها والقدرة على التوازن. لقد قتل الكثير من رؤوس الكفر فى هذه الغزوة من صناديد قريش كأبى جهل، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط وغيرهم. بل إن أبا لهب الذى لم يشترك فى المعركة مات كمدًا بعدها ببضعة أيام. فليس من المستغرب - إذن - أن نرى قريشًا بعد بدر لا تقوى على مواجهة المسلمين بمفردها بل تحاول أن تستنصر عليهم سواها من قبائل العرب أو حتى اليهود، وما ذلك إلا اتقاء لتلك القوة الإسلامية المتنامية فى المدينة.

رابعًا : بعد انتصار المسلمين فى بدر - وبسبب هذا الانتصار - بدأ يهود المدينة يُظْهِرون بعض ما كانوا يخفونه تجاه المسلمين من حسد وضغينة، بل يروى أن يهود بنى قينقاع قالوا للرسول ﷺ حين عرض عليهم الإسلام بعد بدر: « يا محمد،إنك ترى أنا كقومك! لا يغرنَّك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة! إنا والله لئن حاربتنا لتعلمَنَّ أنا نحن الناس»![1] وسوف يكون للرسول ﷺ موقف من يهود المدينة بصفة عامة سنتحدث عنه فى موضعه.

فى أعقاب بدر:

لم يكن من السهل على قريش أن تتقبل هزيمتها فى بدر وأن تنسى ما لحقها من مهانة على أيدى المسلمين. ولهذا يروى أن أبا سفيان نهى قريشًا أن تبكى على قتلاهم حتى يدركوا ثأرهم من المسلمين، ونذر ألا يمسّ رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا[2]، ولم تكن امرأته هند بنت عتبة بن ربيعة بأقل منه فى التعبير عن إصرارها على الثأر؛ فيروى عنها أنها قالت: «الدُّهن علىَّ حرام إن دخل رأسى حتى نغزو محمدًا،

(١) تاريخ الطبرى : جـ ٢ ، صـ ٤٧٩.
(٢) الواقدى: المغازى، جـ١ ، صـ ١٢١.





والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبى بكـيت! ولكن لا يُذْهبه إلا أن أرى ثأرى بعينى مِن قتَلة الأحبة»! [١].

فى هذا الجـو المفعم بروح الثـأر من جانب قريش خـرج أبو سفيان فـى مائتى راكب، وقيل فـى أربعين راكبًا، يريد المـدينة ، والتقى بأحـد رؤساء اليهـود بها وهو سلاَّم بن مِشْكَم ليتعرف منه على أخبار النبى ﷺ والمسلمين[٢] . وقد تمكن أبو سفيان ورجاله ـ أثناء خروجـهم هذا ـ من قتل رجل أنصارى وأجير له كانـا يعملان فى حرث لهذا الأنصارى بالمدينـة، كما أحرقوا بيتين بالمدينة وبعض النـخيل هناك، ثم انصرفوا هاربين. وعندمـا انتهى خبر ذلك إلى رسـول الله ﷺ خرج فى طلبهم حتـى بلغ مكانًا يقال له: «قَرْقَرة الكُدْر» فـلم يدركهم، وكان أبو سفيان ورجاله أثناء هروبـهم يتخففون فيُلْقُون أكثر ما مـعهم من جُرُب السويق[٣]. وقد استولى المسلـمون على ذلك فعرفت هذه الغزوة بـ «غزوة السويق» وكانت فى ذى الحجة من السنة الثانية للهجرة[٤].

وقد كـان الرسول ﷺ يتحـين الفرصة لـتأديب قريش عـلى ما صنعت، فـعلم بخروج عير لقريـش فى تجارة إلى الشام، وكان على العير صفـوان بن أمية بن خلف، ومعه عبدالله بن أبـى ربيعة، وحويطب بن عبد العزى وآخرون مـن أعيان قريش. وقد سلكت العير إلى الشام طريقًا غير مـألوف هو طريق العراق، خوفًا من تكرار ما حدث فى بدر. وهنا ندب الرسول زيد بن حارثة فى مائة راكب لمهاجمة هذه العير، فاستطاع زيد أن يدركـها عنـد مـاء مـن مياه نجـد يقال له: «القَرَدة، ومـن ثم عُرفت هذه السرية بـ «سرية القَرَدة» وقد استولى زيد على العير ومـا فيها ولكنه لم يتمكن من أعيان القوم الذين أعجـزوه هربًا، ومع ذلك فقـد أسر رجلا أو رجلين مـمن كانوا مع العـير. وقد حدثت هذه السرية فى جمادى الآخرة فـى السنة الثالثة للهجرة[٥]. ولم تمر عليها غير بضعـة أشهر حـتى كانت غزوة أحـد بكل ما لهـا من أهميـة فى تاريخ العلاقـات بين المسلمين ومشركى قريش.

---

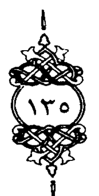
(١) نفس المصدر ، صـ ١٢٤ .

(٢) الواقدى : المغازى ، جـ١ ، صـ ١٨١ .

(٣) السويق طعام يتخذ من دقيق القمح والشعير.

(٤) خرج الرسول ﷺ من المدينة يوم الأحد فى الخامس مـن ذى الحجة وغاب عن المدينة خمسة أيام. المغازى للواقدى، جـ١ ، صـ ١٨١ .

(٥) لمزيـد من التفاصـيل ارجع إلى: الواقدى: الـمغازى، جـ١ ، صـ ١٩٧ ـ ١٩٨ ، وسـيرة ابن هشام، جـ٢ صـ ٤٢٩ ـ ٤٣٠ ، وتاريخ الطبرى ، جـ٢ ، صـ ٤٩٢ ـ ٤٩٣ .



غزوة أحد : (شوال ٣هـ - مارس ٦٢٥م):

لم يكن ما حدث من مناوشات بسيطة بين المكيين والمسلمين فى أعقاب بدر ليشفى رغبة قريش فى الثأر من الرسول ﷺ وأصحابه، ومن هنا مشى بعض أعيان قريش من أمثال عبدالله بن أبى ربيعة المخزومى، وعكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية، والحارث بن هشام وغيرهم ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فجاءوا أبا سفيان بن حرب فقالوا له: «يا أبا سفيان»، انظر هذه العير التى قدمت بها، فاحتبسْها؛ فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش[1]، وهم طيبو الأنفس، يجهزون بهذه العير جيشًا إلى محمد، وقد ترى من قتل من آبائنا وأبنائنا وعشائرنا»! فقال أبو سفيان: «وقد طابت أنفس قريش بذلك»؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معى، فأنا والله الموتور الثائر! قد قُتل ابنى حنظلة ببدر وأشراف قومى»[2]. وكانت العير ألف بعير، وكان المال خمسين ألف دينار[3].

بعد أن أجمعت قريش أمرها على قتال المسلمين رأت أن تستعين فى ذلك بمن استطاعت أن تضمه إلى صفوفها من الأحابيش[4] ومن عبد مناة بن كنانة وثقيف[5]، فاجتمع لقريش ثلاثة آلاف رجل، من بينهم مائتا فارس وسبعمائة دارع، وفى الجيش ثلاثة آلاف بعير[6].

تولى القيادة العامة لجيش المشركين أبو سفيان بن حرب الذى خرجت معه امرأتاه هند بنت عتبة بن ربيعة، وأميمة بنت سعد بن وهب، كما خرج آخرون من المشركين بنسائهم التماسًا للغضب والحمية وتجنبًا للفرار[7]. وكان على ميمنة الجيش خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلى الخيل صفوان بن أمية

---

(١) اللطيمة: يقصد بها هنا العير بما تحمله من السلع التجارية.

(٢) الواقدى: المغازى، جـ١ ، صـ ١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) الأحابيش هم بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمة، وقد اجتمعوا عند جبل بأسفل مكة يقال له حُبْشِيّ فحالفوا قريشًا وتحالفوا بالله إنا ليدٌ على غيرنا ما سجا ليل ووضح نهار وما أرسى حُبْشِيٌ مكانه، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل. انظر مادة (حَبَش) فى لسان العرب لابن منظور، جـ٢ ، صـ ٧٥٤.

(٥) المغازى للواقدى ، جـ١ ، صـ ٢٠٠ - ٢٠١ ، وسيرة ابن هشام ، جـ٣ ، صـ ٤.

(٦) المغازى ، جـ١ ، صـ ٢٠٣.

(٧) نفس المصدر ، جـ١ ، صـ ٢٠٢ - ٢٠٣ ، والأغانى للأصفهانى . جـ ١٥ ، صـ ١٨١.



(ويقال عمرو بن العاص) وعلى الرماة عبدالله بن أبى ربيعة، وكانوا مائة رام. وكان يحمل لواءهم طلحة بن أبى طلحة من بنى عبد الدار[1].

أبلغ العباس بن عبد المطلب رسول الله ﷺ بتحرك جيش قريش وبعدده وعدته فى كتاب أرسله إليه من مكة مع رجل من بنى غفار[2]. فجمع الرسول أصحابه واستشارهم فى الإجراء الذى ينبغى أن يتخذه لمواجهة هذا الموقف: فهو إما أن يخرج بأصحابه من المدينة للقاء العدو، وإما أن يتحصن المسلمون داخلها فإن حاول العدو اقتحامها قاتلوه فيها. وكان الخيار الثانى هو الأمثل عنده؛ وقال وهو يعرض وجهة نظره: «إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعوهم حيث نزلوا؛ فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوها علينا قاتلناهم فيها»[3].

ولكن جمهور المسلمين آثروا الخروج من المدينة للقاء العدو؛ وذلك لأنهم رأوا أن بقاءهم داخل المدينة ربما تفسره قريش على أنه جبن ونكوص عن القتال، وهم في الوقت نفسه قد أنفوا أن يسمحوا لقريش بانتهاك حرمة المدينة. وقد أفاض الصحابة فى الدفاع عن وجهة نظرهم هذه أمام الرسول ﷺ. فمما قاله إياس بن أوس الأنصارى فى ذلك: «... يا رسول الله، لا أحب أن ترجع قريش إلى قومها فيقولون: حصرنا محمدًا فى صياصى يثرب وآطامها! فيكون هذا جرأة لقريش، وقد وطئوا سعفنا، فإذا لم نذب عن عرضنا لم نزرع، وقد كنا يا رسول الله فى جاهليتنا والعرب يأتوننا ولا يطمعون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيافنا حتى نذبّهم عنا، فنحن اليوم أحقُّ إذ أيَّدنا الله بك وعرفنا مصيرنا لا نحصر أنفسنا فى بيوتنا». وقال حمزة بن عبد المطلب: «والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعامًا حتى أجالدهم بسيفى خارجًا من المدينة»![4] وهكذا لم يجد رسول الله ﷺ بدًّا من النزول على رأى جمهور أصحابه، إعمالا لمبدأ الشورى الذى أمره الله باتباعه؛ فخرج فى ألف من أصحابه. ثم تراجع عبدالله بن أبىّ بن سَلول، وعاد بثلث الناس حين كان ببعض الطريق، وذلك لغضبه من استجابة رسول الله ﷺ لرأى الأغلبية، ولم تفلح محاولات بعض الصحابة فى حث عبد الله بن أُبىّ ورجاله على المضى مع الرسول ﷺ لحرب المشركين[5].

---

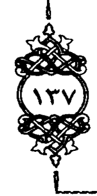
(١) نفس المصدر، جـ١ ، صـ ٢٢٠.

(٢) نفس المصدر جـ١ ، صـ ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٣) سيرة ابن هشام ، جـ ٣ ، صـ٧.

(٤) لمزيد من التفصيل ارجع إلى الواقدى فى المغازى ، جـ١ ، صـ ٢١٠ ـ ٢١٣.

(٥) المغازى للواقدى ، جـ١ ، صـ٢١٩، وسيرة ابن هشام ، جـ٣ صـ ٨ . والأغانى للأصفهانى ، جـ١٥ ، صـ ١٨٣.



ومضى رسول الله ﷺ بمن بقى من أصحابه، وكانوا سبعمائة، حتى نزل بجوار جبل أحد، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وأخذ ينظم جيشه، فجعل فرقة الرماة خمسين رجلاً، وأمَّر عليهم عبدالله بن جبير، واختار «تل عينين» جنوبى أحد ليكون مركزًا له[1]، وقسَّم جيشه إلى ميمنة وميسرة، ودفع لواءه الأعظم إلى مصعب بن عمير، ودفع لواء الأوس إلى أُسَيْد بن حُضَير ، ولواء الخزرج إلى سعد بن عبادة (أو الحباب ابن المنذر) [2] . وكان فى جيش المسلمين فَرَسانِ ومَائة دارع[3].

ونظرًا لكثافة خيل المشركين فى «أحد» وجَّه الرسول ﷺ اهتمامًا خاصًا لجماعة الرماة إدراكًا منه لخطورة دورهم فى دفع الخيل عن معسكر المسلمين؛ ومن هنا أصدر ﷺ تعليماته الحاسمة للرماة بألا يبرحوا أماكنهم مهما كانت تطورات المعركة. ومما قاله فى ذلك: «احموا لنا ظهورنا، فإنا نخاف أن نؤتى من ورائنا. والزموا مكانكم لا تبرحوا منه. وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم. وإن رأيتمونا نُقْتَل فَلا تعينونا ولا تدفعوا عنا! اللهم إنى أشهدك عليهم! وارشقوا خيلهم بالنَّبْل فإن الخيل لا تقدم على النَّبْل»[4].

وبدأت المعركة حين صاح طلحة بن أبى طلحة العبدرى ـ حامل لواء المشركين ـ فى وجه المسلمين قائلا: من يبارز؟ فبرز له على بن أبى طالب فضربه بسيفه فصرعه[5]. ثم احتدم القتال. وأخذت نساء قريش ـ بزعامة هند بنت عتبة ـ يضربن بالدفوف وينشدن إلهابًا لحماسة المشركين:

---

(١) المغازى، جـ١ ، صـ ٢١٩ . وانظر أيضًا: أطلس التاريخ الإسلامى للدكتور حسين مؤنس ، صـ ١٠٢ .

(٢) المغازى ، جـ١ ، صـ ٢٢٥ . وانظر أيضًا: أنساب الأشراف للبلاذرى، جـ١ ، صـ ٣١٦ ـ ٣١٧ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف، جـ١ ، صـ ٣١٦. أما الفرسان فقد كان أحدهما لرسول الله ﷺ، والآخر لأبى بردة بن نيار الحارثى. الأغانى للأصفهانى، جـ ١٥ ، صـ١٨٣، والطبرى جـ٢ ، صـ٥٠٥ .

(٤) المغازى، جـ١ ، صـ ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٥) نفس المصدر، صـ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ . وطلحة العبدرى هو طلحة بن أبى طلحة عبدالله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار. انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، صـ ١٢٧ .



نحن بنـــات طـــارقْ نمشى عـلى النمارقْ

إن تُقْبِلـــوا نـــعانـقْ أو تُدْبـــروا نفـــارقْ

فـراق غيـــر وامـــقْ(١)

وكان الرسـول ﷺ إذا سمع ذلك منهـن قال: «اللهم إنى بك أجـول وأصول، وفيك أقاتل، حسبى الله ونعم الوكيل»(٢).

وسارت المعركة فى بـدايتها فى صالح المسلمين تمـامًا، وأبدى أصحاب رسول الله ﷺ من صور البطولة ما يسجله التـاريخ بالإجلال والإعجاب. ومن ذلك ما يروى من أن الرسول قـال لأصحابه فى بداية الـمعركة وهو ممـسك بسيفه: «مـن يأخذ هذا السيف بحقه؟» فقام إليه أبو دُجانة سِـمَاك بن خَرَشَة فقال: «وما حقه يا رسول الله؟»، قال: «أن تضرب به العدو حتى ينحنى»! فقال أبو دجانة: «أنا آخذه بحقه يا رسول الله» فأعطاه الرسول إياه، فاعـتصب أبو دجانة بعصابة له حمراء كـان من عادته أن يعتصب بها عند القتال، ثم مشى بين الصفوف يـتبختر بسيف رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «إنها لمشية يـبغضها الله إلا فى مثل هذا المـوطن». وعندما احتدم القتـال كان أبو دجانة لا يلقى أحدًا إلا قتله، ولكنه رفض أن يقتل امرأة كانت تقاتل فى صفوف المشركين، فلما سئل فى ذلك قال: أكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة(٣)!

وتوالت بطـولات المسلمـين، وشد الزبيـر بن العوام والمـقداد بن عمـرو على المشركين فهزماهم، وعندما رأى خالد بن الوليد هزيمة قريش أراد أن يضعضع صفوف

---

(١) البـلاذرى: أنسـاب الأشـراف، جـ١، صـ ٣١٧. و«نحن بـنات طـارق»: أى نحن بـنات الكواكب، لـرفعتهـا وأنها لا تنال. قال تـعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣)**﴾ [**الطارق**: ٢، ٣]، ويقال إن امرأتيـن من نساء المشركين همـا رملة بنت طارق، وأم حكيم بنت طـارق قالتا ذلك، وقال النسـاء معهما. وكانـت امرأة من بنى شيبان قـالت فى أحد الأيام التى دارت بين بكر وتغلب:

إن تُقْبِلـــوا نعانقْ ونفرش النمارقْ

أو تدبـروا نفارق فراق غيـر وامقْ

فحاكت نساء قريش فى «أحد» قولها. نفس المصدر والصفحة.

(٢) نفس المرجع والصفحة.

(٣) سيرة ابن هشام، جـ٣، صـ ١٤. وقارن بما فى تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٥١٠ ـ ٥١١.



المسلمين فحمل عليهم فى بعض فرسان المشركين فرمته الرماة فانقمع[1]. وأصبحت هزيمة المشركين النهائية أمام المسلمين أمرًا وشيكًا. وهنا حدث من التطورات ما قلب موازين المعركة، وأحال نصر المسلمين إلى هزيمة.

فقد ذكرنا منذ قليل أن الرسول ﷺ أوصى الرماة ألا يبرحوا أماكنهم مهما كانت التطورات. بل إن الرسول ﷺ قال مؤكدًا توجيهاته لهم: «اللهم إنى أشهدك عليهم»! ولكن معظم الرماة نسوا هذه التوجيهات عندما رأوا الهزيمة تحل بالمشركين ونظروا إلى رسول الله ﷺ والمسلمين وهم فى جوف معسكر قريش يجمعون الغنائم، فصاحوا: الغنيمة! الغنيمة! وتركوا مواقعهم[2]. وعبثًا حاول أميرهم عبدالله بن جبير أن يذكّرهم بأمر رسول الله ﷺ «فلم يبق من الرماة مع أميرهم عبدالله بن جبير إلا نُفَيْرٌ ما يبلغون العشرة»[3]. وانتهز خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما من فرسان المشركين هذه الفرصة السانحة، فحملوا على رماة المسلمين فقتلوهم، واستشهد فى تلك الحملة عبدالله بن جبير[4].

وهكذا انكشف ظهر المسلمين أمام عدوهم، فدخل فرسان المشركين عسكر المسلمين دون أن يجدوا من يتصدى لهم؛ «قد ضُيِّعت الثغورُ التى كان بها الرماة»! ومن ثم دخَل المشركون بخيولهم «على قوم غارِّين آمنين، فوضعوا فيهم السيف فقتلوا فيهم قتلا ذريعًا، وتفرق المسلمون فى كل وجه»[5].

وفى غمرة هذه الفوضى والاضطراب حمل رجل من المشركين يقال له «ابن قميئة الليثى» على مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين فقتله وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش يقول لهم: قتلت محمدًا[6]. وسرت إشاعة قتل رسول الله ﷺ بين صفوف المسلمين فزلزلوا زلزالا شديدًا، وولى كثير منهم الأدبار وهم يقولون: «يا قوم إن محمدًا قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم»! وهنا صاح أنس ابن النضر فى المسلمين: «يا قوم، إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل؛

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٥١٠.
(٢) ابن القيم: زاد المعاد، جـ٢، صـ ٩٣.
(٣) الواقدى: المغازى، جـ١، صـ ٢٣٠.
(٤) نفس المصدر، صـ ٢٣٢.
(٥) نفس المصدر، صـ ٢٣١.
(٦) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٥١٦.





فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ. اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء»! ثم قاتل حتى استشهد[1]، فوجد المسلمون به سبعين ضربة وطعنة، فقال عمر بن الخطاب: «إنى لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده يوم القيامة»[2].

ثم علم المسلمون أن الرسول ﷺ لم يقتل فاطمأنت نفوسهم وثاب إليه الكثيرون منهم وأحاطوا به وكونوا من أجسادهم ترسًا يصد عنه هجمة قريش. ومما يروى فى هذا الصدد أن أبا دجانة: «ترّس دون رسول الله ﷺ بنفسه؛ يقع النّبل في ظهره وهو منْحنٍ عليه حتى كثرت فيه النبل»[3]. وممن وقف أيضًا بجانب الرسول خلال تلك الهجمة الشرسة على بن أبى طالب، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيدالله، وأبوبكر، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام، والحباب ابن المنذر، وعاصم بن ثابت والحارث بن الصِّمة، وسهيل بن حُنيف، وأُسيْد بن حُضَير، وسعد بن معاذ. ويروى أنه «ثبت بين يديه يومئذ ثلاثون رجلا كلهم يقول: وجهى دون وجهك، ونفسى دون نفسك، وعليك السلام غير مودَّع»![4].

وكان الرسول ﷺ ثابتًا كالطود طوال تلك المعركة الشرسة، وعليه درعان ومغْفر وبَيْضة فوق المغفر[5]، وباشر القتال بنفسه غير هيّاب، ويصف المقداد بن عمرو بعض مشاهد هذه المعركة فيقول: «نادى المشركون بشعارهم: يا للعُزَّى. يا آل هبل! فأوجعوا والله فينا قتلا ذريعًا، ونالوا من رسول الله ﷺ ما نالوا، لا والذى بعثه بالحق إن رأيت رسول الله ﷺ زال شبرًا واحدًا! إنه لفى وجه العدو، وتثوب إليه طائفة من أصحابه مرة وتتفرق عنه مرة»[6]! ومما يروى فى هذا السياق أيضًا أن أُبيّ بن خلف كان أحد الذين تعاهدوا وتعاقدوا على قتل رسول الله ﷺ، فلما رآه يوم «أُحد» أقبل إليه يركض على فرسه وهو يصيح: يا محمد، لا نجوتُ إن نجوتَ! فَـهَمَّ بعض الصحابة بالتصدى له فرفض الرسول ﷺ «ثم انتفض بأصحابه كما ينتفض البعير.. ولم يكن أحد يشبه رسول الله ﷺ إذا جدَّ الجدّ. ثم أخذ الحربة فطعنه رسول الله ﷺ بالحربة فى عنقه وهو على فرسه، فجعل يخور كما يخور الثور»[7]. ومات متأثرًا بطعنته.

---

(١) نفس المصدر، صـ ٥٢٠.

(٢) الواقدى: المغازى، جـ١، صـ ٢٨٠.

(٣) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٥١٥ ـ ٥١٦.

(٤) الواقدى: المغازى، جـ١، صـ ٢٤٠.

(٥) نفس المصدر، صـ ٢١٩. والمغْفر: زَرَد يُنسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت البَيْضة وهى الخُوذَة.

(٦) نفس المصدر، صـ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.

(٧) نفس المصدر، صـ ٢٥١.



ورغم إحاطة الصحابة بالرسول ﷺ أثناء المعركة فقد استطاع بعض المشركين أن يُلحق به بعض الأذى والجراحات؛ فشُجَّ في وجهه وكسرت إحدى أسنانه وجرحت شفته. وكان من بين مَنْ أصابه من المشركين عتبة بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص[1]. ولهذا يروى عن سعد أنه قال في هذا الموقف: «والله ما حرصت على قتل رجل قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص، وإن كان ما علمت لسيئ الخلق مُبغَّضًا في قومه. ولقد كفاني منه قول رسول الله ﷺ: اشتد غضب الله على من دمَّى وجه رسول الله»[2].

وقد قامت النساء المسلمات بدور يستحق التنويه في معركة أحد؛ فقد كُنَّ يسقين العطشى، ويداوين الجرحى[3]، بل إن بعضهن اشتركن اشتراكًا فعليًا في القتال؛ ومن هؤلاء نسيبة بنت كعب بن عمرو الأنصارية، وكنيتها أم عُمارة، وهي ممن شهد بيعة العقبة الثانية[4]، فقد خرجت نسيبة يوم أحد لتسقي الجرحى، ثم قاتلت وأبلت بلاء حسنًا، «فجرحت اثنى عشر جرحًا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف»[5]. ويروى أنها قالت بهذه المناسبة: «لما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ، فجعلت أباشر القتال وأذب عن رسول الله ﷺ بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصت إلى الجراحات»![6] ولهذا يؤثر عن الرسول ﷺ أنه قال في جهادها يوم أحد: «ما التفت يمينًا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دوني»[7]، وقال أيضًا: «لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان»[8]!

انجلت معركة أحد وقد استشهد من المسلمين سبعون، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلا[9]. وكان من بين شهداء أحد حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، ولكنه لم يقتل إلا بعد أن أمعن في الكفار وأبلى البلاء الحسن. وكان استشهاده على يد «وحشي»

---

(١) نفس المصدر، صـ ٢٤٤. وقد رمى عتبة شفة رسول الله ﷺ وأصاب رَباعيته.

(٢) تاريخ الطبري، جـ٢، صـ ٥١٩.

(٣) المغازي، جـ١، صـ ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٤) انظر ترجمة نسيبة بنت كعب في: أُسْد الغابة لابن الأثير، جـ٧، صـ ٢٨٠ - ٢٨١.

(٥) الواقدي: المغازي، جـ١، صـ ٢٦٨.

(٦) نفس المصدر، صـ ٢٦٩.

(٧) نفس المصدر، صـ ٢٧١.

(٨) نفس المصدر، صـ ٢٦٩.

(٩) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١، صـ ٣٢٨، وتاريخ اليعقوبي، جـ٢، صـ ٤٨.

غلام جبير بن مطعم. ويذكر المؤرخون عن وحشى هذا أنه «كان حبشيًا يقذف بحربة له قذف الحبشة، قلما يخطئ بها». فدعاه سيده جبير بن مطعم، وقال له: «اخرج مع الناس؛ فإن أنت قتلت عم محمد بعمى طعيمة بن عدى فأنت عتيق». فخرج «وحشى» مع قريش وأخذ يتحين الفرصة لحمزة حتى رآه «وهو يهذّ[1] الناس بسيفه، ما يليق[2] شيئًا يمرّ به» . وهنا يشرح «وحشى» كيف قتل حمزة فيقول: «وهززت حربتى، حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى لبَّته حتى خرجت من بين رجليه، وأقبل نحوى، فغُلبَ فوقع، فأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتى ثم تنحيت إلى العسكر، ولم يكن لى بشىء حاجة غيره»[3]. وقد مثلت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان بحمزة الذى قتل أباها عتبة بن ربيعة فى بدر وشارك فى قتل عمها شيبة، فأخذت كبده فلاكتها ثم لفظتها، وجدعت أنفه وقطعت أذنيه، وأنعمت على «وحشى» نظير ما أدركته على يده من ثأرها من حمزة[4].

وقد اشتد على رسول الله ﷺ قتل حمزة؛ فيروى أنه عندما وقف عليه صريعًا قال: «لن أصاب بمثلك أبدًا! ما وقفت موقفًا قط أغيظ إلىَّ من هذا»! ثم ذكر أنه مكتوب فى أهل السموات السبع أن حمزة أسد الله وأسد رسوله[5].

لقد كان يوم أحد «يوم بلاء وتمحيص» كما يقول ابن إسحاق[6]. ولا شك أن المسلمين استفادوا من دروسه العميقة أعظم الفائدة؛ فقد عرفوا أن الحرص على حطام الدنيا لا ينبغى أن يلابس جهادهم فى سبيل الله، وإلا كانت النتائج وخيمة ، كما أدركوا تمامًا أن عدم الالتزام بأوامر القائد يوردهم موارد الهلاك. ثم إنهم فهموا قيمة الاستبسال دفاعًا عن العقيدة؛ فقد استبسلوا فى بدر ـ رغم قلتهم ـ فكلل الله جهادهم بالنصر، ولكنهم تخاذلوا فى أحد فانتهوا إلى الهزيمة. لقد استوعب المسلمون كل هذه الدروس من محنة الهزيمة فى أحد، وعرف الرسول ﷺ ذلك من أصحابه، ولهذا قال:

---

(١) يهذّ بالسيف : أى يقطع.

(٢) ما يليق شيئًا يمرّ به أى ما يبقى على شىء.

(٣) تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، صـ ٥١٧.

(٤) المغازى، جـ١ ، صـ ٢٨٦.

(٥) سيرة ابن هشام، جـ٣ ، صـ ٤٧ . وانظر أيضًا: مغازى الواقدى، جـ١ ، صـ ٢٩٠.

(٦) سيرة ابن هشام ، جـ٣ ، صـ ٢٦ . والبداية والنهاية لابن كثير، جـ٤ ، صـ ٢٤.



«لن ينالوا منا مثلها حتى تستلموا الركن»[1]! أى أن قريشًا لن تُلحق بالمسلمين هزيمة بعدها حتى يفتحوا مكة.

والحق أن انتصار قريش فى معركة «أُحُد» لم يكن انتصارًا حاسمًا على الإطلاق؛ بل يمكن القول إنه كان انتصارًا شكليًا. ذلك أن الانتصار يقاس بمدى تحقق أهداف المعركة. وقد كان الهدف الاستراتيجى لقريش من وراء معركة أحد - كما يذكر مونتجومرى وات - هو تحطيم الجماعة الإسلامية الناشئة، أو - على الأقل - القضاء على محمد ﷺ على أساس أن ذلك وسيلة لتحطيم تلك الجماعة. ولكن قريشًا لم تحقق أيًّا من هذين الهدفين. فلا هى حطمت الجماعة الإسلامية فى المدينة، ولا استطاعت القضاء على محمد ﷺ [2]. والملاحظ أن قريشًا - بعد انتصارها فى أحد - لم تجرؤ على مطاردة المسلمين وهم عائدون إلى المدينة، فقد كانت تدرك أن المسلمين ما زالوا قوة يحسب حسابها. وقد عبر صفوان بن أمية عن ذلك خير تعبير عندما قال لقريش يثنيها عن التفكير فى مطاردة المسلمين: «قد أصبتم القوم، فانصرفوا فلا تدخلوا عليهم وأنتم كالّون ولكم الظفر؛ فإنكم لا تدرون ما يغشاكم..»![3] وكان الرسول ﷺ قد أرسل سعد بن أبى وقاص - بعد انتهاء معركة أحد - ليأتيه بخبر قريش وليعرف أين وجهتهم، وقال له فى ذلك: «إن ركبوا الإبل وجنَّبوا الخيل فهو الظَّعن، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهى الغارة على المدينة. والذى نفسى بيده لئن ساروا إليها لأسيرنَّ إليهم ثم لأناجزنَّهم»[4].

لم تجرؤ قريش - إذن - على السير إلى المدينة، بل سارت إلى مكة، وذلك بعد أن حاول أبو سفيان عبثًا أن يزعزع يقين المسلمين وأن يصور لهم أن انتصار قريش فى تلك المعركة يمثل انتصارًا لدينها ولما تعبد من دون الله من أصنام، فيروى أنه أشرف على جبل أحد ثم صرخ بأعلى صوته وأصحابُ رسول الله ﷺ يسمعون: «اعْلُ هُبَل»! أى انتصر يا هبل على دين محمد. فأمر الرسول ﷺ عمر أن يجيبه بقوله: «الله أعلى وأجَلّ»! فقال أبو سفيان: «يوم بيوم بدر! ألا إن الأيام دول، وإن الحرب سجال:

فيوم علينا ويوم لنا   ويوم نُساء ويوم نُسَر

---

(١) الواقدى: المغازى، جـ١، صـ ٢٥٠.

(2) M. Watt, Muhammad at Medina . PP. 26 - 28.

(٣) الواقدى: المغازى، جـ١، صـ ٢٩٨.

(٤) نفس المصدر والصفحة.



فلان بفلان، وفلان بفلان، فأجابه عمر: «لا سواء؛ قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار»! فقال أبو سفيان: «إنكم لتقولون ذلك! لقد خبنا إذن وخسرنا! لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم»! فقال عمر: «الله مولانا ولا مولى لكم»! ثم انصرف أبو سفيان وهو يقول: «إن موعدكم بدر للعام المقبل». فأمر الرسول عمر أن يجيبه: «نعم، هى بيننا وبينك موعد»[1].

حدثت موقعة أحد فى شوال سنة ٣ هـ (مارس ٦٢٥م). ويذكر الواقدى والبلاذرى أنها كانت فى السابع من شوال[2]، فى حين يذكر ابن إسحاق أنها كانت فى الخامس عشر من شوال[3]. وقد نزل فى هذه المعركة من آى الذكر الحكيم من سورة آل عمران ما يثبِّت من عزم المسلمين ويقوِّى يقينهم ويحذِّرهم مما لا يليق بهم من الفرار أمام أعداء الله. وقد أورد ابن إسحاق والواقدى وغيرهما هذه الآيات مع التعليق عليها[4]. فمن ذلك قوله تعالى تثبيتًا للمسلمين وتمكينًا لروح الثقة فيهم: ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾**﴾[5].

وقوله سبحانه مشيرًا إلى ما أشيع من قتل رسول الله ﷺ وما تلاه من فرار بعض المسلمين: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾**﴾[6].

وقد جاءت الإشارة إلى الرماة وعصيانهم أمر رسول الله ﷺ باندفاعهم نحو الغنيمة بعد أن أراهم الله ما أحبوا من النصر، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾**﴾[7].

---

(١) راجع: سيرة ابن هشام، جـ ٣، صـ ٤٥؛ والمغازى للواقدى، جـ١، صـ ٢٩٦ ـ ٢٩٧؛ وأنساب الأشراف للبلاذرى، جـ١، صـ ٣٢٧، وتاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٥٢٦ ـ ٥٢٧.

(٢) المغازى، جـ١، صـ ١٩٩، وأنساب الأشراف، جـ١، صـ ٣١١ ـ ٣١٢.

(٣) سيرة ابن هشام، جـ٣، صـ ٥٢، وتاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٥٠٢.

(٤) سيرة ابن هشام، جـ٣، صـ ٥٨ ـ ٧٥؛ والمغازى للواقدى، جـ١، صـ ٣١٩ ـ ٣٢٩.

(٥) سورة آل عمران: [١٣٩ ـ ١٤١].

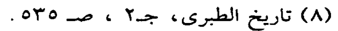
(٦) سورة آل عمران: [١٤٤].

(٧) سورة آل عمران: [١٥٢].



فى أعقاب أحد: رأينا أن الرسول ﷺ كان يخشى أن يتوجه المشركون إلى المدينة ليقتحموها بعد انكسار المسلمين فى أحد. وبعد أن علم أن وجهتهم مكة أراد أن يؤكد لقريش أن ما أصاب المسلمين فى أحد لم يُضعف من قوتهم وعزيمتهم[١]، فخرج يطلب العدو فى اليوم التالى لمعركة أحد وهو السادس عشر من شوال (طبقًا لرواية ابن إسحاق)[٢] أو الثامن من شوال (طبقًا لرواية الواقدى)[٣]. وقد طلب الرسول ﷺ ألا يخرج «إلا من شهد القتال بالأمس» أى حضر معركة أحد[٤]. فأجابه المسلمون وخرجوا معه وقد فشت فيهم الجراحات. وخرج رسول الله ﷺ وهو مجروح فى وجهه وشفته ومشجوج فى جبهته، وكان بأسيد بن حضير سبع جراحات، وبالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحًا، وبخراش بن الصِّمة عشر جراحات، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحًا، وبطلحة بن عبيد الله تسع جراحات.. وهكذا عامة أصحاب النبى ﷺ وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [٥]. وقال الرسول لطلحة وهو يتأهب للخروج: «أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منا مثل أمس حتى يفتح الله مكة علينا»[٦]. وقد تقدم الرسول ﷺ بأصحابه وهم على هذه الحال حتى وصلوا إلى مكان يقال له: «حمراء الأسد» وهو على بعد ثمانية أميال جنوبى المدينة. وكان لواء الرسول ﷺ فى يد على بن أبى طالب. وأمر الرسول أصحابه بأن يوقدوا النيران، فكانت ترى من المكان البعيد. يقول الصحابى الجليل جابر بن عبدالله ،وكان ممن شهدوا حمراء الأسد: «ذهب ذكر معسكرنا ونيراننا فى كل وجه حتى كان مما كبت الله تعالى به عدونا»[٧].

ولم تجرؤ قريش على مواجهة المسلمين فى حمراء الأسد رغم علمها بخروجهم، فأقام الرسول ﷺ والمسلمون بها ثلاثة أيام ثم رجعوا إلى المدينة[٨].



(١) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٣٤.
(٢) انظر رواية ابن إسحاق فى تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٣٤.
(٣) المغازى، جـ١ ، صـ ٣٣٤.
(٤) نفس المصدر ، صـ ٣٣٦.
(٥) نفس المصدر، صـ ٣٤٠. والآية المذكورة هى رقم [١٧٢] من سورة آل عمران.
(٦) المغازى، جـ١ ، صـ ٣٣٧.
(٧) نفس المصدر، صـ ٣٣٨.
(٨) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٣٥.

ولم ينس الرسول ﷺ ما قاله أبو سفيان للمسلمين فى نهاية معركة أحد: «إنَّ موعدكم بدر للعام المقبل»؛ ولم ينس أيضًا قبوله لهذا التحدى عندما أمر عمرَ أن يجيبه: «نعم هى بيننا وبينك موعد» . فخرج الرسول من المدينة ووصل بدرًا فى مطلع ذى القعدة من العام الرابع للهجرة كما يروى الواقدى،[1] وكان على رأس ألف وخمسمائة من أصحابه، وكان يحمل لواءه على بن أبى طالب. وخرج أبو سفيان على رأس ألفين من أهل مكة ، فلما كان ببعض الطريق أجفل عن المواجهة وبدا له الرجوع، فقال لمن معه: « ارجعوا؛ لا يصلحنا إلا عام خصب غَيداق[2] ، نرعى فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإنى راجع فارجعوا»! فرجع ورجع الناس، فسماهم أهل مكة جيش السويق وقالوا: إنهم: «خرجوا يشربون السويق»! ولهذا يطلق على هذه الغزوة أحيانًا «غزوة السويق» (وهى غير الغزوة التى تحمل نفس الاسم والتى كانت فى السنة الثانية للهجرة). وتسمى هذه الغزوة أيضًا «بدر الآخرة» أو «بدر الموعد». وقد أقام الرسول ﷺ ببدر ثمانية أيام ثم رجع بأصحابه إلى المدينة بعد أن أكد هيبة المسلمين أمام قريش والعرب جميعًا[3].

غزوة الخندق: (ذو القعدة ٥هـ ـ مارس ٦٢٧).

كان عجز قريش عن مواجهة المسلمين فى بدر الموعد مصدر شعور قوى لديها بالإحباط والرغبة فى الانتقام من الرسول ﷺ وصحبه. وقد عبر عن ذلك صفوان بن أمية فى قوله لأبى سفيان بعد نكوصه عن بدر الموعد: «قد والله نهيتك يومئذ أن تَعدَ القوم ، وقد اجترؤوا علينا ورأوا أنْ قد أخلفناهم، وإنما خلفنا الضعف عنهم»[4]! ومن هنا أخذ مشركو قريش يعدون العدة لتوجيه ضربة قاضية ضد الدولة الإسلامية بالمدينة، فاستنجدوا بمن حولهم من العرب «وجمعوا الأموال العظام، وضربوا البعث على أهل مكة، فلم يُترك أحد منهم إلا أن يأتى بما قلَّ أو كثر، فلم يقبل من أحد منهم أقل من أوقية لغزوة الخندق»[5]!

---

(١) المغازى، جـ١ ، صـ ٣٨٧.

(٢) غيداق: أى واسع كثير الخير.

(٣) للمزيد من التفاصيل ارجع إلى: المغازى للواقدى، جـ١ ، صـ ٣٨٤ ـ ٣٨٨.

(٤) نفس المصدر، صـ ٣٨٩.

(٥) نفس المصدر والصفحة.



وقد التقت رغبة قريش مع رغبة اليهود فى الإطاحة بدولة المدينة. والحق أن اليهود بدأوا يكشفون عن حقدهم على المسلمين منذ انتصار بدر كما أشرنا قبل ذلك. وقد كانت هزيمة المسلمين فى «أحد» مصدر سعادة بالغة لهم؛ وهذا ما عبر عنه أحد يهود المدينة بقوله: «اليوم بطل السحر»[1]! وقد اضطر الرسول ﷺ لإجلاء يهود بنى قينقاع وبنى النضير عن المدينة فى العام الثانى والرابع للهجرة على التوالى. فكان ذلك مما أثار اليهود وألهب روح الانتقام فى نفوسهم.

هكذا وجدت قريش فى اليهود خير نصير، ووجد اليهود فى قريش مثل ذلك. ومن ثم ذهب إلى مكة بعض أعيان بنى النضير، وعلى رأسهم سلاّم بن أبى الحقيق، وحُيَيّ بن أخطب وكنانة بن الربيع، وأكدوا لقريش أنهم سيكونون معهم حربًا على محمد حتى يستأصلوه، وقد سمح اليهود لأنفسهم أن يناصروا الوثنية ضد دين يدعو إلى عبادة الله الواحد ؛ فيروى أن قريشًا قالت لهم عندما قدموا عليها بمكة: «يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه»[2]. وقد نزل فيهم قول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[3] .

وقد نجحت قريش وزعماء بنى النضير فى إغراء غطفان بالانضمام إليهم، فخرجت غطفان ببطونها وفيها القائدان المشهوران: عُيينة بن حصن الفزارى والحارث ابن عوف المُرّى. وقد جعل اليهود لغطفان تمر خيبر سنة على أن يعينوهم على حرب رسول الله ﷺ[4]. كما انضمت قبيلتا بنى سُليم وبنى أسد إلى هذا التحالف[5]. وهكذا تكوّن جيش هائل للأحزاب وصل عدده إلى عشرة آلاف، كان من بينه أربعة آلاف

---

(١) تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ، صـ ٤٨.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ٣ ، صـ ٢٣٠.

(٣) سورة النساء: [٥١ ـ ٥٢]. والجبْت: الأصنام، وكل ما عُبِد من دون الله.

(٤) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ١ ، صـ ٣٤٣، والواقدى : المغازى ، جـ٢ ، صـ ٤٤٣.

(٥) المغازي، جـ٢ ، صـ ٤٤٣.



ينتمون إلى قريش وأحابيشها. وكان لقريش وحدها فى هذا الجيش ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير، ولغطفان ثلاثمائة فرس[١]، وكانت القيادة العامة لأبى سفيان[٢].

فالواضح من ضخامة هذا الجيش واستعداداته أن قريشًا وحلفاءها أرادوا أن يسددوا ضربة قاضية لدولة الإسلام فى المدينة. وقد توجه بعض رجال خزاعة إلى النبى ﷺبالمدينة ليخبروه بخروج قريش لحربه، فأعدّ جيشًا بلغ ثلاثة آلاف مقاتل، وتقدم ليتصدى لجيش الأحزاب، وقد استشار أصحابه، «وكان رسول الله ﷺ يكثر مشاورتهم فى الحرب»[٣]، فأشار عليه سلمان الفارسى بحفر الخندق حول المدينة، وقال له فى ذلك: «يا رسول الله، إنا إذ كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خَنْدَقْنا علينا؛ فهل لك يا رسول الله أن نخندق؟»[٤] ونفذ ﷺ اقتراح سلْمان الذى لقى استحسانًا من المسلمين، «وذكروا حين دعاهم النبى ﷺ يوم أحد أن يقيموا ولا يخرجوا، فكره المسلمون الخروج وأحبوا الثبات فى المدينة»[٥].

وقد تكاتف المسلمون فى حفر الخندق، وعمل معهم رسول الله ﷺ كواحد منهم «فدأب فيه ودأبوا» [٦]، وكان الرسول ﷺ ينقل التراب حتى اغبرَّ بطنه، وهو يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلنْ سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا [٧]

وأكمل المسلمون حفر الخندق بعد ستة أيام من العمل الشاق[٨]. وكان حفره شمالى المدينة، وهى الجهة المكشوفة التى كان يمكن أن يقتحم الأعداء المدينة من

---

(١) نفس المصدر، صـ ٤٤٣ ـ ٤٤٤.
(٢) أنساب الأشراف جـ١، صـ ٣٤٥.
(٣) المغازى، صـ ٤٤٤ ـ ٤٤٥، ٤٥٣.
(٤) نفس المصدر، صـ ٤٤٥.
(٥) نفس المصدر والصفحة.
(٦) سيرة ابن هشام، جـ٣، صـ ٢٣١.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٤، صـ ٩٧ ـ ٩٨.
(٨) المغازى، جـ٢، صـ ٤٥٤.



خلالها، أما بقية جهات المدينة فكانت ممنوعة ببيوتها ونخيلها ومن الصعب على العدو أن يهاجمها[1]. وعندما وصل الأحزاب إلى المدينة وفوجئوا بالخندق يحول بينهم وبينها قالوا: «والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها»[2].

وفى تلك الأثناء كان حُيَيٌّ بن أخطب، سيد قبيلة بنى النضير اليهودية، قد زيَّن ليهود بنى قريظة - وزعيمهم كعب بن أسد - أن ينقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ . وكان يهود بنى النضير وبنى قينقاع قد نقضوا هذا العهد قبل ذلك فأجلاهم الرسول عن المدينة. وهكذا تواطأ يهود بنى قريظة مع الأحزاب. وعندما علم الرسول ﷺ بنقضهم العهد أرسل إليهم سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة ، وعبدالله بن رواحة ليتثبتوا من حقيقة الأمر. فلما جَاءَ هؤلاء إلى بنى قريظة وذكّروهم بالعهد بينهم وبين رسول الله ﷺ قالوا: لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد! فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، فقال له سعد بن معاذ: دع عنك مُشَاتَمَتَهُم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة! ورجع الجميع إلى الرسول ليؤكدوا له ما بلغه من نقض بنى قريظة للميثاق[3]. وهكذا أحاط الأعداء بالمسلمين من كل جانب، فعظم عليهم البلاء واشتد الخوف وظهر النفاق من بعض ضعاف الإيمان، وقال أحدهم[4]: «يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى حاجته، وما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا»[5]. وقد أشار الله سبحانه إلى تلك المحنة فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[6] .

وقف الأحزاب أمام الخندق عاجزين عن اقتحامه، ففرضوا حصارًا على المدينة دام خمسة عشر يومًا أو بضعًا وعشرين ليلة طبقًا لبعض الروايات[7] . ولم يكن بين

---

(٢) سيرة ابن هشام ، جـ٣ ، صـ ٢٤٠ .

(٣) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٧١ - ٥٧٢ .

(٤) هو معتِّب بن قشير الأنصارى الأوسى.

(٥) الواقدى : المغازى، جـ٢ ، صـ ٤٥٩ - ٤٦٠ .

(٦) سورة الأحزاب: [٩ - ١٢].

(٧) الواقدى: المغازى، جـ٢ ، صـ ٤٩١ ؛ البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ١ ، صـ٣٤٥. وانظر أيضًا: تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، صـ ٥٧٢ .



الفريقين حرب إلا التراشق بالنَّبل والحجارة[1]. ولكن بعض فرسان قريش حاولوا اقتحام الخندق من مكان ضيق ونجحوا فى ذلك، وهم عمرو بن عبد وُدّ وعكرمة بن أبى جهل، وضرار بن الخطاب بن مرداس، ونوفل بن عبد الله المخزومى، وهبيرة بن أبى وهب. وقد تصدى علي بن أبى طالب لعمرو بن عبد وُدٍّ فقتله، ووقع بنوفل بن عبد الله فرسه فى الخندق، فرُمى بالحجارة حتى قُتل، وانهزم الباقون إلى أصحابهم[2].

وعندما طال الحصار على المسلمين دون أن تلوح أمامهم بوادر النهاية أراد ﷺ أن يصالح غطفان على ثلث ثمار المدينة على أن يرفعوا الحصار وينصرفوا عن الأحزاب، فإذا انصرفت غطفان تشتت كلمة الأحزاب ورجع من تبقى منهم أو استطاع المسلمون هزيمتهم عند المواجهة. وقد استشار الرسول ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة فى هذا الصلح، فكان ردهما عليه حافلا بالأدب والحكمة حيث قالا له: «يا رسول الله، أمر تحبه فنصنعه، أم شيء أمرك الله عز وجل به لابد لنا من عملٍ به، أم شيء تصنعه لنا؟» فقال ﷺ: «بل شيء أصنعه لكم؛ والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم لأمر ما ساعة». فقال له سعد بن معاذ: «يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله عز وجل وعبادة الأوثان ، ولا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قِرى أو بيعًا؟ أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم»[3]! ولا شك أن ما قاله سعد بن معاذ كان يعبر عن موقف الأنصار بصفة عامة؛ ولهذا استجاب الرسول ﷺ لهذا الرأى وعدل عن اتجاهه للصلح مع غطفان.

وهكذا التف المسلمون حول رسول الله ﷺ ينتظرون ما يسفر عنه حصار الأحزاب. وقد تهيأت للمسلمين بعض الأسباب التى عجلت بانتهاء هذا الحصار وعودة الأحزاب خائبين إلى ديارهم. فقد أسلم أحد رجال غطفان، واسمه نُعَيم بن مسعود، وجاء إلى الرسول ﷺ فقال له: يا رسول الله ، إنى قد أسلمت ،وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى بما شئت. فقال له الرسول ﷺ : «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذِّلْ عنا إن

---

(1) المغازى، جـ٢ ، صـ ٤٦٤.

(2) نفس المصدر، صـ ٤٧٠ - ٤٧١.

(3) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٧٣. وانظر أيضًا: المغازى للواقدى، جـ٢ ، صـ ٤٧٧ - ٤٧٩.



استطعت فإن الحرب خدعه». فذهب نعـيم إلى بنى قريظة - وهم لا يعلمون بإسلامه - فخوفهم نتائج تحالفهم مع قريش وغطفان وأخبرهم باحتمال أن تنسحب قريش وغطفان من الميدان لو وجدوا أن ذلك أسـلم لهم، وهنا يخلو الميدان أمام المسلمـين لينتقموا من بنى قريظة الذين لا دار لهم إلا المدينة. ولهـذا حث نعيمٌ بنى قريظة أن يطلبوا من قريش وغطفان رهائن حتى يضمنوا أن القوم لـن يتخلوا عنهم فى الحرب ضد محمد. ثم ذهب نعيم إلى قريش فـأخبرهم عن مبلغ وُدِّه لهم وكراهيته للمـسلمين، وذكر لهم أن يهود بـنى قريظة ندمـوا على تحالـفهم مع قـريش وغطفان وأنهـم اتصلوا بمحـمد يعرضون عليه أن يسلموه بعض أشراف هاتين القبـيلتين ليضرب أعناقهم ثم يكونوا معه على من بقى من عـدوه. وحذَّر نعيم قريشًا من استـجابتها لبنى قريـظة إذا طلبت منهم رهائن. ثم ذهب نعيم إلى غطفان وقال لها مـا قاله لقريش. ثم بدأت خدعة نعيم تؤتى ثمارها. فقـد أرسلت قريش وغطفان إلى بنـى قريظة عكرمة بن أبى جـهل فى نفر من القبيلتين للاتفـاق على وضع خطة مشتركة للهجوم على المسلـمين، فطلبت بنو قريظة رهائن ليثقوا فى جدية القوم وأنهم لن يتركوهم وحدهم فى الميدان. فلما علمت قريش وغطفان بذلك قالوا: «والله إن الذى حدثكم نُعيمٌ بن مسعود لحقٌّ». ثم أرسلوا إلى بنى قريـظة: «إنا والله لا ندفع إلـيكم رجلا واحـدًا من رجالنـا. فإن كنتـم تريدون القـتال فاخرجوا فقاتلوا». فقالت بنو قريظـة عندئذ: «إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق؛ ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك تشمَّروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلادكم». فأصـرّ بنو قريظة على موقفهم من عدم القتـال إلا بعد أن يتسلـموا الرهائن، ورفض الآخـرون ذلك. وهكذا تخاذل الفـريقان بفضل خدعة نعيم بن مسعود(١). ولا شك فى أن الدور الذي قام به نعيم كان ذا أهمية بالغة بالنسبة للمسلمين حيث أزاح عنـهم خطرًا محققًا وهو هجوم بنى قريظة من داخل المدينة على صفوف الـمسلمين، فقد كان من شأن هذا الهجـوم أن يضع المسلمين فى موقف كانت مواجهته ستكلفهم ثمنًا باهظًا(٢)؛ ولهذا كان نعيم يـقول: «أنا خذَّلت بين الأحزاب حتى تفرقوا فى كل وجه، وأنا أمين رسول الله ﷺ على سره»(٣).

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٧٨ - ٥٧٩.

(2) M. Watt, Muhammad , Prophet and Statesman, P. 171.

(٣) الواقدى : المغازى، جـ٢ ، صـ ٤٨٤.

وهناك عامل آخر عجَّل برفع الحصار وإحباط مخطط الأحزاب بصفة نهائية. فقد تعرض هؤلاء لريح عاتية فى ليلة شاتية قاسية البرودة، فكفأت قدورهم، وطرحت أبنيتهم وأثارت الذعر والفوضى فى معسكرهم، فلم يجدوا أمامهم إلا أن يشدوا رحالهم ويرتدوا على أعقابهم[١] دون أن يجنوا من تحزبهم وغزوهم إلا الندم والحسرة. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾[٢]. وقوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥﴾[٣]. ومن هنا يتبين أن المسلمين لم يضطروا لخوض حرب حقيقية خلال تلك الغزوة، ومع هذا صمدوا فى مواجهة الحصار، واستشهد منهم ستة خلال بعض المناوشات المحدودة[٤]. وفى هذه الغزوة أصيب الصحابى الجليل سعد بن معاذ - سيد الأوس - بسهم فى ذراعه ثم مات بعد ذلك متأثرًا بإصابته[٥]. وقد سميت هذه الغزوة بالأحزاب لتحالف قريش مع اليهود وغطفان ضد المسلمين، كما سميت بالخندق إشارة إلى الخندق الذى حفره المسلمون بمشورة سلمان الفارسى.

مثلت غزوة الخندق آخر مدى وصلت إليه محاولات المكيين للقضاء على دولة الإسلام فى المدينة، وقد تصورت قريش أنها ستكون الضربة التى لن تقوم للإسلام بعدها قائمة، ولكنها انتهت إلى خيبة أمل بالنسبة للمكيين والأحزاب لم تكن تخطر لهم على بال، ولهذا قال ﷺ فى نهاية هذه الغزوة: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»، «فكان كذلك حتى فتح الله مكة»[٦]. ولا شك أن انكسار قريش فى غزوة الخندق كان يعنى انتهاء آمالهم فى هزيمة محمد ﷺ، ومن هنا بدأ الكثيرون منهم يراجعون حساباتهم ويفكرون جديًّا فى اعتناق الإسلام[٧].

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٨٠ ، سيرة ابن هشام ، جـ٣ ، صـ ٢٥١.

(٢) سورة الأحزاب: ٩.

(٣) سورة الأحزاب: ٢٥.

(٤) الواقدى: المغازى، جـ٢ ، صـ ٤٩٥ - ٤٩٦.

(٥) سيرة ابن هشام ، جـ٢ ، صـ ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٦) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٩٣ ، والكامل لابن الأثير، جـ٢ ، صـ ١٨٤.

(7) M. Watt, Muhammad, Prophet and Statesman, P. 171.

وانظر أيضًا: المغازى للواقدى، جـ٢ ، صـ ٤٩١.



وقد كانت غزوة الخندق فى ذى القعدة سنة ٥ هـ (مارس ٦٢٧م) حيث عسكر رسول الله ﷺ بجيشه في الثامن من ذى القعدة ، وانصرف لسبع بقين منه فى السنة المذكورة[١].

لم تكد تنتهى غزوة الخندق حتى أذّن مؤذن رسول الله ﷺ فى المسلمين أن يتوجهوا من فورهم إلى بنى قريظة الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ووجهوا إلى المسلمين طعنة غادرة فى الظهر. على أننا سوف نتناول غزوة بنى قريظة فى سياق حديثنا عن تطور العلاقة بين الرسول ويهود المدينة.

من الخندق إلى صلح الحديبية:

كان الرسول ﷺ بعد الخندق حريصًا على تأكيد هيبة المسلمين أمام القبائل العربية المحيطة حتى لا تتاح الفرصة لتكرار ما حدث فى غزوة الخندق بانضمام تلك القبائل إلى قريش. وقد كانت قبيلة بنى لحْيان (من هذيل) إحدى القبائل التى عزم الرسول ﷺ على تأديبها فى تلك الفترة لغدرها بالمسلمين قبل ذلك. ففى صفر سنة ٤ هـ أرسل الرسول ﷺ إليهم سبعة من المسلمين - بناء على طلبهم - ليفقهوهم فى الدين؛ وكان أميرهم مرثد بن أبى مرثد الغَنَوِى، ويقال أميرهم عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح[٢]. فلما وصل هؤلاء إلى ماء لهذيل بالحجاز يسمى «الرجيع» كشف بنو لحيان عما بيتوه من غدر، فأرادوا أن يأسروهم ليبيعوهم لقريش حتى يقتلوهم ثأرًا لمن قتل منهم فى بدر. فلما عرف المسلمون بخطة بنى لحيان قاتل أربعة منهم قتال المستميت حتى استشهدوا وعلى رأسهم مرثد بن أبى مرثد، وعاصم بن ثابت، واستأسر ثلاثة هم خُبيب بن عدى، وزيد بن الدَّثِنَّة، وعبد الله بن طارق[٣]. وقد سار بنو لحيان بهؤلاء الأسرى إلى مكة، وفى الطريق قاتلهم عبدالله بن طارق حتى سقط شهيدًا[٤]. أما خبيب وزيد فباعوهما لقريش فقتلتهما شر قتلة[٥]. وفى غدر بنى لحيان يقول حسان بن ثابت:

---

(١) الواقدى: المغازى ، جـ٢ ، صـ ٤٤٠ . ويذكر ابن هشام رواية عن ابن إسحاق أن هذه الغزوة كانت فى شوال سنة ٥ هـ. انظر : سيرة ابن هشام، جـ٣ ، صـ ٢٢٩.

(٢) الواقدى: المغازى ، جـ١ ، صـ ٣٥٤ - ٣٥٥ . وفى رواية أخرى للواقدى أن هؤلاء النفر كانوا عشرة. المغازى ، جـ١ صـ ٣٥٥.

(٣) الواقدى: المغازى، جـ١ ، صـ ٣٥٧، وتاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٣٩.

(٤) المغازى، جـ١ ، صـ ٣٥٧ ، وتاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٣٩.

(٥) عندما قدمت قريش خبيبًا للقتل طلب منهم أن يمهلوه ليصلى ركعتين، فلما صلاهما قال: =



إنْ سرَّكَ الغدرُ صِرْفًا لا مِزاجَ له فأتِ الرجيعَ فَسَلْ عن دارِ لحيان [1]

وفى ربيع الأول سنة ٦ هـ طبقًا لرواية الواقدى، أو جمادى الأولى من نفس العام طبقًا لرواية ابن إسحاق[٢]، خرج رسول الله ﷺ إلى بنى لِحيان فى مائتى رجل من أصحابه ليغزوهم ويثأر لأصحاب الرجيع. وهذه هى الغزوة التى تعرف فى مصادرنا بغزوة بنى لحيان. وعندما سمع بنو لحيان بمقدم الرسول والمسلمين تملكهم الرعب فهربوا وتمنَّعوا فى رؤوس الجبال. فأقام ﷺ يومين بأرضهم ثم ارتحل مع أصحابه حتى نزل عُسْفان بالقرب من مكة، وقال فى ذلك: «إن هذا يبلغ قريشًا فيذعرهم ويخافون أن نكون نريدهم». ثم رجع الرسول ﷺ مع أصحابه إلى المدينة بعد أن غاب عنها أسبوعين[٣].

وقد واجه الرسول ﷺ فى تلك الفترة غارة همجية من غارات الأعراب قام بها عيينة بن حصن الفزارى (من غطفان) على لقاح رسول الله ﷺ[٤] بمكان يقال له «الغابة» بالقرب من المدينة على طريق الشام. وقد استولى عيينة ومعه أربعون فارسًا على اللقاح وهربوا بها، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٦ هـ، فلما علم الرسول بذلك سار فى أثرهم فى خمسمائة من أصحابه، وانتهى بهم المسير إلى مكان يقال له «ذو قَرَد» بين المدينة وخيبر، واستطاع المسلمون خلال ذلك أن يستردوا بعض اللقاح التى استولى عليها عيينة ورجاله وأن يقتلوا منهم أربعة، واستشهد من المسلمين واحد هو مُحْرِز بن نَضْلة. وقد تولى سعد بن عبادة فى ثلاثمائة من قومه حراسة المدينة خلال

= لولا أن تقولوا جَزِعَ لزِدْتُ، فكان أول من سنّ الركعتين عند القتل. ثم قال: اللهم أَحْصِهم عَدَدًا، واقتلهم بَدَدًا، ولا تغادر منهم أحدًا، وأنشد:

ولستُ أبالى حين أُقْتَل مسلمًا على أى شق كان فى الله مصرعى

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شِلْو مُمَزَّع

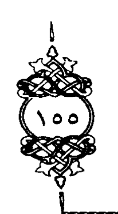
انظر: الكامل لابن الأثير، جـ٢، صـ ١٦٨، والبداية والنهاية لابن كثير، جـ٤، صـ ٦٥.

(١) سيرة ابن هشام، جـ٣، صـ ١٧٦.

(٢) المغازى، جـ٢، صـ ٥٣٥، وسيرة ابن هشام، جـ٣، صـ ٣٢١.

(٣) المغازى، جـ٢، صـ ٥٣٦ ـ ٥٣٧، وزاد المعاد لابن القيم، جـ٢، صـ ١١٩.

(٤) اللقاح: ذوات الدَّرِّ من الإبل.



المدة التى قضاها الرسول بعيدًا عنها وهى خمس ليال[1]. وتعرف هذه الغزوة فى مصادرنا بغزوة «الغابة» أو غزوة «ذى قَرَد» [2] ولا شك أن أنباءها ترامت إلى قريش فازدادت لديهم هيبة المسلمين.

ومن بين القبائل التى اضطر الرسول ﷺ لمواجهتها بعد الخندق وقبل الحديبية قبيلة بنى المُصْطَلِق من خزاعة. فقد بلغ الرسول ﷺ أن بنى المصطلق يجتمعون له ويتهيأون لحربه بزعامة قائدهم الحارث بن أبى ضرار. فخرج الرسول ﷺ إليهم فى شعبان ٦ هـ طبقًا لرواية ابن إسحاق[3]، وأسرع الناس للخروج معه، وكان الجيش الإسلامى يضم ثلاثين فارسًا. وقد لقى الرسول ﷺ عدوه بالمريسيع، وهو ماء من مياه بنى المصطلق، فاقتتل الناس اقتتالا شديدًا، وانتهت المعركة بهزيمة بنى المصطلق، وأفاء الله على المسلمين أموالهم وأبناءهم ونساءهم. وكان بين السبى الكثير الذى أصابه المسلمون فى تلك الغزوة جُويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق، وهى التى تزوجها رسول الله ﷺ وأصبحت إحدى أمهات المؤمنين[4]. وتعرف هذه الغزوة فى مصادرنا بغزوة المريسيع أو غزوة بنى المصطلق وقد ارتبط بها «حديث الإفك» الذي دار حول الافتراء على السيدة عائشة واتهامها بالفاحشة، ثم برأها الله سبحانه فى آيات بينات من سور «النور» الحافلة بروائع الأدب الاجتماعى فى الإسلام[5].

---

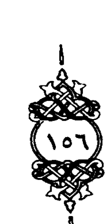
(١) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى المغازى للواقدى، جـ٢ ، صـ ٥٣٧ ـ ٥٤٩ ، وقارن بما فى تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٩٦ ـ ٦٠٤.

(٢) ياقوت: معجم البلدان ، جـ٤ ، صـ ٢٠٦ و صـ ٣٦٥.

(٣) سيرة ابن هشام ، جـ ٣ ، صـ ٣٣٣ ، ويروى الواقدى أن هذه الغزوة حدثت فى شعبان سنة ٥هـ . المغازى ، جـ١ ، صـ ٤٠٤. وانظر أيضًا : أنساب الأشراف للبلاذرى، جـ١ ، صـ٣٤١.

(٤) للمزيد من التفصيل حول هذه الغزوة راجع: تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٦٠٤ وما بعدها، والمغازى للواقدى جـ١ ، صـ ٤٠٤ وما بعدها.

(٥) موجز حديث الإفك أن الرسول ﷺ اصطحب من بين أزواجه فى غزوة بنى المصطلق عائشة وأم سلمة. وعندما كان المسلمون عائدين إلى المدينة بعد انقضاء الغزوة حطوا رحالهم فى أحد المواضع ليستجموا. وأثناء ذلك ذهبت عائشة لبعض حاجتها، وعندما عادت اكتشفت ضياع عقد لها فرجعت تلتمسه فوجدته ثم عادت مرة أخرى لتكتشف أن المسلمين رحلوا من مكانهم دون أن يفطنوا أن عائشة ليست فى هودجها، فظلت مكانها وهى تؤمِّل أن يرجع إليها المسلمون لأخذها عندما يفتقدها الرسول ﷺ . وكان الصحابى صفوان بن المعطَّل على ساقة العسكر يلتقط ما يسقط من متاع المسلمين حتى يأتيهم به. فلما رآها أناخ لها بعيره فركبت ثم انطلق نحو المدينة يقود البعير حتى أدرك الناس. وهنا كثر القيل والقال من جماعة على رأسهم شيخ المنافقين عبد الله بن أبىّ بن سلول الذي تولى كِبْر هذا الحديث؛ فقد رُوى عنه أنه قال=



إن الفترة التى تلت غزوة الخندق كانت بالنسبة للمسلمين بداية حقيقية لتأكيد وجودهم وفرض هيبتهم على كل المحيطين بهم فى أنحاء شبه الجزيرة العربية. فلا غرو إذن أن يفكر رسول الله ﷺ - وقد زاد الله الإسلام منعة - فى أن يتوجه إلى البيت الحرام زائرًا ومعظمًا. ولماذا تقف قريش حائلا بين المسلمين وبين هذا الحق، وقد أصبح المسلمون قوة يُحْسَبُ حسابُها؟ وقد كان تفكير الرسول ﷺ فى زيارة البيت الحرام هو الخطوة الأولى لعقد صلح الحديبية.

صلح الحديبية: (ذو القعدة ٦ هـ مارس ٦٢٨م):

بعد عودة الرسول ﷺ من غزوة بنى المصطلق أقام بالمدينة شهرى رمضان وشوال، ثم خرج فى مستهل ذى القعدة سنة ٦ هـ متوجهًا نحو مكة معتمرًا لا يريد حربًا. وكان قد رأى فى المنام أنه «دخل البيت وحلق رأسه وأخذ مفتاح البيت وعرَّف مع المعرِّفين»[١] وقد ساق رسول الله ﷺ معه الهدى وأحرم بالعمرة لتأمن قريش من حربه ولتعلم أنه إنما خرج زائرًا للبيت الحرام ومعظمًا له،[٢] وأحرم عامة المسلمين

= عندما رأى صفوان يقود البعير: من هذه؟ فقالوا: عائشة رضى الله عنها فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها! ثم قال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها! وإلى عبدالله بن أبى تشير الآية الكريمة: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)** ﴾ وعندما كثر الحديث وبلغ سمع الرسول ﷺ خطب فى الناس قائلا: «ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى، ويقولون عليهن غير الحق! والله ما علمت منهن إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرًا، وما دخل بيتًا من بيوتى إلا وهو معى». ثم أنزل الله براءة عائشة فى سورة النور: [١١ - ٢٦]، فجلد الرسول هؤلاء الذين بهتوا عائشة حد القذف. وقد كان موقف جمهور المسلمين عظيمًا، ومن هؤلاء أبو أيوب الأنصارى الذى قالت له امرأته: أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال: بلى. وذلك الكذب! أكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله! قال: فعائشة والله خير منك! وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ **لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢)** ﴾. راجع حديث الإفك فى: صحيح البخارى، جـ٥، صـ ١٤٨ - ١٥٥، تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٦١٠ - ٦١٩؛ المغازى للواقدى، جـ٢ صـ ٤٢٦ - ٤٤٠. والكشاف للزمخشرى، جـ٣، صـ ٢١٧ - ٢٢٥.

(١) الواقدى: المغازى، جـ٢، صـ ٥٧٢، و«عرَّف مع المعرِّفين»: أى وقف على عرفة مع الواقفين.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ٣، صـ ٣٥٦.



بإحرام النبى ﷺ ، وركب النبى ﷺ ناقته «القصواء» وسار معه إلى مكة ألف وخمسمائة من أصحابه تقريبًا[1].

وعندما سمعت قريش بمسير الرسول ﷺ ومن معه إلى مكة خرجت بالعُدَّة والعدد لتصد المسلمين عن البيت الحرام، واستنفرت من أطاعها من الأحابيش، وأجلبت ثقيف معهم وقدَّموا خالد بن الوليد فى الخيل[2]. واستمر الرسول ﷺ فى مسيره حتى انتهى إلى مكان يقال له «الحُدَيبية» يبعد بضعة أميال من مكة، فنزل به هو والمسلمون.

وفى الحديبية جاء إلى الرسول ﷺ بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى. وقد كانت خزاعة «عَيْبَة نصح رسول الله ﷺ بتهامة» أى موضع الأمانة على سره. وقد ذكر بُدَيْل للرسول ﷺ أنه جاءه من عند قريش وأنهم قد خرجوا فى الجيش الكثيف وهم «يقسمون بالله لا يخلّون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم»[3]. وهنا أكد الرسول ﷺ لبديل أن المسلمين ما جاءوا لقتال وإنما جاءوا لزيارة البيت، فمن صدّهم عن البيت قاتلوه، ثم أبدى استعداده أن يعقد هدنة مع قريش يأمنون خلالها ويتركون الرسول ﷺ يتفرغ لدعوة الناس إلى الإسلام دون أن يحولوا بينه وبين ذلك. فإن انتصرت دعوة الإسلام وأرادت قريش الدخول فيها كان لهم ذلك، وإلا فقد جَمُّوا أى حصلوا على فترة من الراحة واستجماع القوة. أما إذا أبت قريش إلا العناد فسيقاتلهم الرسول ﷺ على دين الله حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولا. وقد ذهب بُدَيل إلى قريش بهذه الرسالة فلم تجد استجابة منهم، ولكن رجلا من سادة ثقيف يقال له «عروة بن مسعود» سمع رسالة بديل فشجع قريشًا على قبولها ، وقال فى ذلك: «إن بُدَيْلاً قد جاءكم بخطة رشد لا يردها أحدٌ أبدا إلا أخذ شرًّا منها ، فاقبلوها منه، وابعثونى حتى آتيكم بمصداقها من عنده وأنظر إلى من معه وأكون لكم عينًا آتيكم بخبره»[4]. فبعثته قريش إلى الرسول ﷺ فلما جاءه حاول أن يوهن من عزم المسلمين وأن يصرف الرسول ﷺ عن الذهاب إلى مكة

---

(١) تختلف مصادرنا حول العدد الدقيق الذى صحب الرسول ﷺ إلى مكة، فيقال إنهم كانوا ألفًا وثلاثمائة أو ألفًا وأربعمائة، أو ألفًا وخمسمائة، أو ألفًا وستمائة. وقيل غير ذلك. انظر حول ذلك: صحيح مسلم بشرح النووى، جـ ١٣ ، صـ ٤ ، والمغازى للواقدى، جـ٢ ، صـ ٥٧٤، وزاد المعاد لابن القيم، جـ٢ ، صـ ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٢) الواقدى: المغازى، جـ٢ ، صـ ٥٧٩.

(٣) نفس المصدر ، صـ ٥٩٣.

(٤) نفس المصدر، صـ ٥٩٤.



مدعيًا أن أصحابه سوف يفرون عنه ويخذلونه إن تصدت له قريش، وكان مما قاله له: «فوالله إنى لأرى وجوهًا وأوشابًا من الناس خُلُقًا أن يفروا ويدعوك». ولكن أبا بكر شتم عروة وصاح فى وجهه: «أنحن نفر وندعه؟!»[١]. وقد لاحظ عروة أثناء هذه السفارة مدى توقير المسلمين لرسول الله ﷺ وامتثالهم لأمره، فرجع إلى قريش وقال لهم: «أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى، والله إن رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا.. إذا أمرهم ابتدروا أمره.. وإذا تكلموا خفضوا عنده أصواتهم، وما يُحدُّون النظر إليه تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها»[٢]. ولكن قريشًا رفضت الإذعان لرأى عروة.

ثم جرت محادثات أخرى بين الرسول ﷺ وقريش[٣]. وكان هدف قريش من كل ذلك ألا يظهروا أمام العرب بمظهر المغلوبين على أمرهم فى حالة دخول المسلمين مكة دون رضاهم، ولهذا وقفت بكل قوتها لتحول بين المسلمين وبين دخولهم مكة عامَهم هذا.

وقد أراد الرسول ﷺ أن يقوم من جانبه بخطوة إيجابية فى سير المفاوضات فأرسل إلى قريش رجلا مقبولا لديهم لا يختلف الكثيرون حوله وهو عثمان بن عفان[٤]. وكانت سفارة عثمان تدور حول نقطة أساسية وهى إقناع قريش بأن الرسول «لم يأت لحرب، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحرمته»[٥].

لم تستجب قريش لسفارة عثمان، وكان كل ما عرضته عليه أن يطوف هو بالبيت إن أراد، فقال عثمان: «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ»! فاحتبسته قريش

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٦٢٦.

(٢) نفس المصدر، صـ ٦٢٧.

(٣) بعد سفارة عروة بن مسعود أرسلت قريش إلى الرسول ﷺ مكْرَز بن حفص فلم تنته سفارته إلى نتيجة مقبولة، ثم أرسلت الحُلَيْس بن علقمة - وهو يومئذ سَيِّد الأحابيش - فلما نظر إلى الهدْى يسيل فى الوادى عليه القلائد واستقبله المسلمون فى وجهه يُلَبُّون رجع ولم يصل إلى النبى ﷺ إعظامًا لما رأى. المغازى، جـ٢، صـ ٥٩٩.

(٤) قبل سفارة عثمان أرسل الرسول ﷺ إلى قريش خراش بن أمية الكعبى الخزاعى وحمله على جمل له يقال له الثعلب «فآذته قريش وعقرت جمَله وأرادت قتله فمنعته الأحابيش»، ثم أراد إرسال عمر فاعتذر بما تكنه له قريش من كراهية، واقترح عليه أن يرسل عثمان. ارجع إلى المغازى، جـ٢، صـ ٦٠٠، وإلى ترجمة خراش بن أمية فى أسد الغابة لابن الأثير، جـ٢ صـ ١٢٥ - ١٢٦.

(٥) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٦٣١.



عندها وأشيع بين المسلمين أنها قد قتلته. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»! ودعا المسلمين إلى بيعته على الثبات وعدم الفرار فى وجه قريش، وقيل: بل كانت بيعة على الموت[1]. وقد بايعه المسلمون تحت شجرة هناك يقال لها «سَمُرة» فهى بيعة الرضوان التى أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴿١٨﴾﴾[2]. وبعد هذه البيعة رجع عثمان إلى المسلمين. وهكذا اتضح أن ما أشيع من أمر قتله باطل[3].

ثم بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو (سيد بنى عامر بن لؤى) وقالوا له: «ائت محمدًا فصالحه؛ ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا؛ فوالله لا تَحَدَّثُ العرب أنه دخل علينا عنوة أبدًا»[4]. وتكلم سهيل مع الرسول ﷺ فأطال الكلام، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح الذى عرف باسم «صلح الحديبية» وتمثلت بنوده فيما يأتى:

١ - أن تتوقف الحرب بين قريش والمسلمين عشر سنين.

٢ - من أحب أن يدخل فى عهد محمد وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل فى عهد قريش وعقدها فعل.

٣ - من جاء إلى محمد من قريش بغير إذن وليه رده إليه، ومن جاء إلى قريش من أصحاب محمد لم ترده.

٤ - يرجع المسلمون عن مكة عامهم هذا ويدخلونها فى العام القادم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام بعد أن تخرج قريش منها وعلى ألا يحمل المسلمون من السلاح إلا السيوف فى القُرُب[5].

وكان الذى كتب كتاب الصلح هو على بن أبى طالب، وعندما طلب منه الرسول ﷺ أن يبدأ الكتاب بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» اعترض سهيل على ذلك وقال: لا

---

(١) الواقدى: المغازى، جـ٢، صـ ٦٠٣.

(٢) سورة الفتح: [١٨].

(٣) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى سيرة ابن هشام، جـ٣، صـ ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٤) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٦٣٣.

(٥) الواقدى: المغازى، جـ٢، صـ ٦١١ - ٦١٢، وسيرة ابن هشام، جـ٣، صـ ٣٦٦ - ٣٦٧.

أعرف الرحمن. اكتب كما نكتب: باسمك اللهم. فأجابه الرسول ﷺ إلى ذلك، ثم طلب من على أن يكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو». وهنا قال سهيل: «لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك!» فوافقه الرسول أيضًا على ذلك [1].

لقد كان هذا الصلح بالشكل الذى تم به وبالبنود التى تضمنها مثار نقاش حاد بين المسلمين واعتراض من بعضهم. فلقد تضمن هذا الصلح - كما رأينا - بندًا يقضى بأن يرد رسول الله ﷺ إلى قريش من جاءه مسلمًا بغير إذن وليه، وألا تفعل قريش ذلك. كما تضمن أيضًا عدم دخول المسلمين مكة ذلك العام بعد أن كانوا على بعد أميال منها. ثم إن سهيلا غالى فى تشدده حينما طلب من الرسول ﷺ أن يمحو عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم»، فضاق المسلمون من ذلك وقالوا: «هو الرحمن!» وقالوا لعلى: «لا تكتب إلا الرحمن!» مما جعل سهيلا يهدد بالانسحاب من الصلح. وقد تشدد سهيل أيضًا حينما طلب من الرسول أن يمحو عبارة «رسول الله». وقد ضج المسلمون من موقفه ذلك «ضجة هى أشد من الأولى حتى ارتفعت الأصوات وقام رجال من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: «لا تكتب إلا محمد رسول الله»! بل يروى أن أُسَيْد ابن حُضَير وسعد بن عبادة أمسكا بيد «على» وقالا: لا تكتب إلا محمد رسول الله، وإلا فالسيف بيننا! علام نعطى هذه الدنية فى ديننا؟! فجعل رسول الله ﷺ يخفِّضهم ويومئ بيده إليهم: اسكتوا! [2] ويروى فى هذا السياق أن عمر بن الخطاب ذهب إلى الرسول ﷺ معترضًا على بنود الصلح وقال له: يا رسول الله، ألسنا بالمسلمين؟! قال: بلى! قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا؟! فقال الرسول: «أنا عبدالله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يُضَيِّعنى». ثم ذهب إلى أبى بكر فقال له مثل ذلك، فقال أبو بكر: «الزم غَرْزَه![3] فإنى أشهد أنه رسول الله وأن الحقَّ ما أُمِر به، ولن نخالف أمْرَ الله ولن يُضَيِّعه الله». وقد أكثر عمر مراجعة الرسول ﷺ فى ذلك حتى قال له أبو عبيدة بن الجراح: «ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله ﷺ يقول ما يقول؟ تعوَّذْ بالله من الشيطان واتهمْ رأيك!» [4].

---

(١) الواقدى: المغازى، جـ٢، صـ ٦١٠ - ٦١١.

(٢) نفس المصدر والموضع.

(٣) أى: الزم أمره، والغَرْزُ للرَّحْل بمنزلة الركاب للسرج.

(٤) الواقدى: المغازى، جـ٢، صـ ٦٠٦.



ومع كل هذه الاعتراضات فقد كان الرسول ﷺ على يقين تام بما اشتمل عليه هذا الصلح من عناصر إيجابية هى بكل تأكيد فى صالح المسلمين والدعوة الإسلامية. ولا شك أن أول وأهم هذه العناصر الإيجابية - أو الميْزات - تتمثل فى فترة الهدنة التى أمن فيها الناس وكف بعضهم عن بعض، فنشطت دعوة الإسلام حين نعمت بذلك المناخ الآمن وضمت إلى صفوفها أعدادًا ما كانت لتظفر بمثلها فى محيط الحرب والصراع. وقد اعترف عمر نفسه بذلك فى قوله: «لما وقعت القضية أى صلح الحديبية أسلم فى الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يوم الحديبية، وما كان فى الإسلام فتح أعظم من الحديبية»[1]. كما عبر أبو بكر عن هذا الرأى فى قوله: «ما كان فتح فى الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصُر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه، والعباد يعجلون، والله تبارك وتعالى لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد الله»[2]. وقد شرح الواقدى هذه الميزة من صلح الحديبية بقوله: «كانت الحرب قد حجزت بين الناس وانقطع الكلام، وإنما كان القتال حيث التقوا، فلما كانت الهدنة وضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضًا، فلم يكن أحد يُكلَّم بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فى الإسلام، حتى دخل فى تلك الهدنة صناديد المشركين الذين يقومون بالشرك وبالحرب - عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأشباهٌ لهم، وإنما كانت الهدنة حتى نقضوا العهد اثنين وعشرين شهرًا دخل فيها مثل ما دخل فى الإسلام قبل ذلك وأكثر، وفشا الإسلام فى كل ناحية امن نواحى العرب»[3]. ودليل هذا القول أن الرسول ﷺ خرج إلى الحديبية فى حدود ألف وخمسمائة من أصحابه، ثم خرج عام فتح مكة، بعد ذلك بأقل من سنتين، فى عشرة آلاف[4]، ولهذا وصف القرآن الكريم صلح الحديبية بأنه فتح مبين فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [5].

وكان بين الميزات الأخرى لصلح الحديبية أن قريشًا اعترفت لأول مرة بالرسول ﷺ على أنه ندها ونظيرها من خلال المفاوضات التى أجرتها معه. ولم تكن قبل ذلك تنظر إليه إلا على أنه ثائر خارج على الشرعية. ولا شك أن اعترافها هذا بالرسول ﷺ كان أساسًا لاعترافها بالدولة الإسلامية التى أقامها بالمدينة، ويضاف إلى ذلك ما تضمنه صلح الحديبية من اعتراف قريش بأن الإسلام دين له كيانه وتأثيره فى شبه الجزيرة

---

(١) نفس المصدر صـ ٦٠٧.

(٢) نفس المصدر صـ ٦١٠.

(٣) نفس المصدر، صـ ٦٢٤ . وقد نقل ابن إسحاق قولا شبيهًا بهذا عن الزُّهْرى . انظر سيرة ابن هشام، جـ٣ ، صـ ٣٧٢، وتاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ٦٣٨.

(٤) سيرة ابن هشام ، جـ٣ ، صـ ٣٧٢.

(٥) سورة الفتح: [١].





العربية؛ وذلك من خلال إقرارها للمسلمين بحق زيارة الكعبة وإقامة الشعائر هناك، ثم اعترافها أيضًا «بأن مكة والمدينة أصبحتا متساويتين»[١].

أما ما رآه فريق من المسلمين فى بعض شروط صلح الحديبية من إجحاف بهم فلم يكن قائمًا على أساس صحيح . وقد تبين للجميع بعد ذلك - كما رأينا - شطط هذا الرأى ، فلم يشكّل عدم رد قريش إلى رسول الله ﷺ من جاءها من المسلمين مرتدًا أى خطورة على عقيدة المسلمين أو كيانهم. . ومن هنا انطوى هذا البند - كما يقول مونتجومرى وات - على «تنازل لمشاعر المكيين لم يكلف المسلمين شيئًا كثيرًا. . وإن حقيقة كون هذا البند من جانب واحد لخير شاهد على اعتقاد محمد بما يتمتع به الإسلام من جاذبية فائقة»[٢].

ولا شك أن عدد من كان يمكن أن يرتد عن الإسلام لم يكن يمثل إلا نسبة ضئيلة جدًا يمكن إسقاطها من الحساب. ثم إن من يرتد من المسلمين عن دينه يفقد كل مبررات انتمائه للمجتمع الإسلامى ولن يخسر المسلمون كثيرًا إذا لم يستردوه. ولهذا قال ﷺ لأصحابه تعليقًا على ذلك: «من أتاهم منا فأبعده الله ! ومن أتانا منهم فرددناه إليهم جعل الله له فرجًا ومخرجًا»[٣]. أما إصرار سُهيل بن عمرو على عدم كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» فى وثيقة الصلح أو على عدم وصف محمد ﷺ بأنه «رسول الله» فإن ذلك لا ينبغى أن يكون له أدنى اعتبار عند المسلمين لأن الله هو الرحمن الرحيم ، ولأن محمدًا هو رسول الله وإن رغمت أنوف المشركين.

من كل هذا يتبين أن صلح الحديبية كان نقطة تحول فاصلة فى تاريخ الدعوة الإسلامية وقد بدأت بعده دولة المدينة تأخذ طابعًا جديدًا.

---

(١) كارين آرمسترونج: سيرة النبى محمد ، صـ ٣٢٧.

(2) M. Watt , Muhammad , Prophet and Statesman, P. 185.

(٣) زاد المعاد لابن القيم، جـ ٢ ، صـ ١٢٧. وقد تحقق ما قاله الرسول ﷺ . فقد جاء أبو جندل ابن سهيل بن عمرو إلى الرسول ﷺ مسلمًا والرسول ما زال مقيمًا فى الحديبية، فسلَّمه إلى أبيه سهيل، وقال لأبى جندل: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجًا ومخرجًا»! ثم لما قدم الرسول ﷺ المدينة من الحديبية أتاه أبو بصير مسلمًا (وأبو بصير هو عتبة ابن أسيد حليف بنى زهرة)، فكتب بنو زهرة إلى الرسول كتابًا يطلبون منه فيه ردَّ أبى بصير إليهم كما يقضى صلح الحديبية، ففعل الرسول وقال لأبى بصير: «يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجًا ومخرجًا». ثم استطاع أبو بصير أن يفلت من قريش وأن يكوِّن عصابة من المسلمين ممن هم فى مثل ظروفه. واتخذ أبو بصير وعصابته مركزًا لهم على ساحل البحر فى الطريق الذى تسلكه عير قريش إلى الشام، وأقضّوا مضجع قريش وهددوا تجارتها، فاتصلت قريش بالرسول ﷺ وسألوه بأرحامهم أن يضم إليه أبا بصير وعصابته فلا حاجة لقريش بهم!! انظر المغازى للواقدى، جـ٢ ، صـ ٦٠٧ - ٦٠٨ ، ٦٢٤ - ٦٢٩.





الفصل الثامن

تطور العلاقة بين المسلمين ويهود المدينة منذ الهجرة حتى صلح الحديبية (١ - ٦ هـ)

سبق أن ذكرنا أن الرسول ﷺ عند قدومه إلى المدينة كتب صحيفة نظم فيها العلاقات بين المسلمين وغيرهم فى مجتمع المدينة. وقد كفلت هذه الصحيفة لليهود حرية الدين والعبادة وأمنتهم على أنفسهم وأموالهم وأعطتهم حق المواطنة الكاملة فى الدولة الإسلامية . وقد أراد الرسول بذلك أن يرسى علاقات من الثقة والود والتفاهم بينه وبين جيرانه من أهل الكتاب ، وهم يهود بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة. ولكن لم يقدّر لهذه العلاقات أن تسير بالصورة التى أرادها رسول الله ﷺ ، فبعد وقت قصير من إنشاء دولة الإسلام بالمدينة بدأ اليهود يكشفون عن حقدهم وتآمرهم على المسلمين، وظهر ذلك فى غير موقف، فعاملهم الرسول ﷺ بما يستحقونه فى كل موقف.

وقد ظهر من اليهود التنديد بالإسلام عندما حول الله القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة فى رجب أو شعبان من السنة الثانية من الهجرة[١]. وإلى هذا أشار الله سبحانه بقوله: ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿١٤٢﴾ ﴾[٢]. وعندما انتصر المسلمون فى بدر بعد ذلك بقليل لم يكتم اليهود حقدهم، وخاصة يهود بنى قينقاع الذين كانوا «أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيما بين بدر وأحد» كما يروى المؤرخون[٣]. وقد أخذوا يهددون المسلمين بالحرب تهديدًا سافرًا بعد انتصار بدر،

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ٣ ، صـ ٢٥١ ، وما بعدها.

(٢) سورة البقرة : ١٤٢.

(٣) سيرة ابن هشام ، جـ٢ ، صـ ٤٢٧ ، وتاريخ الطبرى ، جـ٢ ، صـ ٤٧٩.

ويروى في هذا السياق أن الرسول عندما عرض عليهم الإسلام بعد غزوة بدر قالوا له: «يا محمد، إنك ترى أنا كقومك! لا يغرنّك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة! إنّا والله لئن حاربتنا لتعلمَنَّ أنا نحن الناس!» [1]. ومما كشفوا به عن سوء طويتهم ما ترويه بعض مصادرنا من أن امرأة مسلمة جاءت إلى سوق بنى قينقاع وجلست إلى صائغ يهودى هناك في حُلىٍّ لها، فجاء رجل من يهود بنى قينقاع فجلس خلفها وهى لا تشعر، ثم عقد طرف ثوبها إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا منها، فوثب رجل من المسلمين على اليهودى فقتله، فشدت بنو قينقاع على المسلم فقتلوه، ونبذوا العهد الذى كان بينهم وبين النبى ﷺ وتحصنوا فى حصونهم واستعدوا للقتال»[2].

ومهما يكن من أمر فإن الذى لا مجال للشك فيه أن يهود بنى قينقاع ظهرت منهم بوادر تكشف عن حقد ومكر وتربص بالمسلمين. ولهذا يروى أنه عندما نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [3] قال ﷺ: «إنى أخاف من بنى قينقاع» ثم سار إليهم بهذه الآية[4].

وقد حاصر الرسول ﷺ بنى قينقاع خمس عشرة ليلة (من منتصف شوال إلى هلال ذى القعدة من السنة الثانية للهجرة = مارس / أبريل ٦٢٤م) [5]، ثم نزلوا على حكمه، فأمر بإجلائهم عن المدينة، فتوجهوا إلى أذرعات بالشام، وغنم المسلمون ما كان لهم من مال وسلاح، ولم تكن لهم أرض يملكونها فقد كانوا صاغة. وكان الذى تولى إخراجهم من المدينة بذراريهم عبادة بن الصامت[6].

ثم حذا بنو النضير حذو إخوانهم من بنى قينقاع فى إظهار مكرهم بالمسلمين وتربصهم بهم فواجهوا نفس المصير. ويجدر بنا هنا أن نشير باختصار إلى المقدمات

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٤٧٩.

(٢) راجع على سبيل المثال: المغازى للواقدى، جـ١، صـ ١٧٦ - ١٧٧، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى، جـ١، صـ ١٤٠ - ١٤١.

(٣) سورة الأنفال: [٥٨].

(٤) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٤٨، والمغازى للواقدى، جـ١، صـ ١٨

(٥) المغازى، جـ١، صـ ١٧٦

(٦) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٤٨١





التى سبقت إجلاء رسول الله ﷺ لبنى النضير من المدينة. ففى صفر من السنة الرابعة للهجرة أرسل النبى ﷺ سبعين رجلا من المسلمين[1] إلى أهل نجد لدعوتهم إلى الإسلام، وكان ذلك بناء على اقتراح من سيد قبيلة بنى عامر بن صعصعة، وهو عامر ابن مالك الذى يقال له «ملاعب الأسنة». وقد تعهد عامر هذا أن يجير المسلمين.. ولكن رجلا من عتاة المشركين فى تلك المنطقة، وهو عامر بن الطفيل، لم يبال بهذا الجوار الذى تعهد به عامر بن مالك، فقتل الرسول الذى أرسله إليه هؤلاء المسلمون الدعاة واسمه حرام بن ملْحان، وكان معه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام. ولم يكتف عامر بن الطفيل بذلك بل حاول أن يحرِّض قبيلته بنى عامر على الفتك بدعاة المسلمين فرفض بنو عامر وقالوا: «لن نخْفر أبا براء؛ قد عقد لهم عقدًا وجوارًا!» فحرَّض عليهم بعض قبائل بنى سُلَيْم فاستجابوا له ووثبوا على هؤلاء الدعاة فقاتلوهم حتى قُتلوا عن آخرهم إلا واحدًا نجا وبه رمق، وقد قتل هؤلاء فى مكان يقال له «بئر معونة». وقد اتفق أن وُجد اثنان من المسلمين بالقرب من مكان هذه المجزرة وهما عمرو بن أمية الضمرى (الكنانى) والمنذر بن محمد بن عقبة الأنصارى، ولم يعلما بما حدث إلا عن طريق الطير التى كانت تحوِّم على مكان المجزرة. أما المنذر بن محمد فقد قاتل القوم حتى قتل، وأما عمرو بن أمية فقد أسره عامر بن الطفيل ثم أطلق سراحه عندما علم أنه من مضر. وفى طريق عمرو بن أمية إلى المدينة ليخبر الرسول ﷺ بما حدث لقى رجلين من بنى عامر كان معهما عقد وجوار من الرسول ﷺ لم يعلم به عمرو، فعدا عليهما عمرو فقتلهما وهو يظن أنه أدرك بقتلهما ثأرًا لأصحابه شهداء بئر معونة[2]. وعندما قدم عمرو على رسول الله ﷺ وأخبره الخبر قال له: «لقد قتلت قتيلين لأديَنَّهما»[3]، أى لأدفعن ديتهما. ثم لم يلبث عامر بن الطفيل أن أرسل إلى الرسول ﷺ يطلب منه دية هذين القتيلين.

ورغم ما فعله عامر بالمسلمين فى بئر معونة فلم يكن من خُلُق رسول الله ﷺ ولا المسلمين الغدر ونقض العهود؛ ولهذا تكفّل الرسول ﷺ بدفع دية القتيلين حتى قبل أن يتصل به عامر بن الطفيل بهذا الشأن كما أشرنا الآن. وقد لجأ الرسول إلى يهود بنى النضير يطلب منهم العون فى هذه الدية؛ وذلك بحكم ما تم بين المسلمين ويهود

---

(١) وقيل: كانوا أربعين. انظر الكامل لابن الأثير، جـ ٢، صـ ١٧١، وسيرة ابن هشام، جـ٣، صـ١٨٥.

(٢) راجع التفاصيل فى تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٥٤٥ وما بعدها، وسيرة ابن هشام، جـ٣، صـ ١٨٤ وما بعدها.

(٣) سيرة ابن هشام، جـ٣، صـ١٨٦.



المدينة من اتفاق قام على أساس التعاون والتضامن بينهما وعلى أن اليهود «ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين».[1] ورغم أن يهود بنى النضير وعدوا الرسول ﷺ بأن يعينوه فإنهم تآمروا عليه ليقتلوه وهو لم يبرح بعدُ ديارهم. فيروى المؤرخون أن الرسول ﷺ لما ذهب إليهم يستعينهم فى دية القتيلين «قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه! ثم خلا بعضهم إلى بعض فقالوا: إنكم لن تجدوا هذا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فقالوا: مَنْ رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيقتله بها فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك» [2]. وقد أدرك الرسول ما يجرى حوله، وذلك من خلال ما لاحظه من تصرفات مريبة ليهود بنى النضير أثناء لقائه بهم. ومما أكد الريبة فى نفسه ما كان يبلغه عنهم من ائتمار به وحقد عليه، وقد قوَّى الله يقينه بما يبيت اليهود من غدر[3]، ولذلك انسحب من ديارهم، ثم أرسل إلى محمد بن مسلمة من الأوس فقال له: «اذهب إلى يهود بنى النضير فقل لهم: «اخرجوا من بلادى فلا تساكنونى وقد هممتم بما هممتم به من الغدر»[4]. ولكن بنى النضير رفضوا الاستجابة لذلك وأبوا إلا الحرب بتشجيع من عبد الله بن أُبىّ بن سلول. وقد قاد بنى النضير فى تحديهم للرسول ﷺ زعيمهم حُيَىّ بن أخطب[5]. وهنا لم يجد الرسول ﷺ بدًا من المسير إليهم، فحاصرهم خمسة عشر يومًا [6] حتى صالحوه على أن يُجليهم ويحقن لهم دماءهم على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلْقة (أى السلاح)[7]، وولى إخراجهم من المدينة محمد بن مسلمة[8]؛ فمنهم من سار إلى خيبر، ومنهم من سار إلى أذرعات بالشام. وكان من بين من سار إلى خيبر من أشرافهم سلام ابن أبى الحُقَيق وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق، وحُيَىٌّ بن أخطب، فلما نزلوها

(١) انظر صـ ١١٦ فيما سبق.

(٢) سيرة ابن هشام جـ٣ ، صـ ١٩١ ، وتاريخ الطبري، جـ٢ ، صـ ٥٥١ ، الكامل لابن الأثير، جـ٢ ، صـ ١٧٣.

(٣) د. محمد حسين هيكل: حياة محمد، صـ ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٤) تاريخ الطبري ، جـ٢ ، صـ ٥٥٢.

(٥) الواقدى: المغازى، جـ١ ، صـ ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٦) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٥٣ ، والمغازى ، جـ١ ، صـ ٣٧٤، ويذكر ابن هشام (جـ٣ ، صـ١٩٢) أن الرسول حاصرهم ست ليال.

(٧) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٥٥٤.

(٨) المغازى ، جـ١ ، صـ ٣٧٤.



دان لهم أهلها[١]. وكان حصار الرسول ﷺ لبنى النضير فى شهر ربيع الأول سنة ٤ هـ (أغسطس ٦٢٥م) . وفـى حصار بنى النضـير وجلائهم نزلت سـورة الحشر بأكـملها، وهى السورة التى يروى أن ابن عباس كان يسميها سورة بنى النضير[٢].

أما بـنو قريـظة فقـد أشرنا إشـارة سريـعة عند حـديثـنا عن غزوة الـخندق (أو الأحزاب) إلى سبـب انهيار التحالـف بينهم وبين المسلـمين. ذلك أنهم نقضـوا العهد الذي كان بينــهم وبين رسول الله ﷺ بانضمــامهم إلى الأحزاب من قريـش ويهود بنى النضير وغطفان وغيرهم فى حربهم للمــسلمين بالمدينة. يروى ابن إسحاق أن حيى بن أخطب النَّضَرى أتى كـعب بن أسد زعيم بنى قريظـة الذى كان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاقده عـلى ذلك، فمازال به يحرضه على نقض التحـالف بينه وبين رسول الله ﷺ حتى استجاب لـه كعب بعد أن أعطاه حيى بن أخطب عهدًا ومـيثاقًا أن يدخل معه فـى حصنه ليصـيبه ما قـد يصيب بنى قـريظة لو أن قريشًـا وغطفان وغيـرهم من الأحزاب رجعوا دون أن يـصيبوا محمدًا، «فـنقض كعب بن أسد عهده وبـرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ »[٣].

وأصبح موقف المسلمين وهم محاصـرون فى المدينة فى غاية الحرج بنقض بنى قريظة عهـدهم مع الرسول؛ فقد أصـبح عدوهم يحيط بهم من كـل جانب، فى داخل المدينة وخـارجها، وجاء هذا الغـدر فى لحظة فاصلة بالنسـبة للمسلمـين. وقد صور القرآن الكريم هذا المـوقف في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [٤].

وسارت غزوة الأحزاب بالصورة التى عـرضناها قبل ذلك، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خـيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال. وبعد انـسحاب الأحزاب كان على الرسول ﷺ والمسلـمين أن يتعاملوا مع هذا العدو الداخلى بمـا يستحق؛ ذلك لأن ما قام به بنو قـريظة كان يمثل ذروة الغـدر والخيانة، ولعل هـذا يتضح مما قالـه سعد بن معاذ لسعد بن عبادة حين حاول الأخير أن يذكِّر بنى قريظة بالعهد بينهم وبين رسول الله

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ ٢صـ ٥٥٤.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٤، صـ ٧٦.
(٣) سيرة ابن هشام، جـ٣، صـ ٢٣٦ ـ ٢٣٧.
(٤) سورة الأحزاب: [١٠ ـ ١١].



ﷺ فقالوا له: «مَنْ رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد»، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وهنا قال سعد بن معاذ لسعد بن عبادة: «دع عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة»[1].

من الواضح ـ إذن ـ أن ما ارتكبه بنو قريظة من غدر كان يستحق وقفة حاسمة؛ ولهذا لم يكد ينصرف الأحزاب عن المدينة حتى أذن مؤذِّن رسول الله ﷺ فى الناس: «من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلِّينَّ العصر إلا ببنى قريظة»[2]! فسار المسلمون من فورهم إلى حصون بنى قريظة فى المدينة، وذلك يوم الأربعاءِ لسبع بقين من ذى القعدة فى السنة الخامسة من الهجرة(أبريل (٦٢٧م) وحاصروهم خمسة عشر يومًا[3] حتى «جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب»[4]. وهنا بدأوا يتشاورون فيما بينهم: ماذا يصنعون؟ وقد عرض عليهم زعيمهم كعب بن أسد ثلاثة اختيارات: أن يعتنقوا الإسلام، أو أن يقتلوا نساءهم وأبناءهم ثم يجاهدوا المسلمين دون مبالاة بالموت، أو أن يباغتوا المسلمين بالهجوم ليلة السبت حيث لا يتصور أحد أن يحدث ذلك؛ لأن السبت عند اليهود يوم راحة وعبادة لا يوم عمل وقتال. وقد رفض اليهود كل هذه الاختيارات. فقالوا عن تبرير رفضهم لاعتناق الإسلام: «لا نفارق حكم التوراة أبدًا ولا نستبدل به غيره». وقالوا عن تبرير رفضهم لقتل نسائهم وأبنائهم ليستطيعوا مهاجمة المسلمين: «نقتل هؤلاء المساكين؟! فما خير العيش بعدهم؟!» . أما تبريرهم لرفض القتال ليلة السبت فقد قام على أساس ألا يُفسدوا سبتهم عليهم. وقد قال لهم كعب بن أسد بعد رفضهم لكل مقترحاته: «ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا!»[5].

وبعد محاولة الاتصال برسول الله ﷺ والتفاوض معه رضى بنو قريظة بأن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ زعيم الأوس. وكان بنو قريظة حلفاء الأوس؛ ولهذا طمعوا فى أن يرفق بهم سعد. وكلم بعض رجال الأوس سعدًا فى ذلك فكان جوابه: «قد أنى لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم!» وكان سعد قد أصيب فى غزوة الخندق ـ كما تقدم ـ

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ٢ صـ ٥٧٢ . وأرْبى : أى أعظم وأشد.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ٣ ، صـ ٢٥٢.

(٣) الواقدى: المغازى، جـ ٢ ، صـ ٤٩٦. ويذكر ابن إسحاق أن الحصار استمر خمسًا وعشرين ليلة. انظر سيرة ابن هشام، جـ٣ ، صـ ٢٥٤.

(٤) سيرة ابن هشام ، جـ٣ ، صـ ٢٥٤.

(٥) نفس المصدر: صـ ٢٥٤ ـ ٢٥٥.



وجئ به محمولا إلى رسول الله ﷺ ليحكم فى بنى قريظة. وقد نظر سعد إلى بشاعة الجرم الذى ارتكبه بنو قريظة واستنتج أن العفو عن أمثال هؤلاء يجعل المسلمين لا يأمنون تجدد غدرهم بصورة أبشع وأقسى. ولهذا حكم بأن تقتل رجالهم وتقسم أموالهم وتُسْبى ذراريهم ونساؤهم[١]. فقال له رسول الله : أصبت حكْم الله فيهم[٢]!

وهكذا شهدت المرحلة الأولى من حياة الرسول ﷺ بالمدينة (١ ـ ٦ هـ) نهاية التجمع اليهودى هناك، بكل ما ارتبط به من مؤامرات ودسائس[٣]، ولم يكن ذلك إلا لأن اليهود لم يحترموا عهودهم مع المسلمين ولم يقيموا اعتبارًا لما يتطلبه الجوار المشترك معهم من علاقات تعاون ومودة وتآلف. والجدير بالملاحظة هنا أن كثيرًا من الباحثين الغربيين اتخذوا من موقف الرسول ﷺ من يهود المدينة وسيلة للهجوم على الإسلام واتهامه بالعنصرية والقسوة على المخالفين فى الرأى والمذهب. وكان ما تعرض له يهود بنى قريظة بصفة خاصة هو أكثر ما أثار هؤلاء على أساس أنه من وجهة نظرهم يشبه ما حلّ بهم على يد النازيين. وقد تصدت المستشرقة البريطانية «كارين آرمسترونج» لهذه التهم وفندتها. فهى ترى «أن صراع محمد ﷺ مع القبائل اليهودية الرئيسية الثلاث كان مختلفًا تمامًا عن الكراهية الدينية والعرْقية التى أدت إلى أن يشعل مسيحيو أوروبا المذابح لمدة تقرب من ألف عام»[٤]. كما تؤكد الباحثة أن الصراع مع يهود المدينة كان ذا طابع سياسى محض، فلم يكن بوسع المؤمنين أن يؤوا عدوًا لهم بينهم ببساطة. وفيما يتعلق بموقف الرسول ﷺ من يهود بنى قريظة وما يبدو فيه من قسوة، تشير «آرمسترونج» إلى «أن القرظيين أوشكوا أن يدمروا المدينة، ولو أن محمدًا أطلق سراحهم لعملوا على زيادة معارضة اليهود فى خيبر، ولنظموا هجومًا آخر ضد المدينة حيث لم يكن هناك ضمان لأن يحالف الحظ المسلمين مرة أخرى، كما أن المعركة الدموية من أجل البقاء كانت ستستمر إلى ما لا نهاية، ويستمر معها المعاناة والموت»[٥]. ولم يفت «كارين آرمسترونج» أن تؤكد أن هذا الحادث لم يؤثر فى موقف

---

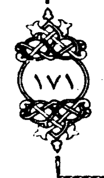
(١) نفس المصدر: صـ ٢٥٨ ـ ٢٥٩

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٤، صـ ١٢٤.

(٣) ومع ذلك لم ينته الوجود اليهودى تمامًا من المدينة بالقضاء على بنى قريظة فقد ظل هناك أفراد وأسر متعددة تتمتع بالأمن على الأنفس والأموال وبحرية العقيدة. انظر المغازى للواقدى، جـ٢، صـ ٦٣٧

(٤) كارين آرمسترونج سيرة النبى محمد، صـ ٢٧٧

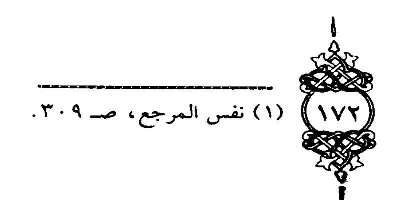
(٥) نفس المرجع، صـ ٣٠٨



المسلمين من اليهـود ، فقد تعايشت المجموعات الدينية المخـتلفة جنبًا إلى جنب في ظل الدولة الإسلامـية المترامية الأطـراف. وتؤكد الباحثة أن «المـعاداة للسامية خـطيئة مسيـحية غربـية وليست خطيـئة إسلاميـة. . . ففى ظل الإمبـراطورية الإسلاميـة تمتع اليهـود، مثلهم مثـل المسيحـيين ، بحريـة دينية كاملـة. . . ولم يعان اليهـود فى ظل الإسلام قط ما عانوه فى ظل المسيحية»[1].

***

هذا؛ ولم تنته قـصة المسلمين مع اليهـود بما كان بينهم وبين بنى قـريظة، فقد كانت لهم مع يهود خيبر ـ خارج المدينة ـ قصة أخرى سنناقشها بعد قليل.



(١) نفس المرجع، صـ ٣٠٩.

الفصل التاسع

من صلح الحديبية حتى عام الوفود (٦ - ٩هـ)

اتساع نطاق الدعوة وتأكيد هيبة الدولة

شهدت المرحلة التى أعقبت صلح الحديبية حتى عام الوفود (٦ - ٩ هـ / ٦٢٨ - ٦٣٠م) نشاطًا ملحوظًا للدعوة الإسلامية، سواء أكان ذلك داخل شبه الجزيرة العربية أم خارجها. ثم إن هذه المرحلة شهدت أيضًا عددًا من الأحداث التى كان لها تأثيرها فى دعم هيبة الدولة الإسلامية فى الداخل والخارج.

وسوف نتناول فى هذا الفصل - باختصار وتركيز - النقاط التالية :

١ - كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك.

٢ - فتح خيبر.

٣ - عمرة القضاء.

٤ - سرية مؤتة.

٥ - فتح مكة.

٦ - غزوة حنين والطائف.

٧ - غزوة تبوك.

١ - كتب رسول الله إلى الملوك:

تجمع مصادرنا التاريخية على أن الرسول ﷺ أرسل كتبه إلى ملوك العالم وأمرائه يدعوهم فيها إلى الإسلام بعد صلح الحديبية، ولكنها لا تتفق على تاريخ إرسال

هذه الكتب على وجه الدقة. فتذكر بعض المصادر أنها أرسلت فى ذى الحجة ٦هـ[١]، وتذكر مصادر أخرى أن إرسالها بدأ فى سنة ٧ هـ[٢]. والجدير بالملاحظة أن الأعوام التالية شـهدت مزيدًا من هذه الكتب. ومـما يذكره الطبرى فى هذا السـياق ـ رواية عن ابن إسحاق ـ أن الرسـول ﷺ «فرّق رجالا من أصحابه إلى ملوك العـرب والعجم دعاة إلى الله عز وجل فيما بين الحديبية ووفاته»[٣].

اختار الرسول ﷺ عددًا مـن صحابته لحمل كتبه إلـى الملوك والأمراء؛ فأرسل دحية بن خليفة الكلبى بكتابه إلى امـبراطور الروم، وحاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر، وعبدالله بن حذافة السهمى إلى امبراطور الفرس، وعمرو بن أمية الضمرى إلى النـجاشى ملك الـحبشـة، وشجاع بـن وهب الأسدى إلى الـحارث بن أبى شـمر الغسانى، وسليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى صاحب اليمامة[٤]. وكان ذلك فى العام السابع للـهجرة على أرجح الأقوال[٥]. وفى العام الثامـن للهجرة أرسل عمرو بن العاص (وكان قد أسلم منذ زمن قصير) إلى جَيْفَر وعباد ابنى جُلُنْدَى صاحبى عُمَان، وأرسل العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين[٦].

وتذكـر مصـادرنا بعض نصـوص الكتـب التى أرسلهـا الرسـول ﷺ إلى هؤلاء الملوك. فمن ذلـك كتابه إلى هرقل امبـراطور الروم، وهذا نصه كما يرويـه البخارى: «بسم الله الرحـمن الرحيم، من مـحمد بن عبـدالله ورسوله إلى هرقل عـظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثـم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شـيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»[٧].

---

(١) تاريخ الطبـرى، جـ٢ ، صـ ٦٤٤ ، والكامل لابن الأثير، جـ٢ ، صـ ٢١٠، ومروج الذهب للمسعودى، جـ٢ ، صـ ٢٩٦.

(٢) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ١ ، صـ ٥٣١.

(٣) تاريخ الطبرى، جـ٢ ، صـ ٦٤٥.

(٤) نفس المصدر، صـ ٦٤٥ ـ ٦٤٦ ، وأنساب الأشراف ، جـ١ ، صـ ٥٣١.

(٥) أنساب الأشراف ، جـ١ ، صـ ٥٣١.

(٦) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٢٩. هذا؛ ويقدم لنا اليعـقوبى مزيدًا من أسماء رسل النبى ﷺ إلى الملوك. فـمن هؤلاء جرير بن عبـدالله البجلى إلى ذى الكلاع الحـميرى، وعمار بـن ياسر إلى الأيهم بن النعمان الغسـانى، والمهاجر بن أبى أمية إلى الحارث بن عبـد كلال الحميرى. تاريخ اليعقوبى، جـ ٢، صـ ٧٨.

(٧) صحيح البخارى ، جـ٤ ، صـ ٥٧.

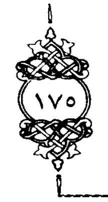


وهذا نص كتـابه إلى امبراطور الفرس: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلـى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله إلى الناس كافة لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين. فأسلم تسلم، فإن توليت فإن عليك أثام المجوس»(١).

يقدم لنا هذان الكتابان مثالا لجوهر ما تضمنته كتب الرسول ﷺ الأخرى إلى الملوك والأمراء. فهى تدور حول دعوة هؤلاء بالحسنى إلى اعتناق الإسلام. ولا نجد فى إرسال الرسول لهذه الكتب ما يدعونا إلى الدهشة لأن الرسول ﷺ مكلف بإبلاغ رسالته إلى البشر جميعًا بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا تتجاوز مهمته هذا النطاق. أما الأمر المدهش حقًا فهو أن نجد من المستشرقين من ينكر وثاقة هذه الكتب على أساس أن الإسلام دين موجه إلى العرب فحسب، وقد تجاوز عدد من هذه الكتب حدود شبه الجزيرة العربية؛ ومن هنا فهم يعتقدون أنها من إضافات المتأخرين دفاعًا عما يتصورونه من عالمية الإسلام. ومن بين المستشرقين الذين يتبنون هذا الرأى «فازيليف»(٢) و«جروبناوم»(٣) و «جلوب» (٤) و «كارين آرمسترونج»(٥).

والحق أن عالمية الإسلام حقيقة أثبتها القرآن نفسه ولم يخترعها المتأخرون، ويتضح ذلك من العديد من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾(٦)، وقوله سبحانه: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** (١) ﴾ (٧). ثم إن أقدم مصادر السيرة أثبتت بعض هذه الكتب، وعلى رأسها صحيح البخارى. ونضيف إلى ذلك أن إرسال هذه الكتب ينسجم تمامًا مع واقع حياة الرسول ﷺ بعد البعثة ومع مقتضيات دعوته(٨). وقد استعظم بعض المستشرقين أن يُقدم الرسول ﷺ على إرسال كتب إلى رجال فى مكانة كسرى وقيصر دون أن يخشى بطشهم. ولكن حياة الرسول ﷺ تنبئنا أنه كان لا يبالى بما يلاقى فى سبيل

(١) تاريخ اليعقوبى، جـ٢، صـ ٧٧.
(2) A . A . Vasiliev, History of the Byzantine Empire, P. 211.
(3) G. E. Von Grunebaum, Classical Islam, P. 42.
(4) J. Glubb, The Great Arab Conpuests, P. 89 f.
(٥) كارين آرمسترونج: سيرة النبى محمد، صـ ٣١٤.
(٦) سورة سبأ: [٢٨].
(٧) سورة الفرقان: [١].
(٨) للمزيد من التفصيل حول ذلك ارجع إلى: د. عبد الرحمن سالم: المسلمون والروم فى عصر النبوة صـ وما بعدها.



الدعـوة، وهذا ما رأيناه فـى رحلة الطائف، وفـى دعوته عتـاة المشـركين إلى اعـتناق الإسلام فى مواسم العرب ، وفى غير ذلك من المواقف.

ليس هناك إذن ما يدعـونا إلى الشك فى وثاقة هذه الكتب. والـجدير بالذكر أن أصداء هـذه الكتب لدى الـملوك والأمراء كـانت مـتبايـنة؛ فمنـهم من رد ردًّا جميلا كالمقوقس الذى أهدى إلى الرسول ﷺ جاريـتين منهن مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ(1)، وكالنجاشـى الذى أكرم رسول رسول الله ﷺ وذكر الإسلام بـالثناء، بل يروى بعض المؤرخين أنه أسلم(2)، وإن كان ذلك لم يثبت ثبوتًـا قاطعًا. ومن الملوك من رد ردًّا قبيحًا كما فعل إمبراطور الـفرس الذى مزق كتاب رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ عندما علم بذلك: «مُزِّق ملكه»(3)!

لم تسفر هذه الكـتب عن إسلام الكثير ممن أرسلت إليـهم، ولكنها ـ مع ذلك ـ أتاحت لهم فرصة التعرف على دعوة الإسلام والتفكـير فيها، وكان ذلك مقدمة لانتشار هذه الدعوة خارج شبه الجزيرة العربية فى وقت لاحق.

٢ ـ فتح خيبر (صفر ٧ هـ ـ مايو ٦٢٨م) وإخضاع يهود شبه الجزيرة:

كانت خيبر (شمالى المدينة) من أهم المـراكز اليهودية فى شبه الجزيرة العربية.

وقد انضم إلى يهود خيبر الأصليين بعض اليهود الذين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة، وخاصة يهود بنى النضير. فليس مـن المستغرب ـ إذن ـ أن تصبح خيبر مركزًا للتآمر اليهودى ضد المسلمين. ومن هنا أراد الرسول ﷺ أن يقضى على شوكة اليهود فى هذا المعقل الحصين حتى يؤمِّن دولة الإسلام من كيد طائفة تُعدُّ من أخطر أعدائها.

وقد تميزت خـيبر بحصونها المنيـعة وبما تشتمل عليه هذه الـحصون من العدد والعُدَّة. ولهذا كان أهلـها ـ فى مكرهم بالمسلمين ـ لا يبالون بـهم، و«كانوا يُخرجون كل يوم عشرة آلاف مـقاتل صفوفًا ثم يقولـون: محمد يغزونا؟ هيهـات! هيهات!»(4).
وكان من تبقى بـالمدينة من اليهود يقولون لـلمسلمين: «ما أَمْنَعَ والله خيـبرَ منكم! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم!»(5).

---

(1) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ، صـ ٤٧.
(2) ابن الأثير: أسد الغابة ، جـ ١ ، صـ ١١٩ ، والبلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ١ صـ ٤٣٨.
(3) تاريخ الطبرى ، جـ٢ ، صـ ٦٥٤.
(4) الواقدى: المغازى، جـ٢ ، صـ ٦٣٧.
(5) نفس المصدر والصفحة.



وكان من الضرورى أن يضع الرسول ﷺ حداً لهذا الخطر الذى يهدد أمن الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة . ولهذا خرج فى صفر من العام السابع للهجرة [١] (مايو ٦٢٨م) على رأس ألف وأربعمائة من أصحابه، من بينهم مائتا فارس[٢]، متوجهًا نحو خيبر: وكان اليهود عشرة آلاف مقاتل يقودهم كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق[٣]. وقد استعانت اليهود بحلفائها من العرب من أسد وغفار وغيرهما، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة[٤]. ومع كل ما حفلت به خيبر من عدد وعتاد، ورغم المقاومة العنيدة التى أبداها أهلها، فقد أخذت حصونها تتساقط أمام استبسال المسلمين وإصرارهم على فتحها. وقد استطاع المسلمون أن يستولوا على حصون «النَّطاة» و «الشِّق» و «الكتيبة» . ويضم كل حصن من هذه الحصون الأساسية عددًا من الحصون الداخلية المنيعة. وكان حصن «ناعم» من أمنع حصون النّطاة، وبه عدد من شجعان اليهود الذين قتلوا أثناء هجوم المسلمين على الحصن ، ومن أبرزهم الحارث، ومرحب وياسر وأُسير وعامر[٥]. وكان حصن «النِّزار» من أمنع حصون «الشِّق» وهو الذى أُسِرت فيه صفية بنت حُيىّ بن أخطب التى أصبحت فيما بعد إحدى أمهات المؤمنين. أما أمنع حصون الكتيبة فهو حصن «القَموص»، وكان اليهود بقيادة كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق قد تحصنوا فيه بعد استيلاء المسلمين على حصون النّطاة والشِّق، «فما هو إلا أن قيل: هذا رسول الله ﷺ قد أقبل من الشق فى أصحابه ، وقد تهيأ أهل القموص وقاموا على باب الحصن بالنَّبْل، فنهض كنانة إلى قوسه فما قدر أن يُوتِرها من الرِّعدة، وأومأ إلى أهل الحصون: لا ترموا! وانقمع فى حصنه، فما رُئى منهم أحد ، حتى أجهدهم الحصار وقذف اللهفى قلوبهم الرعب»[٦].

وهكذا استسلم حصن القموص. ثم كان آخر ما استولى عليه المسلمون من حصون خيبر حصن «الوطيح» وحصن «السُّلالم»[٧] ، وقد ضرب الرسول ﷺ عليهما

---

(١) نفس المصدر، صـ ٦٣٤ .

(٢) نفس المصدر ، صـ ٦٩٨ ، ويذكر ابن شاكر الكتبى أن جيش الرسول تكوَّن من ١٤٠٠ راجل ومائتى فارس. انظر : عيون التواريخ ، جـ١ ، صـ ٢٦٤ .

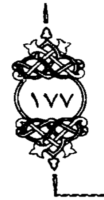
(٣) المغازى ، جـ٢ ، صـ ٦٤٢ .

(٤) نفس المصدر ، صـ ٧٠٢ .

(٥) نفس المصدر ، صـ ٦٥٧ .

(٦) نفس المصدر ، صـ ٦٧٠ .

(٧) سيرة ابن هشام ، جـ٣ ، صـ ٣٨٣ .



حصارًا دام أربعة عشر يومًا، ثم طلب أهل الحصنين الصلح فأجابهم الرسول إليه(١). والجدير بالذكر هنا أن الرسول ﷺ عامل أهل خيبر - بعد استسلامهم - معاملة تتسم باللين والتسامح؛ فقد حقن لهم دماءهم وأقرهم على أرضهم يزرعونها على أن يكون لهم نصف ما تنتجه وللمسلمين النصف. وكان اليهود هم الذين اقترحوا على الرسول ﷺ أن يبقيهم على أرضهم قائلين له: «نحن أعْلَمُ بها منكم وأعْمَر لها»(٢). وعندما تم الاتفاق السابق بين الرسول ﷺ ويهود خيبر اشتكى اليهود إلى الرسول ﷺ من أن بعض المسلمين يدخلون أرضهم فيأخذون من ثمارها، فأمر الرسول ﷺ من ينادى فى المسلمين: الصلاة جامعة! فلما اجتمع المسلمون قام فيهم خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن اليهود شكوا إلىَّ أنكم وقعتم فى حظائرهم، وقد أمَّنَّاهم على دمائهم وعلى أموالهم والذى فى أيديهم من أراضيهم، وعاملناهم؛ وإنه لا تحل أموال المعاهَدين إلا بحقها»(٣). فاستجاب جميع المسلمين لتوجيه الرسول ﷺ . وقد تم فتح خيبر فى صفر ٧ هـ (مايو ٦٢٨م).

هذا؛ وقد كانت لليهود مراكز أخرى بالقرب من خيبر، وهى فَدَك وتيماء ووادى القرى، وعندما علم يهود فدك بما جرى لجيرانهم من يهود خيبر تملَّكهم الرعب فقبلوا أن يصالحوا الرسول ﷺ على نصف أموالهم دون قتال. ومن هنا أصبحت فدك خالصة لرسول الله ﷺ ولم تصبح فيئًا كخيبر ؛ لأن المسلمين لم يُجْلبوا عليها بخيل ولا ركاب، أى لم يقاتلوا دونها(٤).

أما يهود وادى القرى فإنهم لم يذعنوا منذ البداية بل قاتلوا حتى اضطروا إلى التسليم وصالحوا رسول الله ﷺ على ما صالحه عليه أهل خيبر، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٧ هـ(٥). وأما يهود تيماء فقد أذعنوا للمسلمين دون قتال، وقبلوا أن يدفعوا الجزية بعد أن بلغهم ما آلت إليه مقاومة خيبر ووادى القرى(٦). وهكذا دان اليهود للمسلمين ولم يعودوا يشكلون خطرًا على مسار الدعوة الإسلامية، ولكنهم فى

---

(١) المغازى، جـ٢ ، صـ ٦٧٠.
(٢) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ١٥.
(٣) الواقدى : المغازى، جـ٢ ، صـ ٦٩١.
(٤) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ١٥.
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان صـ ٤٧ ـ ٤٨.
(٦) نفس المصدر ، صـ ٤٨ ، والمغازى جـ٢ ، صـ ٧١١.

الوقت نفسه وجدوا من الرسول ﷺ كامل الرعاية لعهوده معهم فتمتعوا بالأمن على أنفسهم وأموالهم وبحرية العقيدة.

٣ ـ عُمْرة القضاء: (ذو القعدة ٧ هـ ـ مارس ٦٢٩م):

ذكرنا أن مشركى قريش صدوا رسول الله ﷺ والمسلمين عن المسجد الحرام فى ذى القعدة سنة ٦ هـ عندما ذهبوا معتمرين. وقد آل الأمر إلى عقد صلح الحديبية بين الرسول وقريش، وكان من بين بنود هذا الصلح أن يخرج المسلمون معتمرين بعد انقضاء العام على أن تُخْلى قريش مكة لهم ثلاثة أيام، فلما انقضى العام خرج الرسول ﷺ فى ذى القعدة سنة ٧ هـ معتمرًا عمرة القضاء، وخرج معه المسلمون ممن كانوا فى عمرته تلك، فأخلت قريش لهم مكة فدخلها الرسول ﷺ والمسلمون فأقاموا بها ثلاثًا، وقضوا عمرتهم ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة بعد أن ملأوا أرجاء مكة بذكر الله وأعلنوا فيها شعار الإسلام[١]. ورغم إخلاء قريش مكة للمسلمين فإنها كانت بحيث تستطيع أن ترقب هذا الحشد الهائل من المسلمين الذين جاءوا ليطوفوا بالبيت العتيق فى مشهد يأخذ بمجامع القلوب، ولا شك أن ذلك كان له عميق الأثر فى نفوس الكثيرين[٢].

٤ ـ سرية مؤتة: (جمادى الأولى ٨ هـ ـ سبتمبر ٦٢٩م):

أرسل الرسول ﷺ أحد أصحابه ـ وهو الحارث بن عمير الأزدى ـ إلى ملك بصرى ـ أحد ملوك الغساسنة بالشام ـ بكتاب له يدعوه فيه إلى الإسلام، فاعترض طريقه شرحبيل بن عمرو الغسانى وقتله فى مؤتة[٣]. وعندما أرسل الرسول ﷺ شجاع ابن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى أساء الأخير استقبال مبعوث رسول الله ﷺ وهدد بإعلان الحرب على المدينة[٤]. ثم إن إساءات عرب الشام

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول عمرة القضاء ارجع إلى: سيرة ابن هشام، جـ ٣، صـ ٤٢٤ وما بعدها.

(٢) تقول كارين آرمسترونج: «ودهشت قريش حين شاهدت جموع المسلمين كلها وهى ترحل عن البلدة مع هبوط الظلام، وكان النظام الذى تسير به يبدو بعيدًا عن تصور أبناء مكة إذ كانت الفُرْقة والفوضى بينهم من العوامل التى أدت إلى سقوطهم». انظر كتابها: سيرة النبى محمد، صـ ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٢، صـ ١٢٨، وجـ٤، صـ ٣٤٣. والواقدى: المغازى، جـ٢، صـ ٧٥٥.

(٤) تاريخ الطبرى، جـ٢، صـ ٦٥٢.



للمسلمين تجاوزت ذلك كله عندما أرسل الرسول ﷺ (فى ربيع الأول سنة ٨ هـ) خمسة عشر من أصحابه بقيادة كعب بن عمير الغفارى إلى مكان يقال له : «ذات أطلاح» بالشام فوثبت عليهم «قضاعة» بجموعها فقتلتهم جميعًا إلا واحدًا نجا وبه رمق، فاستطاع أن يصل إلى الرسول ﷺ ويخبره بما حدث[١].

اجتمعت هذه الأسباب كلها لتجعل الرسول يتخذ قرارًا بتأديب عرب الشام الموالين للروم. وإذا كان قتل الغساسنة لمبعوث رسول الله ﷺ إلى ملك بُصْرى يشكل دافعًا قويًّا وراء القرار فلا شك أن أقوى هذه الدوافع كان فتك قضاعة بالدعاة المسلمين فى ذات أطلاح ، وهو الذى حدث قبل سرية مؤتة بحوالى شهرين.

هكذا أعدّ الرسول ﷺ جيشًا بلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل ليقوم بمهمة محددة وهى تأديب عرب الشام الذين تطاولوا على المسلمين واستباحوا دماءهم، وجعل أمير الجيش زيد بن حارثة، فإن أصيب فالأمير جعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فعبدالله بن رواحة.

تحرك الجيش الإسلامى من المدينة فى اتجاه الشام فى جمادي الأولى سنة ٨هـ (سبتمبر ٦٢٩م). وكان الرسول قد أوصى زيد بن حارثة ورجاله أن يتوجهوا إلى مؤتة، حيث قتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام. «فإن أجابوا ، وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم»[٢].

والواضح أن عرب الشام عندما سمعوا بتحرك الجيش الإسلامى استعانوا بالروم؛ ذلك أننا نقرأ فى مصادرنا أن جيش العدو بلغ مائتى ألف: مائة ألف من عرب الشام المتنصرة، ومائة ألف من الروم[٣]. وقد يكون فى هذا الرقم قدر من المبالغة، ولكن الذى لا شك فيه أن جيش العدو بلغ أضعاف الجيش الإسلامى.

سار زيد بن حارثة بجيشه حتى نزل «معان» (وهى إلى الشمال الشرقى من مدينة أيلة) ، وفى معان علم المسلمون أن جيش العدو قد نزل «مآب» من أرض البلقاء، وقد فاقت أعداده كل توقعاتهم[٤].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٢ ، صـ ١٢٧، والواقدى: المغازى، جـ٢ ، صـ ٧٥٢ - ٧٥٣.

(٢) الطبقات الكبرى، جـ٢ ، صـ١٢٨.

(٣) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٣٧.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

وعندما فوجئ المسلمون بما لم يكونوا يحتسبون من ضخامة جيش العدو تشاوروا فيما بينهم: ماذا يصنعون؟ ولكن عبدالله بن رواحة حسم الأمر بقوله: «ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة! ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هى إحدى الحسنيين» ، فقال المسلمون: «قد - والله - صدق ابن رواحة»(١).

هكذا مضى المسلمون للقاء العدو حتى وصلوا إلى البلقاء من أرض الشام، وهناك اتخذوا من قرية «مؤتة» بالأردن مركزًا لهم . وفى هذا المكان التقى جمعهم القليل بجموع العدو الهائلة من الروم ومتنصِّرة العرب. وقد استُشْهِد فى بداية اللقاء زيد ابن حارثة. ثم حمل الراية بعده جعفر بن أبى طالب فاستشهد، ثم جاء الدور على عبدالله بن رواحة الذى تردد فى البداية بعض التردد، ولكنه سرعان ما ذكَّر نفسه بما تمناه من الشهادة، فتقدم متأسيًا بصاحبيه زيد وجعفر، وحمل الراية وهو يُنشد:

يا نفسُ إلا تُقْتلى تموتى   هذا حِمَام الموت قد صَلِيتِ
وما تمنيت فقد أُعطِيتِ   إن تفعلى فِعْلَهُما هُدِيتِ

ثم قاتل حتى استشهد(٢). ثم دُفعت الراية إلى ثابت بن أرقم بن ثعلبة البلوى، ولكنه دفعها إلى خالد بن الوليد، وقال له: «أنت أعلم بالقتال منى»(٣). وكان خالد قد أسلم حديثًا (فى نفس العام)(٤)، وكانت مؤتة أول مشاهده فى الإسلام(٥). وكان على خالد أن ينقذ جيش المسلمين من الدمار الكامل، فاجتهد فى أن يعدِّل وضع الجيش حتى يوهم الأعداء أن مددًا قد جاءه من المدينة فلا يجترئوا على تعقب الجيش المنسحب. وقد نجحت خطة خالد فداور بالمسلمين حتى انسحب بهم ووصل بهم المدينة دون خسائر تذكر. ولا شك أن صنيع خالد هذا كشف عن عبقرية عسكرية لا

---

(١) نفس المصدر، صـ ٣٧ - ٣٨.
(٢) نفس المصدر ، صـ ٣٩ - ٤٠.
(٣) ابن الأثير: أُسْد الغابة ، جـ ١ ، صـ ٢٦٥.
(٤) أسلم هو وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن أبى طلحة فى نفس الوقت، وذلك فى صفر سنة ٨ هـ . انظر : ابن كثير: البداية والنهاية ، جـ٤ ، صـ ٢٣٩ - ٢٤٠.
(٥) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب، جـ١ ، صـ ١٢.



تدانى، ولم يكتم الرسول إعجابه به فى هذه المناسبة فقال عنه: «اللهم إنه سيف من سيوفك»، فمنذ ذلك اليوم عُرف خالد بـ «سيف الله»[1].

كانت معركة مؤتة أول مواجهة مباشرة بين المسلمين والروم؛ فقد كانت الشرارة الأولى فى ذلك الصراع الذى استمر أكثر من ثمانية قرون بين الجانبين[2]. والواضح أن المسلمين لم يفتحوا صفحة ذلك الصراع، فهم ما توجهوا للقاء الروم بل لتأديب عرب الشام الذين أمعنوا فى استفزازهم، ثم وجدوا أنفسهم فى مواجهة مفروضة عليهم من جانب الروم. ورغم أن المسلمين لم يحققوا نصرًا فى هذه المعركة فمن الصعب أن نقول إنهم هزموا . فنحن نلاحظ أن الجيش الإسلامى رجع إلى المدينة سالمًا، ولم يتجاوز عدد الشهداء المسلمين اثنى عشر[3]، بل إن بعض المصادر تذكر أنهم كانوا ثمانية[4]. ولو كان ما حدث فى مؤتة هزيمة بالمعنى الدقيق لسحق الجيش الإسلامى سحقًا. والجدير بالذكر فى هذا السياق أن المسلمين المنسحبين لقُوا شدة من سوء استقبال أهل المدينة لهم؛ فقد «لقيهم الصبيان يشتدون»! وجعل الناس يحثُون على الجيش التراب ويقولون: «يا فُرَّار ! فررتم فى سبيل الله!» فقال ﷺ : «ليسوا بالفُرَّار ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله! »[5]، وهذا هو ما كان.

٥ - فتح مكة : (رمضان ٨هـ - يناير ٦٣٠م).

كان من بين بنود صلح الحديبية أن من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه. وبناء على ذلك دخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة فى عقد قريش وعهدهم.

وقد حدث أثناء هدنة الحديبية أن عَدَتْ بنو بكر على خزاعة فأصابوا منها رجلاً واقتتل الفريقان. وكان يمكن أن تمر هذه الحادثة دون أن تترك آثارًا بعيدة المدى،

---

(١) تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، صـ ٤٠ - ٤١ .

(2) Philip Hitti , History of the Arabs, P. 177.

(٣) سيرة ابن هشام، جـ٣ ، صـ ٤٤٧ .

(٤) الواقدى : المغازى ، جـ٢ ، صـ ٧٦٩ .

(٥) سيرة ابن هشام ، جـ٣ ، صـ ٤٣٨ . وللمزيد من التفاصيل حول سرية مؤتة وملابساتها ودوافعها وتطوراتها ونتائجها ارجع إلى: د. عبد الرحمن سالم: المسلمون والروم فى عصر النبوة، صـ ٨٧ - ١٠٨ .



ولكن قريشًا أمدت حلفاءها من بنى بكر بالسلاح والرجال وتظاهر الجميع على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ وقاتلوها فكانت لهم الكرة عليها. وهنا خرج أحد رجال خزاعة - واسمه عمرو بن سالم - حتى قدم على الرسول ﷺ المدينة فشرح له ما حدث من نقض قريش لعهدها معه بمناصرتها لحلفائها من بنى بكر على حلفائه من بنى خزاعة، وأنشده أبياتًا منها:

إن قريشًا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فانصر - هداك الله - نصرًا أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا

فوعده الرسول ﷺ بالنصر. ثم جاء خزاعى آخر هو بديل بن ورقاء فى نفر من قومه إلى الرسول ﷺ ليؤكدوا له نقض قريش لعهدها معه ويلتمس نصرته[1].

أحست قريش بخطورة ما أقدمت عليه من انتهاك لعهدها مع رسول الله ﷺ وأدركت ما قد يترتب على ذلك من ردود أفعال من جانبه. ولهذا أرسلت إليه أبا سفيان بالمدينة ليؤكد معه عقد الحديبية ويزيد فى مدته . ولكن مهمة أبى سفيان باءت بالفشل لأن رسول الله ﷺ رفض أن يجيبه. وقد حاول أبو سفيان أن يستعين ببعض كبار الصحابة كأبى بكر وعمر وعلى ليشفعوا له لدى رسول الله ﷺ، فرفضوا جميعًا، بل يروى أن عمر قال لأبى سفيان: «أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذَّر لجاهدتكم به»![2].

خرج الرسول ﷺ فى العاشر من رمضان سنة ٨هـ متوجهًا نحو مكة على رأس جيش بلغ عشرة آلاف رجل[3]. ولنا هنا أن نقارن بين هذا العدد وبين العدد الذى خرج معه عام الحديبية لنعرف الطفرة الهائلة التى حققتها دعوة الإسلام خلال هذين العامين. وقد كانت الدلائل كلها تشير عندئذ إلى أن مكة ستستسلم للمسلمين دون قتال؛ فقد

---

(١) انظر التفاصيل فى تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٤٣ - ٤٥ ، ومغازى الواقدى، جـ٢ ، صـ ٧٨١ - ٧٨٩.

(٢) سيرة ابن هشام ، جـ٤ ، صـ ١٢ - ١٣ . وانظر أيضًا: المغازى للواقدى، جـ٢ ، صـ ٧٨٥ ، وصـ٧٩٢ - ٧٩٣. ويروى : «والله لو وجدت الذَّر تقاتلكم لأعنتها عليكم» ! المغازى ، صـ٧٩٣ . والذر هو النمل الأحمر الصغير.

(٣) تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، صـ ٥٠ .



أصبح أتباع دين محمد ﷺ يمثلون قوة هائلة لا قبل لقريش بها، كما فقدت قريش كثيرًا من أئمة الكفر فيها وقادة الحروب ضد المسلمين كأبى جهل وأمية بن خلف، وعتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأبى البخترى بن هاشم. ثم إن بعض أبطالها المعدودين قد أسلموا وأصبحوا حربًا على الوثنية كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص. هذا فضلا عن أن فريقًا من ألد أعداء الإسلام ـ وهم اليهود ـ كانوا قد تجرعوا كأس الهزيمة المرة على يد المسلمين بعد أن أمعنوا فى التآمر عليهم، ففقدت قريش بذلك حليفًا مخلصًا فى حربها ضد الإسلام . كل هذه العوامل جعلت استسلام مكة للجيش الإسلامى أمرًا مُسلَّمًا به[1].

وأثناء تقدم الرسول ﷺ نحو مكة بجيشه لقيه عمه العباس بن عبد المطلب مُسْلمًا مهاجرًا بعياله. وحين رأى العباس هذا الجيش الهائل وعرف أن وجهته مكة قال: «وَاصَبَاحَ قريش! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عَنْوَةً قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر»[2]! ومن هنا قرر أن يتصل بقريش ويطلب منهم أن يستسلموا لرسول الله ﷺ ويطلبوا منه الأمان نجاة بأنفسهم. ثم خرج يلتمس إنسانًا ليحمِّله رسالته إلى قريش، فالتقى فى طريقه بأبى سفيان، فقال له: «هذا رسول الله ﷺ ورائى قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به: بعشرة آلاف من المسلمين»![3] فقال أبو سفيان: فما تأمرنى؟ فطلب منه العباس أن يصحبه إلى رسول الله ﷺ بالمدينة ليطلب منه الأمان. ولعل العباس كان يدرك أن حصول أبى سفيان على الأمان من رسول الله ﷺ سوف يتبعه حصول أهل مكة فى مجموعهم على الأمان؛ لأن أبا سفيان كان زعيم قريش وسيد مكة فى ذلك الوقت. وقد استجاب أبو سفيان لاقتراح العباس وتوَجَّه معه إلى الرسول ﷺ . وأثناء مرورهما على جماعات المسلمين لمح عمر أبا سفيان بصحبة العباس فصاح قائلا: «أبو سفيان! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد!»! ثم ذهب مسرعًا إلى الرسول ﷺ . ولكن العباس وأبا سفيان سبقاه إلى هناك. فلما دخل عمر على الرسول ﷺ، وعنده العباس وأبو سفيان ، قال: «يا رسول الله،هذا أبو سفيان عدو الله! قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعنى أضرب عنقه»! فقال العباس: «يا رسول الله، إنى قد أجرته». فقال له الرسول :«اذهب فقد آمنَّاه حتى تغدو

---

(1) انظر حول ذلك: د. أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، جـ١ ، صـ ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(2) سيرة ابن هشام ، جـ٤ ، صـ ٢٠.

(3) تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، صـ ٥٣.



به عليَّ بالغداة». فلمـا أصبح غدا به على الرسول ﷺ فقال له: «ويـحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟» فقال: «بـأبى أنت وأمى، ما أوصلك وأحلمك وأكرمكَ! والله لـقد ظننت أن لو كـان مع الله غيره لـقد أغنى عنى شـيئًا» . فـقال له الرسول ﷺ :« ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أنى رسول الله؟» فقال: «بأبى أنت وأمى، ما أوصلك وأحلمـك وأكرمكَ! أما هذه ففى النفس منهـا شىء!!» فراجعه العباس حتى شهد أن محمدًا رسول الله ﷺ![1].

وقد أراد العباس أن يضمن أن الأمان الذى منحه الرسول ﷺ لأبى سفيان سوف يشمل غيره من أهل مكة فقال: «يا رسول الله! إن أبـا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا يكون فى قومه»، فقال الـرسول ﷺ: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن»[2]. وبهذا شمل هذا الأمانُ حتى من أغلق علـيه بابه، أى لم يقاوم زحْف الـمسلمين إلى مكـة وسيطرتهم عليـها. فلم يخرج عن نطاق الأمان إلا من سلّ سيفه فى وجه المسلمين.

وبعد هذا الأمان انطلـق أبو سفيان إلى مكة حتى إذا جاءهـا صاح بأعلى صوته: «يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فـيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن». فقالوا: «قاتلك الله! وما تغنى عـنا دارك؟» فقال: «ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[3].

وهكذا لم تتأهب قريش فى جملتها للقتال، فزحف الجيش الإسلامى نحو مكة، وعهد الرسول ﷺ إلى أمراء جيشه حـين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقتلوا أحدًا إلا من قاتلهم، فدخل المسلمون مكة دون مقاومـة إلا ما كان من صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عـمرو، الذين جمعوا شرذمة من الناس وحـاولوا التصدى لجناح من الجيش الإسـلامى كان يقوده خالد بن الوليـد، فانهزمت هذه الشرذمـة أمام جيش خالد وفرَّ زعماؤها[4].

وعندما دخل الرسول ﷺ مكة فـاتحًا منتصرًا توجَّه نحو البيـت فطاف به سبعًا، واستلم الحجر الأسود، ثم قام على باب الكعـبة ، وقريش قد اصطفوا بها، فقال: «لا

---

(١) نفس المصدر ، صـ ٥٣ ـ ٥٤ .

(٢) نفس المثدر ، صـ ٥٤ .

(٣) سيرة ابن هشام ، جـ٤ ، صـ ٢٣ ـ ٢٤ .

(٤) الواقدى: المغازى ، جـ٢ ، صـ ٨٢٥ ـ ٨٢٦ .



إله إلا الله وحده ، لا شريك له، صدق وعده ، ونـصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مـأثرة أو دم أو مال يُدَّعى فـهو تحـت قدميَّ هاتـين إلا سدانة البـيت وسقـاية الحاج. . إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتَعظُّمها بالآباء، الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب» ثم تلا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...**﴾ (١). ثم قـال: «يا معـشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: خـيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم! قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»(٢). وأمر رسول الله ﷺ بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة وأشراف قريش جلوس بفنائها(٣). كما أمـر بالأصنام فهـدمت وهو يتلو قولـه تعالى ﴿**... جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴿٨١﴾﴾ (٤). وعندما أمر بهبل فـكسر قال الزبير بن العوام لأبى سفـيان: «يا أبا سفيان، قـد كُسر هُبَل! أما إنك قد كنـت منه يوم أحد فى غرور، حين تـزعم أنه قد أنعم!» فقال أبو سـفيان: «دع هذا عنك يا ابن العـوام، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيرُه لكان غيرُ ما كان»!(٥).

كان فـتح مكة فى العـشرين من رمـضان سنة ٨ هـ (يناير ٦٣٠م) ، وأقام بـها الرسول ﷺ بعد الفتح خـمسة عشر يومًا(٦). وقد تكلم بعض الأنصـار فى احتمال أن يقيم الرسول ﷺ بمكة موطنه الأصلى بعد أن فتـحها الله عليه وأن يتخلى عن المدينة، فلما عـلم بذلك رسول الله ﷺ قال: «كـلا، إنى عبد الله ورسولـه، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم»!(٧).

إن الأسلوب الذي عـامل به الرسول ﷺ أهل مكـة بعد فتحـها يلخص فلـسفة الإسلام فى الحرب، فما شرعت الحرب فى الإسلام إلا ردًّا لظلم واقع أو متوقع ، وما كان الهدف منها قط الانتقام وسفك الدماء. لقد قاومت مكة الإسلام بكل ما أوتيت من حول وطـول، وأخرجـت الرسـول ﷺ منها بـعد أن دبرت لقـتله، ومع ذلك لـم يَسَع الرسولَ ﷺ إلا العفوُ بعد أن رأى أنها أذعنت لكلمة الله. ومن الروايات الدالة فى هذا

---

(١) سورة الحجرات: [١٣].

(٢) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٦٠ ـ ٦١ ، وسيرة ابن هشام ، جـ٤ ، صـ ٣١ ـ ٣٢.

(٣) سيرة ابن هشام ، جـ٤ ، صـ ٣٣.

(٤) سورة الإسراء : [٨١].

(٥) الواقدى: المغازى، جـ٢ ، صـ ٨٣٢.

(٦) سيرة ابن هشام ، جـ٤ ، صـ ٦٤ ـ ٦٥.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ، جـ٤ ، صـ ٣٠٦.



السياق أن سعد بن عبادة نادى أبا سفيان يوم فتح مكة قائلا: «يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة! اليوم تستحل الحرمة! اليوم أذل الله قريشًا» ! وقد أبلغ أبو سفيان رسولَ الله ﷺ مقالة سعد وقال: «إنى أنشدك الله فى قومك، فأنت أبر الناس، وأرحم الناس، وأوصل الناس» ! وقال عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان: «يا رسول الله ، ما نأمن سعدًا أن يكون منه فى قريش صولة»! فقال الرسول ﷺ : «اليوم يوم المرحمة! اليوم أعز الله فيه قريشًا»! وعزل سعدًا عن قيادة كتيبته وأعطى لواءها لابنه قيس بن سعد[1].

أثناء إقامة الرسول ﷺ بمكة بلغه أن قبيلتى هوازن وثقيف قد جمعوا جموعهم ونزلوا بوادى حنين يريدون قتال المسلمين ، فكان لابد من مواجهة الموقف.

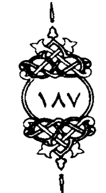
٦ - غزوة حُنين والطائف: (شوال - ذو القعدة ٨هـ - فبراير - مارس ٦٣٠م).

حين خرج الرسول ﷺ لغزو مكة لم يكن العرب يعلمون غايته على وجه التحديد. وظنت قبيلة هوازن التى كانت تقيم جنوب شرقى مكة أن الرسول ﷺ متوجه لغزوها، فجمعت جموعها واستعدت للقتال. ثم توجه الرسول ﷺ نحو مكة وكان ما كان من الفتح العظيم. وهنا أدركت هوازن أن المد الإسلامى يوشك أن يجتاحها، فرأت حتمية الدخول مع المسلمين فى جولة حاسمة تقضى بها على شوكتهم.

وأدركت هوازن أنها لا تستطيع تحقيق تلك الغاية ما لم تلجأ إلى شريك قوى يشد من أزْرها. وقد وجدتْ بُغْيَتَها فى ثقيف ذات البراعة الفائقة فى فنون الحرب والقتال وصاحبة التاريخ العريق فى عدائها للإسلام. وهكذا تحالفت هوازن وثقيف على حرب المسلمين، وأقبلت جموعهم بقيادة مالك بن عوف بن سعد النَّصْرى[2] أحد رجال هوازن ، حتى نزلوا حُنَيْنًا، وهو واد بين مكة والطائف، وأخذوا يعدون العدة للقاء المسلمين. وكان رسول الله ﷺ ما زال فى مكة لم يبرحها مع أصحابه بعد الفتح. وقد لجأ مالك بن عوف إلى وسيلة يضمن بها استماتة رجاله فى القتال، فأمر الناس أن يأخذوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم. وكان الشاعر المشهور دُرَيْد بن الصِّمة (وهو من بنى جُشْم من هوازن) يصحب الجيش. وكان شيخًا فانيًا ولكنه كان

(١) الواقدى: المغازى ، جـ٢ ، صـ ٨٢١ - ٨٢٢.

(٢) مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة بن يربوع، ينتهى نسبه إلى نصر بن معاوية بن بكر بن هوازن. انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، صـ ٢٦٩.



صاحب تجربة فـأرادوا الاستنارة برأيه. وعندما رأى دريد ما صنعـه مالك بن عوف من اصطحابه للنساء والأبناء والأموال سأله عن الحكمة فى ذلك فقال له: «أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله ومـاله ليقاتل عنهم»، فقـال له دريد: «راعى ضأن والله! هل يردّ المنهزمَ شىءٌ؟ إنها إن كـانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمـحه، وإن كانت عليك فُضِحت فى أهلك ومالك»! ولكن مالك بن عوف أبى إلا الاستمساك برأيه[1].

ولما علـم الرسول ﷺ بما أجمـعت عليه هوازن وثقـيف من حرب المسـلمين أرسل إليهم أحد رجاله ـ وهو عبدالله بن أبى حَدْرد الأسلمى ـ ليأتيه بمزيد من الأخبار عنهـم. فذهب عبـدالله فى مهـمته ثـم رجع ليؤكـد للرسول ﷺ صـدق ما بلغـه عن عدوه[2]. فخرج مـن مكة فى شوال سنة ٨ هـ (فـبراير ٦٣٠م) فى اثنى عشـر ألفا من المسلـمين، منهم ألفان مـن أهل مكة، أما الباقـون فهم الذين فتح الله بـهم مكة. ثم توجه إلى لقاء العدو بوادى حنين، وقد أعجبت المسلمين كثرتهم ، فقال بعضهم: «لن نُغْلبَ اليوم من قلة»[3]!

ودخل المسلـمون وادى حنين، وكانت هوازن وثقـيف قد كمنوا لهم فـى شعابه ومضايقه، فبرزوا لهم فى عماية الصـبح من مكامنهم، وشدوا عليهم شدة رجل واحد. ولم يكن المسلمون قد أعدوا أنفسهم لمثل هذه المفاجأة. فسيطر الذعر والفوضى على صفوفهم، واضطرب شملهم وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ، ثم ولوا مدبرين! وهنا أظهر بـعض أهل مكة ما فـى نفوسهم مـن الضغينـة، فقد أسلم بـعضهم ولمـا يدخل الإيمان فى قلوبهم. ويروى أن أبا سفيان بن حرب قال يومئذ: «لا تنتهى هزيمتهم دون البحر»! وصرخ رجل يقـال له كَلَدة بن الحنبل (وهو أخو صفوان بن أمـية لأمه) فقال: «ألا بطل السحر اليوم»[4].

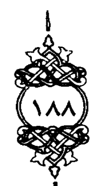
وفى مثل هذه المواقف الصعـبة يصبح دور القائد أساسيًّا لأنه يستطيع أن يحوِّل الهزيمة إلـى نصر . وقد وقف الرسول ﷺ فى مكانـه ثابتًا كالطود ووقف بجـانبه نفر قليـل من المهـاجرين والأنصـار وأهل بيتـه، ومنهم أبـو بكر وعمـر وعلى والعـباس

(١) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٧١ . والمغازى ، جـ٣ ، صـ ٨٨٧ ـ ٨٨٨.

(٢) تاريخ الطبرى ، جـ٣ ، صـ ٧٣.

(٣) الواقدى: المغازى ، جـ٣ ، صـ ٨٨٩ ـ ٨٩٠ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، جـ٤ ، صـ ٣٢١.

(٤) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٧٤ ، والمغازى ، جـ٣ ، صـ ٩١٠.



والفضل بن العباس وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وأسامة بن زيد[١] . وصاح ﷺ فى المسلمين المنهزمين: أين أيها الناس؟ هلمّ إلىّ ! أنا رسول الله ! أنا محمد بن عبدالله! ونزل من على بغلته وهو يرتجز:

أنا النبى لا كذبْ   أنا ابن عبد المطلب!

ثم أمر عمه العباس - وكان جهورى الصوت - أن يصرخ: يا معشر الأنصار! يا أصحاب السَّمُرة![٢] يا أهل بيعة الرضوان! فأجابوا : لبيك لبيك[٣]! ورجعت الأنصار وهم يقولون: الكرة بعد الفَرَّة [٤]! واجتمع إلى الرسول ﷺ مائة من أصحابه استقبلوا عدوهم وقاتلوا قتال المستميت، فقال الرسول ﷺ حين رأى القوم وهم يجتلدون: الآن حمى الوطيس! وعندما رأى بقية المسلمين ثبات هؤلاء النفر حول رسول الله ﷺ ثابوا إليه لتكون لهم الكرة على عدوهم[٥]. وكان على بن أبى طالب قد نجح فى أن يقتل صاحب راية هوازن، فأدى ذلك إلى اضطراب شمل المشركين، فأحاط بهم المسلمون وأعملوا السيف فيهم فانهزموا أمامهم لا يلوون على شىء حتى أتى معظمهم إلى الطائف بعد أن كان المسلمون قد قتلوا منهم وأسروا وسبوا [٦] وغنموا غنائم كثيرة. وكان من بين الذين ذهبوا إلى الطائف مالك بن عوف قائد جيش المشركين[٧].

وهكذا تحصنت فلول هوازن وثقيف بالطائف وأغلقوا عليهم أبواب تلك المدينة المنيعة «وصنعوا الصنائع للقتال» [٨]، فسار إليهم رسول الله ﷺ وفرض الحصار على الطائف فى شوال ٨ هـ (فبراير ٦٣٠م) ، وقد لقى المسلمون عناء فى حصار الطائف، فقد كان أهلها من ثقيف أصحاب خبرة طويلة بالقتال من وراء الحصون، فاستطاعوا أن يقتلوا بالنَّبْل عددًا من المسلمين أثناء الحصار، فأمر الرسول ﷺ المسلمين أن يرموا

---

(١) المغازى، جـ٣ ، صـ ٩٠٠.
(٢) السَّمُرة: اسم الشجرة التى كانت تحتها بيعة الرضوان.
(٣) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٧٥ - ٧٦.
(٤) المغازى، جـ٣ ، صـ ٨٩٩.
(٥) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٧٥ - ٧٧.
(٦) كانت الشيماء أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة من بين سبى هوازن. وقد أكرمها رسول الله ﷺ وردها إلى قومها واعتنقت الإسلام يومئذ. انظر : الواقدى: المغازى، جـ٣ ، صـ ٩١٣ - ٩١٤ ، وتاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٨١.
(٧) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٧٨.
(٨) الواقدى: المغازى. جـ ٣ ، صـ ٩٢٤.



حصون الطائف بالمنجنيق، وكان المنجنيق من بين الأسلحة التي استولى عليها المسلمون من حصون خيبر، كما «دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة[1] ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد مُحْمَاةً بالنار فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل وقتلوا رجالا، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون»[2].

وعندئذ أرسلت ثقيف إلى الرسول ﷺ تسأله أن يدع لهم أعنابهم لله والرحم[3]، فتركها لهم، ثم أمر مناديًا فنادى فى ثقيف: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر». فخرج إليه منهم بضعة عشر رجلا، فاشتد ذلك على أهل الطائف.

وقد استمر حصار الطائف ما يقرب من الشهر على اختلاف الروايات فى ذلك. ثم أمر الرسول ﷺ برفع الحصار فى ذى القعدة سنة ٨ هـ (مارس ٦٣٠م)؛ذلك أنه علم أن ثقيفا قد أعدت عدتها لحصار طويل، كما سقط من أصحابه اثنا عشر شهيدًا بنبال ثقيف، ولمَّا يظهر بعدُ ما يشير إلى قرب استسلام الطائف. ولم يرفع الرسول ﷺ الحصار إلا بعد أن استشار أحد ذوى الخبرة من صحابته، وهو نوفل بن معاوية الدِّيلى، وقال له: «يا نوفل، ما ترى فى المقام عليهم؟» فقال: «يا رسول الله، ثعلب فى جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرّك»[4]!

وبعد رفع الحصار عن الطائف توجه الرسول ﷺ إلى مكة معتمرًا، وفى طريقه إلى مكة، فى مكان يقال له: «الجِعْرانة»[5] نزل بالمسلمين حيث قسم بينهم غنائم هوازن وكانت بالغة الكثرة، فقد «كان مع رسول الله ﷺ من سبى هوازن ستة آلاف من الذرارى والنساء، ومن الإبل والشاء مالا يُدْرى عدتُه»[6]. وبينما كان الرسول ﷺ بالجعرانة جاءه وفد هوازن يعلنون إسلامهم، فرد إليهم أبناءهم ونساءهم، ولم يكن فى

---

(١) الدبابة بيت صغير يعمل من جلود الإبل والبقر تعمل للحصون، يدخلها الرجال فينقبون من داخلها، ويكون سقفها حرزًا لهم من الرمى. انظر: تخريج الدلالات السمعية للخزاعى التلمسانى، صـ ٤٩٣.

(٢) سيرة ابن هشام، جـ٤، صـ ١٢٨.

(٣) المغازى، جـ٣، صـ ٩٢٨، وهامش ٢.

(٤) تاريخ الطبرى، جـ٣، صـ ٨٤، والمغازى، جـ٣، صـ ٩٣٧.

(٥) الجعرانة، بكسر الجيم وسكون العين، أو كسر الجيم والعين وتشديد الراء، ماء بين الطائف ومكة، وهو إلى مكة أقرب. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، صـ ١٦٥.

(٦) سيرة ابن هشام، جـ٤، صـ ١٣٤.



الوفد مالك بن عوف قائد هوازن، حيث كان مازال مع ثقيف بالطائف، فقال الرسول ﷺ لوفد هوازن: «أخبروا مالكًا أنه إن أتانى مسلمًا رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل». فلما أُخْبر مالكٌ بذلك تسلل ليلاً من الطائف دون أن تعلم به ثقيف، ثم لحق بالرسول ﷺ فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه، واستعمله الرسول ﷺ على قومه وعلى من أسلم من القبائل حول الطائف، «فكان يقاتل بهم ثقيفًا؛ لا يخرج لهم سَرْحٌ إلا أغار عليه حتى ضيّق عليهم»[1].

وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من رد سبايا هوازن إليهم أخذ يقسم الغنائم بين المسلمين، وقد خصَّ طائفة ممن أسلموا حديثًا بمزيد من العطاء ليتألف قلوبهم، ومن هؤلاء أبو سفيان بن حرب، وابنه معاوية، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أمية، وسهيل ابن عمرو، وعُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وغيرهم ممن أطلق عليهم لقب «المؤلفة قلوبهم».وقد أعطى رسول الله ﷺ كل واحد من هؤلاء مائة بعير، وأعطى غيرهم أيضًا مثل ذلك أو دون ذلك، ولكنه لم يعط الأنصار شيئًا، فتأثر بعضهم من ذلك واتصل سعد بن عبادة بالرسول ﷺ وكلمه فى هذا الأمر نيابة عن الأنصار، فجمعهم الرسول ﷺ وقال لهم: «يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتنى عنكم وموجدة وجدتموها فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله! وعالة فأغناكم الله! وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: « بلى، لله ولرسوله المنّ والفضل»! قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فصَدَقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّبًا فَصَدَّقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلا فآسيناك. وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لُعَاعة[2] من الدنيا تألفت بها قومًا ليُسْلموا ووكلتكم إلى إسلامكم! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم! فوالذى نفسى بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعْبًا وسلكت الأنصار شعْبًا لسلكت شعْبَ الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصارَ وأبناء أبناء الأنصار»! فبكى الأنصار حتى أَخْضَلوا لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْمًا وحظًا[3]!

ثم واصل الرسول ﷺ مسيره إلى مكة من الجعْرانة ـ بعد الانتهاء من تقسيم غنائم هوازن ـ ليؤدى العمرة، وكان ذلك فى ذى القَعدة، فلما فرغ منها عاد إلى المدينة واستخلف على مكة عتَّاب بن أَسِيد[4].

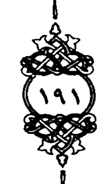
---

(١) تاريخ الطبرى، جـ٣، صـ ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) اللعاعة بقْلة ناعمة. شبَّه بها زهرة الحياة الدنيا ومتاعها.

(٣) تاريخ الطبرى، جـ٣، صـ ٩٣ ـ ٩٤، وسيرة ابن هشام، جـ ٤، صـ ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٤) عتَّاب بن أَسِيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. أسلم يوم فتح مكة. =



إسلام ثقيف:

عندما رفع رسول الله ﷺ الحصار عن الطائف فى ذى القعدة سنة ٨ هـ قال له بعض أصحابه: يا رسول الله ! ادع عليهم! فقال : «اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم»(١)! وحين انصرف الرسول ﷺ عن الطائف اتبع أثره سيد من سادات ثقيف وهو عروة بن مسعود فأدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم. ورجع إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام، فقتلوه(٢). وهكذا استمر أهل ثقيف على عنادهم بعد انصراف الرسول ﷺ عنهم حتى بدءوا يدركون أنه لا جدوى من استمرارهم على ذلك.

فقد استسلمت هوازن لرسول الله ﷺ كما أشرنا، وانضم قائدها مالك بن عوف إلى معسكر المسلمين بعد أن أعلن إسلامه، فأصبح حربًا على ثقيف. وقد رأينا كيف كان يقاتلهم بالقبائل التى أسلمت حول الطائف حتى ضيق عليهم. ولابد من أن نشير - فضلا عن ذلك - إلى أن الإسلام بعد فتح مكة بدأ ينتشر انتشارًا واسعًا ومطردًا فى كل أرجاء شبه الجزيرة العربية، فأصبحت ثقيف جزيرة منعزلة فى محيط يموج بكتائب الإسلام.

من أجل ذلك اجتمع سادة ثقيف وتشاوروا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض: «ألا ترون أنه لا يأمن لكم سِرْب ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع به؟» وقال أحد زعمائهم: «قد أسلمت العرب كلها وليس لكم بحربهم طاقة، فانظروا فى أمركم»(٣). ومن هنا اتفقوا على إرسال وفد إلى رسول الله ﷺ يعرضون عليه الإسلام والبيعة. وعندما قدم وفد ثقيف على الرسول عرضوا عليه أن يسلموا بشرط أن يترك لهم «اللات» ثلاث سنين وأن يعفيهم من الصلاة! وقد أبى الرسول ﷺ أن يدع لهم اللات يومًا واحدًا، ولكنه أعفاهم من كسر أوثانهم بأيديهم وأرسل إليهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة ليقوما بذلك. وأما الصلاة فقد أكد لهم أنها جوهر الدين، «فلا خير فى دين لا صلاة فيه»(٤). وعندئذ أذعنت ثقيف لدعوة الحق ودخلت فى دين الله، وكان ذلك فى (رمضان سنة ٩ هـ)(٥) أى بعد رفع الحصار عنها بحوالى عشرة شهور .

= انظر: أسد الغابة لابن الأثير ، صـ ٥٥٦ .

(١) سيرة ابن هشام ، جـ٤ ، صـ ١٣٤ .

(٢) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٩٦ - ٩٧ .

(٣) نفس المصدر ، صـ ٩٨ .

(٤) نفس المصدر ، صـ ٩٩ .

(٥) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٩٧ .





٧- غزوة تبوك : رجب ٩ هـ (أكتوبر - نوفمبر ٦٣٠م).

حدث أول احتكاك مباشر بين المسلمين والروم فى ميدان القتال فى «مؤتة» كما أشرنا قبل ذلك. ولم يكن فى حسبان المسلمين حينذاك أنهم سيحاربون الروم بل عرب الشام الذين دأبوا على استفزازهم. وقد أدرك المسلمون بعد تجربة مؤتة أن الروم قد نزلوا بثقلهم فى ميدان الصراع ضد الدولة الإسلامية وأصبحوا يضعون ذلك فى اعتبارهم دائمًا.

وقد ترامت الأنباء إلى الرسول ﷺ أن هرقل (امبراطور الروم) يعد العدة لحرب المسلمين وأنه حشد حشوده من الروم والقبائل العربية الموالية له ليزحف على المدينة[١]. ولم يكن هناك ما يمنع من صدق هذه الأنباء بعد ما شهده المسلمون من الروم فى مؤتة. ومن هنا أمر الرسول ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، «وذلك فى زمن عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد»[٢]. وكان من عادة الرسول ﷺ عندما كان يخرج فى غزوة ألا يذكر للمسلمين وجهته، ولكنه لم يفعل ذلك فى غزوة تبوك حيث بينها للناس «لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يصمد له ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم»[٣]. وقد تخاذل بعض المنافقين وتخلفوا عن رسول الله ﷺ وثبطوا الناس عن المشاركة فى الجهاد؛ وهم المخلَّفون الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ **فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)** ﴾[٤].

ورغم هذا الموقف المتخاذل من المنافقين فقد استجاب الكثير من المسلمين لنداء رسول الله ﷺ فخرج معه منهم ثلاثون ألفًا، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس[٥]. وأنفق بعض المسلمين على هذا الجيش الذى أُطلق عليه «جيش العُسْرة» أموالا

---

(١) الواقدى: المغازى، جـ٣ ، صـ ٩٩٠.

(٢) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ١٠١.

(٣) نفس المصدر والصفحة. وانظر أيضًا: صحيح البخارى ، جـ٦ ، صـ ٤ ، ويصمد أى يقصد.

(٤) سورة التوبة : [٨١ - ٨٢].

(٥) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ١ ، صـ ٣٦٨.



طائلة[1]، ومن هؤلاء عثمان بن عفان الذى تبرع بألف دينار عينا وثلاثمائة بعير بكل ما تحمل[2]، فقال ﷺ : « اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض[3]»!

خرج الرسول ﷺ من المدينة فى رجب سنة ٩ هـ[4] (أكتوبر ٦٣٠م) على رأس جيشه متوجهًا صوب الشام حتى وصل إلى تبوك بشمال الحجاز على مشارف الشام فى شعبان من نفس العام. وقد أقام فى تبوك بضع عشرة ليلة[5]، وهناك عرف أن الروم وحلفاءهم من العرب لم يخرجوا بجيوشهم لمقاتلة المسلمين كما أشيع قبل ذلك، فاستشار أصحابه فى مواصلة التقدم نحو الشمال أو العودة إلى المدينة، فقال له عمر بن الخطاب: «يا رسول الله ، إن للروم جموعًا كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى، وقد أفزعهم دُنُوُّك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله عز وجل فى ذلك أمرا»[6]. وقد عبَّرت مشورة عمر عن حقيقة الموقف؛ ذلك أن الرسول ﷺ لم يخرج بجيشه ليحارب الروم بل ليصد هجومهم المتوقع، ويوقف زحفهم نحو المدينة. فلما تبين له أنه لا توجد حشود للروم تهدد أمن المدينة لم يجد مبررًا لاستمرار سيره نحو الشام. وفى ضوء ذلك لا نكاد نرى مستندًا لما يدعيه بعض المؤرخين الغربيين من أن الرسول ﷺ كان يرمى من وراء قيامه بغزوة تبوك إلى تنفيذ خطة توسعية فى بلاد الروم[7]. ولو صح هذا الزعم لما اختار الرسول ﷺ لتنفيذ خطته تلك أكثر الأوقات بعدًا عن ملاءمة ظروف المسلمين مما يؤكد أن هذه غزوة أملتها الضرورة ، ولم تملها الرغبة فى تنفيذ خطة توسعية[8].

وقد انتهز الرسول ﷺ فرصة وجوده بتبوك فأراد أن يضع حدًا لما كان يتعرض له المسلمون من تهديد على يد القبائل العربية الموالية للروم. وهى التى كانت تقطن على طريق الشام، ومن هنا أرسل خالد بن الوليد على رأس قوة مكونة من أربعمائة وعشرين فارسًا إلى دُومة الجَنْدل، وهى تبعد عن المدينة ثمانمائة كيلو متر تقريبًا فى اتجاه

---

(١) نفس المصدر والصفحة. وانظر أيضًا: المغازى ، جـ٣ ، صـ ٩٩١.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٢ ـ صـ ٢٧٧ ، وابن القيم : زاد المعاد، جـ٣ صـ ٣.

(٣) سيرة ابن هشام، جـ٤ ، صـ ١٧٢.

(٤) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ١ ، صـ ٣٦٨ ، وتاريخ اليعقوبى، جـ٢ ، صـ ٧٦.

(٥) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ١٠٩ .وفى المغازى (جـ٣ ، صـ ١٠١٥) أنه أقام بها عشرين ليلة.

(٦) الواقدى : المغازى ، جـ٣ ، صـ ١٠١٩.

(7) Brockelmann, History of the Islamic Peoples , P. 34.

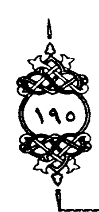
(٨) لمزيد من التفصيل ارجع إلى : د. عبد الرحمن سالم: المسلمون والروم فى عصر النبوة ، صـ١١٤ ـ ١١٦.



الشمـال. وقد استـولى خالد على دومـة الجندل وأسـر ملكها أكـيدر بن عبـد الملك السَّكونـى الكندى وقدم بـه على الرسول ﷺ فـصالحه عـلى الجزية وأمَّـن أهل دومة الجندل ، وكتـب لهم كتابًا بذلك. وعـندما علم أهل المسـتوطنات القريبـة بشأن هذا الصلح اتصلـوا بالرسول وسألوه أن يصالـحهم ، فأجابهم إلـى ذلك، وهم أهل أيلة، وأذرح، ومقنا، والـجرباء. وقد تعهـد الجميع بدفع جـزية سنوية للرسول ﷺ مـقابل أمانهم على أنفسهم وأموالهم[1]. وهكذا يمكن القول إن غزوة تبوك حققت نتيجة مهمة وهى تألـيف عدد من الـقبائـل العربيـة على حدود الـشام وكفّ الكـثير مـن أذاها عن المسلميـن، وكان ذلك مقدمة لإسلام معظمـها فيما بعد. والجديـر بالملاحظة أن هذه الغزوة كانت آخر غزوات الرسول ﷺ.

وبعد هذا الإنجاز العظيم غادر الرسول ﷺ تبوك متوجهًا صوب المدينة فوصلها فى رمضان من العام التاسع للهجرة.

(١) حـول صلح الـرسول ﷺ مع أهـل دومة الـجندل وأيـلة وأذرح ومـقنا والجـرباء، ارجـع إلى البلاذرى: فتوح الـبلدان، صـ ٧١ ـ ٧٤ ، وارجع أيضًا إلى : د. عبد الرحمـن سالم: المرجع السابق ، صـ ١١٦ ـ ١١٨.





الفصل العاشر

دخول شبه الجزيرة العربية في الإسلام
(من عام الوفود إلى وفاة الرسول)

(٩ - ١١هـ/ ٦٣٠ - ٦٣٢م)

قدوم وفود العرب إلى المدينة معلنة إسلامها منذ العام التاسع الهجرى:

يُعَدّ العام التاسع للهجرة معلمًا بارزًا فى مسار الدعوة الإسلامية؛ فقد كان بداية مرحلة جديدة من الانتشار الواسع لدعوة الإسلام فى جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية. ولا غرو؛ فعندما حل ذلك العام كانت أهم مراكز الكيد للإسلام والتآمر ضده قد تهاوت؛ فقد استسلمت مكة معقل الوثنية فى العام السابق، واندحرت هوازن وأذعنت للإسلام. أما ثقيف فقد جاءت فى رمضان من العام التاسع تعلن دخولها فى دين الله بعد أن كانت حربًا ضروسًا على الإسلام وأهله. وقبْل هؤلاء جميعًا كان يهود بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة قد أعطوا بأيديهم، ثم لحق بهم يهود خيبر فى العام السابع للهجرة. ولكن لابد أن نؤكد هنا أن لستسلام قريش كان أهم هذه الانتصارات جميعًا. فمما لا شك فيه أن قريشًا كانت أقوى عقبة فى طريق الإسلام منذ ظهوره حتى انضوائها تحت لوائه. يقول ابن هشام روايةً عن ابن إسحاق: «وإنما كانت العرب تَرَبَّصُ بالإسلام أمر هذا الحى من قريش وأمر رسول الله ﷺ. وذلك أن قريشًا كانوا إمام الناس وهاديَهم وأهل البيت الحرام وصريحَ ولد إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - وقادة العرب، لا يُنكَرون ذلك، وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه. فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودوَّخها الإسلام عرفت العرب أنه

لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا فى دين الله - كما قال الله عز وجل - أفواجًا يضربون إليه من كل وجه»(١).

أدركت العرب - إذن - بعد استسلام قريش وبعد الانتصارات الساحقة التى أحرزها المسلمون - أنه من الأجدر بهم أن ينضووا تحت لواء هذا الدين؛ فهو دين الله إلى الناس كافة، ولا جدوى من الاستمرار فى تجاهله والإعراض عنه. ومن هنا بدأت القبائل المختلفة تبعث وفودها إلى الرسول ﷺ معلنةً إسلامها. وقد شهد العام التاسع بداية هذه الوفود، ومن ثم عُرف بـ «عام الوفود»(٢). فقد وفد فيه على الرسول ﷺ وفد بنى تميم، وفيهم حاجب بن زُرارة، والأقرع بن حابس، والزِّبرقان بن بدر فى عدد عظيم من بنى تميم(٣). وقد نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد، فآذوه بصياحهم ، فنزل فيهم قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾(٤). كما وفد على الرسول ﷺ وفد بنى أسد وقالوا: أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولا(٥)، فأنزل الله قوله : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٧﴾(٦). وقدم على الرسول ﷺ فى العام التاسع أيضًا وفود بهراء وبنى فزارة وبنى البكّاء وبنى سعد ابن بكر(٧). وكان ضِمَامُ بن ثعلبة هو وافد بنى سعد على الرسول ﷺ ، وقد أسلم قومه جميعًا بإسلامه عندما رجع إليهم. يقول ابن عباس: «فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضِمَام بن ثعلبة»(٨)! وفى نفس العام أرسل ملوك حمير باليمن كتابًا إلى الرسول يقرون فيه بالإسلام، فكتب لهم كتابًا يذكر لهم فيه أن من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة «وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين ، له مالهم وعليه ما عليهم، وله ذمة الله وذمة رسوله. وإنه من أسلم من

---

(١) سيرة ابن هشام، جـ٤ . صـ ٢٢٢.

(٢) نفس المصدر ، صـ ٢٢١.

(٣) نفس المصدر ، صـ ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٤) سورة الحجرات : [٤ - ٥] . وارجع فى تفسير الآيتين إلى الكشاف للزمخشرى، جـ٤ ، صـ٣٥٧ - ٣٥٩.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ٢ ، صـ ٢٨٧.

(٦) سورة الحجرات : [١٧].

(٧) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ١٢٢ - ١٢٤.

(٨) نفس المصدر ، صـ ١٢٥.

يهودى أو نصرانى فإن له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفْتَن عنها وعليه الجزية..» وأرسل إليهم من أصحابه جماعة على رأسهم معاذ بن جبل ليفقهوهم فى الدين ويجمعوا صدقاتهم(١).

ولم تتوقف الوفود بانتهاء العام التاسع، بل إنها ازدادت تدفقًا فى العام العاشر. فمن بين الوفود الكثيرة التى قدمت على الرسول ﷺ مُقِرَّةً بالإسلام فى ذلك العام وفد الأزد بقيادة صُرَد بن عبدالله، ووفد مراد بقيادة فروة بن مُسَيك المرادى، ووفد زُبَيْد بقيادة عمرو بن معد يكرب، ووفد عبد القيس بقيادة الجارود بن عمرو، ووفد كِنْدة بقيادة الأشعث بن قيس، ووفد طيئ بقيادة زيد الخيل الذى سماه الرسول ﷺ زَيد الخير، وقال عنه: «ما ذُكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا ما كان من زيد الخيل فإنه لم يُبْلَغْ فيه كل ما فيه»(٢). ومن بين وفود العام العاشر أيضًا وفد بنى حنيفة. وفيهم مسيلمة بن حبيب الذى ادعى النبوة بعد ذلك(٣).

والجدير بالملاحظة هنا أن هذه الوفود والقبائل التى تمثلها لم تكن سواء فى حقيقة موقفها من الإسلام؛ فقد أسلم بعضها إسلامًا حقيقيًّا صادقًا؛ فى حين أسلم بعضها الآخر إسلامًا سطحيًّا، مجاراة للتيار وركوبا للموجة. وإلى هذا الفريق الثانى يشير قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾(٤). ولهذا كان هؤلاء سراعًا إلى الردة بعد وفاة الرسول ﷺ. بل إن بعضهم ارتد قبل وفاته. ومما يروى فى هذا السياق أن مسيلمة بن حبيب كتب إلى الرسول كتابًا بعد انصرافه من المدينة مع وفد بنى حنيفة يقول فيه: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلام عليك، فإنى قد أُشْرِكتُ فى الأمر معك؛ وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشًا قوم يعتدون»! فكتب إليه الرسول ﷺ يقول: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين»(٥)، وقد تنبأ أيضًا قبل وفاة رسول الله ﷺ طليحة بن خويلد الأسدى، وخرج ثائرًا فى بلاد بنى أسد،

---

(١) نفس المصدر، صـ ١٢٠ ـ ١٢٢.

(٢) نفس المصدر، صـ ١٤٥.

(٣) لمزيد من التفصيل حول وفود العرب ارجع إلى: تاريخ الطبرى، جـ٣، صـ ١٣٠ ـ ١٤٥ والكامل لابن الأثير، جـ٢، صـ ٢٩٣ ـ ٢٩٩، وزاد المعاد لابن القيم، جـ٤، صـ ٢٦ ـ ٤٩.

(٤) سورة الحجرات: [١٤].

(٥) تاريخ الطبرى، جـ٣، صـ ١٤٦.



وكان طليحة أحد أعضاء وفد بنى أسد الذين قدموا على الرسول ﷺ بالمدينة[١]. كما تنبأ وثار أيضًا باليمن الأسود العنسى (وهو عبهلة بن كعب)[٢] قبل وفاة الرسول ﷺ[٣]. ولكن هذا لا يمنعنا من تقرير حقيقة أساسية وهى أن الإسلام منذ العام التاسع أخذ يضرب بجذوره فى أرجاء شبه الجزيرة العربية ويثبِّت قواعده، ودانت بلاد العرب فى مجموعها لكلمة الله بعد أن قاومتها زمنًا، ولهذا ذكرَّ الله رسوله بهذا الفضل حين قال له فى سورة النصر التى نزلت بمنى فى حجة الوداع: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣**﴾[٤].

حجة الوداع: (١٠ هـ - ٦٣٢م)

فى ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة تجهز الرسول ﷺ للحج وأمر الناس بالجهاز له، ثم خرج مع أصحابه إلى مكة لخمس ليال بقين من ذى القعدة[٥]. وقد عرفت هذه الحجة بـ «حجة الوداع» وسميت بذلك بعد وفاة الرسول ﷺ[٦] لأنه ودّع فيها الناس ولم يحج بعدها. ويطلق على هذه الحجة أحيانًا اسم «حجة الإسلام» لأن الرسول ﷺ لم يحج من المدينة غيرها، كما تسمى أحيانًا «حجة البلاغ» لأن الرسول ﷺ بلغ شرع الله فى الحج قولا وفعلا كما يقول ابن كثير[٧]، وبين للناس خلالها ما بينه من مبادئ الإسلام فى خطبته المعروفة التى تكرر فيهاحديثه عن تبليغ الدعوة[٨].

فقد خطب ﷺ عندئذ خطبة عميقة التأثير، «وكان الذى يبلغ عنه بعرفة ربيعة ابن أمية بن خلف لكثرة الناس»[٩]. ومما جاء فى هذه الخطبة قوله: «أيها الناس اسمعوا قولى؛ فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا. أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تَلْقَوْا ربكم كحرمة يومكم هذا وحرمة شهركم

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ، جـ٣ ، صـ ٩٥.
(٢) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، صـ ٤٠٥.
(٣) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ١٤٧.
(٤) سورة النصر : [١ - ٣].
(٥) الواقدى: المغازى جـ٣ ، صـ ١٠٨٩ ، وسيرة ابن هشام ، جـ٤ ، صـ ٢٧٢.
(٦) البلاذرى: أنساب الأشراف ، جـ١ ، صـ ٣٦٨.
(٧) البداية والنهاية ، جـ٤ ، صـ ٩٩.
(٨) تاريخ اليعقوبى، جـ٢ ، صـ ١٠٩ - ١١٢.
(٩) ابن الأثير: الكامل جـ٢ ، صـ ٣٠٢.

هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكم رءوس أموالكم لا تظْلمون ولا تُظْلمون . قضى الله أنه لا ربا. . أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يُعْبَد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. . . واستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عوانٍ [1] لا يملكن لأنفسهم شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاعقلوا أيها الناس واسمعوا قولى، فإنى قد بلغت وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا: كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس ، اسمعوا قولى فإنى قد بلغت، واعقلوه. تَعَلَّمُنَّ أن كل مسلم أخو المسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، فلا تظلموا أنفسكم، اللهم هل بلغت!»[2].

هكذا انتهز الرسول ﷺ فرصة هذا الجمع الحاشد فى هذا الموقف المهيب فأبرز أهم ما فى الإسلام من معان وقيم كحرمة الدماء والأموال وتحريم الربا وأهمية أداء الأمانات إلى أهلها وحقوق النساء وحسن معاملتهن وقيمة الأخوة الإسلامية، وهذه القيم والمعانى كانت مقررة ومؤكدة فى الإسلام قبل حجة الوداع، ولكن الرسول أراد أن يضفى عليها من جلال هذا الموقف ما يزيدها قوة وتأكيدًا.

ويمكن القول إن دعوة الإسلام وصلت إلى غايتها عند ذلك الوقت وتكاملت رسالته، وأدى الرسول ﷺ أمانة التبليغ رغم كل ما اعترض طريقه من صعوبات وعقبات، فنزل عندئذ ـ والرسول ما زال بعرفة ـ قوله تعالى : ﴿ .. **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** .. ﴾ [3]، فكانت هذه الآية آخر ما نزل من القرآن الكريم وكانت تتويجًا لذلك النضال الطويل الذى خاضه رسول الله ﷺ فى سبيل تبليغ كلمة الله. ويُرْوَى أن رجلا من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب وهو خليفة فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرأون آية فى كتابكم لو علينا ـ معشر اليهود ـ نزلتْ لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال: وأى آية هى؟ قال: قوله تعالى:﴿ .. **الْيَوْمَ**

---

(1) عوانٍ جمع عانية، وهى الأسيرة.

(2) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ١٥٠ ـ ١٥١ . وانظر هذه الخطبة أيضًا ـ مع بعض الاختلاف فى العبارة ـ فى تاريخ اليعقوبى، جـ٢ صـ ١١٠ ـ ١١٢ ، والمغازى للواقدى، جـ٣ ، صـ ١١١١ ـ ١١١٣ .

(3) سورة المائدة :[٣].



أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . .﴾ الآية. فقال عمر: «والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلتْ فيه على رسول الله ﷺ والساعة التى نزلت فيها على رسول الله ﷺ: عشية عرفة فى يوم جمعة[1].

ويروى أن عمر بن الخطاب بكى حين نزلت هذه الآية، فقد أحس أنها نذير بقرب وفاة الرسول ﷺ بعد أن اكتمل الدين الذى أرسله الله به[2].

وفاة الرسول ﷺ: (١٢ من ربيع الأول ١١ هـ - يونيو ٦٣٢م)

بعد عودة الرسول ﷺ إلى المدينة من حجة الوداع أخذ يعد العدة لإرسال سرية إلى بلاد الشام بهدف تأديب القبائل العربية الموالية للروم هناك، وهى القبائل التى طال استفزازها للمسلمين قبل ذلك، ولم تنجح سرية «مؤتة» فى تأديبهم نظرًا لما قدمه الروم لهم من عَدَد وعُدَّة. ولم يكن وضع المسلمين فى «تبوك» يسمح لهم بالتوغل شمالا بسبب الظروف القاسية التى أحاطت بهذه الغزوة. وقد تحدثنا عن استشهاد قادة المسلمين الثلاثة فى مؤتة وهم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبدالله بن رواحة. والحق أن استشهاد هؤلاء كان سببًا فى زيادة إصرار الرسول ﷺ على أن ينزل بهذه القبائل العربية المعادية للمسلمين ما تستحقه من عقاب. وقد اختار لقيادة هذه السرية أسامة بن زيد بن حارثة الذى استشهد أبوه فى مؤتة، وكان هذا الاختيار تعبيرًا عن الهدف الذى أراده الرسول ﷺ من إنفاذه لهذه السرية. وقد كان أسامة حينئذ فتى صغير السن، فى حدود العشوين من عمره[3]، وكان فى جيشه جلة المهاجرين والأنصار، ولهذا اعترض البعض على إمارته، فقال ﷺ «قد بلغنى أن أقوامًا يقولون فى إمارة أسامة، ولعمرى لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبل، وإنْ كان أبوه لخليقًا للإمارة، وإنه لخليق لها، فأنفذوا بعث أسامة»[4].

بعد أن أتم أسامة استعداداته تحرك فى آخر صفر سنة ١١ هـ على رأس جيش مكون من ثلاثة آلاف مقاتل، وتقدم حتى وصل إلى «الجُرْف» على بعد حوالى خمسة كيلو مترات إلى الشمال من المدينة، وهناك علم بمرض الرسول ﷺ فلم يبرح مكانه.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٥، صـ ١٥٧.
(٢) نفس المصدر، صـ ١٨٩.
(٣) ابن حجر: الإصابة فى تمييز الصحابة، جـ١، صـ ٤٦.
(٤) تاريخ الطبرى، جـ٣، صـ ١٨٤.



وقد تطور هذا المرض إلى وفاته ﷺ ، فعاد أسامة إلى المدينة، ثم كان إنفاذ بعثه على الوجه الذى أراده الرسول ﷺ أول قرارات أبى بكر(١).

وقد ابتدأ برسول الله ﷺ مرضه فى الأيام الأخيرة من صفر سنة ١١هـ(٢)، وكان مرضه الحمى ، وقد اشتد به الوجع يومًا فقال لمن حوله: «أهريقوا علىَّ من سبع قِرَبٍ من آبار شتى» (٣). ولكن المرض لم يشغله عن الاهتمام بشئون المسلمين، فقد كان حريصًا على متابعة أخبار مسيلمة باليمامة والأسود العنسى باليمن وطليحة الأسدى بنجد، فقد اهتم بإرسال الرسل إلى هؤلاء وغيرهم ممن نقضوا عهدهم وارتدوا عن الإسلام(٤).

ويروى المؤرخون أن الرسول ﷺ خرج إلى أصحابه بعد أن اشتد المرض عليه، فجلس على المنبر ثم قال: «إن عبدًا من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله». ففهم أبو بكر إشارة الرسول ﷺ وعلم أنه ينعى لهم نفسه، فبكى وقال: «بل نفديك بأنفسنا وأبنائنا» فقال ﷺ: « على رِسْلك يا أبا بكر! انظروا هذه الأبواب الشوارع اللافظة فى المسجد (أى النافذة إليه) فسدوها إلا ما كان من بيت أبى بكر، فإنى لا أعلم أحدًا كان أفضل عندى فى الصحبة يدًا منه. .» ثم قال: «فإنى لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكنْ صحبةٌ وإخاءُ إيمانٍ حتى يجمع الله بيننا عنده»!(٥).

وعندما أقعد المرض رسول الله ﷺ عن أن يؤم المسلمين فى الصلاة عهد بهذه المهمة إلى أبى بكر، ولكن عائشة حاولت أن تثنيه عن قراره بقولها: «إن أبا بكر رجل رقيق وإنه متى يقوم مقامك لا يطيق»! فلم يتزحزح عن موقفه، وقد صلى أبو بكر بالمسلمين ثلاثة أيام أثناء مرض الرسول ﷺ(٦).

---

(١) حول ظروف بعث أسامة وتطوراته ونتائجه ارجع إلى ، د. عبد الرحمن سالم : المسلمون والروم فى عصرة النبوة صـ ١٢٧ ـ ١٣٧ .
(٢) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ١٨٧ .
(٣) نفس المصدر ، صـ ١٨٩ .
(٤) نفس المصدر ، صـ ١٨٧ .
(٥) نفس المصدر ، صـ ١٩٠ ـ ١٩١ ، وسيرة ابن هشام جـ٤ ، صـ ٣٢٧ ـ ٣٢٨ .
(٦) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ١٩٧ .



وقد انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى فـى منتصف نهار يوم الإثنين ١٢ من ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ من يونيو ٦٣٢م) ، وكان فى بيت السيدة عائشة، وعندما ثقُل فى حجـرها نظرت فى وجـهه فـإذا نظره قد شـخص وهو يقـول: «بل الرفيق الأعـلى من الجنـة»! فقالـت عائشـة : «خُيِّرتَ فـاخترتَ والـذى بعثك بـالحق»، وفاضـت روحه الطاهرة[١].

لم يكن من السـهل على المسلمين أن يسـتوعبوا خبر وفـاته ﷺ ، وذلك لشدة ارتباطهم به وحـبهم له، وما حدث من عمـر بن الخطاب يومئذ يوضـح ذلك المعنى، فقد روى عـنه أنه قال: «إن رجالا من المنـافقين يزعمـون أن رسول الله توفى. وإن رسول الله ـ والله ـ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربـعين ليلة، ثم رجع بعـد أن قيل قد مات. والله لـيرجعن رسول الله فليـقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن رسول الله مات»![٢].

ثم أقبل أبو بكر ـ وعمر يكلم الناس ـ فـقال أبو بكر : على رِسْلك يا عمر! ثم تكلم أبو بكـر فى المسلمين فـأقبلوا عليه، فقـال بعد أن حمد الله وأثنى علـيه: «أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمدًا فإن مـحمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت» ثم تلا هذه الآية : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴿١٤٤﴾ ﴾[٣]. يقول أبو هريـرة ـ وكان أحد شهود ذلك الـموقف ـ : «فوالله لكأن الـناس لم يعلـموا أن هذه الآية نزلـت على رسول الله ﷺ حـتى تلاها أبـو بكر يومئذ. وأخذها الناس عن أبى بـكر فإنما هى فى أفواههم»[٤]. عندئذ أدرك الجميع أن رسول الله ﷺ قد فارقهم، وكان عليهم أن يواجهوا مسئولية تلك اللحظة الدقيقة فكانوا على مستوى الموقف واجتمعوا على بيعة أبى بكر فى نفس اليوم الذى توفى فيه الرسول ﷺ.

---

(١) نفس المصدر ، صـ ١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٢) تاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٢٠٠ ، وسيرة ابن هشام ، جـ٤ ، صـ ٣٣٤.

(٣) سـيرة ابن هـشام ، جـ٤ ، صـ ٣٣٥، والآية المـذكورة هـى الآية رقم [١٤٤] من سـورة آل عمران.

(٤) نفس المصدر والصفحة ، وتاريخ الطبرى، جـ٣ ، صـ ٢٠١.

صفة رسول الله ﷺ ونبذة عن أخلاقه

كان رسول الله ﷺ ظاهر الوضاءة، أبيض اللون مشربا بحمرة، ليس بالطويل ولا بالقصير فى عينيه دَعَج[1]، وفى لحيته كثافة، حلو المنطق، عريض الصدر والكتف، بعيد ما بين المنكبين، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر، رحب الراحتين، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحطّ من صبَب[2]، وإذا التفت التفت معًا، خافض الطرف، جل نظره الملاحظة[3].

وقد كانت أخلاق الرسول ﷺ انعكاسًا صادقًا لمبادئ الدين الحنيف الذى دعا إليه وناضل فى سبيله، ومن هنا كانت شخصيته مثالا يحتذى أمام المسلمين جميعًا، وهكذا وصفه الله سبحانه حين قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[4].

لقد كان الرسول طوال حياته مثالا **للأمانة والصدق**، وقد رأينا كيف كان يلقَّب قبل البعثة بالأمين، وقد لُقِّب أيضًا بالصادق لأنه ما كذب قط، بل إن كفار قريش شهدوا بذلك حين دعاهم إلى الإسلام وقال لهم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟» فأجابوه: ما جربنا عليك كذبًا!

وكان **العفو** طبيعة متأصلة فى نفس الرسول ﷺ. وقد كان يعفو وهو أقدر ما يكون على العقوبة. لقد عفا عن عتاة المشركين من قريش بعد فتح مكة، وكان بوسعه أن ينتقم منهم أقسى انتقام جزاء كيدهم للإسلام وبغيهم على المسلمين، ولكنه قال لهم تلك الكلمة الباقية: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»! وتصفه عائشة بقولها: «ما نيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه إلا أن يُنتهك شىء من محارم الله فينتقم لله عز وجل»[5].

وكان ﷺ **ليِّن العريكة رحب الصدر**، ويروى فى هذا السياق أن الرسول ﷺ قال للناس فى مرض موته: «أيها الناس، من خشى من نفسه شيئًا فليقم أدْعُ له».فقام رجل فقال: يا رسول الله، إنى لكذاب وإنىّ لمنافق، وما شىء إلا وقد جنيته! فقال له عمر بن الخطاب: فضحت نفسك أيها الرجل! فقال ﷺ: «يابن الخطاب، فُضوح

---

(١) الدَّعَج شدة سواد العين مع سعتها، وعين دعجاء.

(٢) الصَّبَب ما انحدر من الأرض.

(٣) تاريخ اليعقوبى، جـ٢ صـ ١١٦.

(٤) سورة الأحزاب: [٢١].

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى، جـ١٥، صـ ٨٤ ـ ٨٥.



الدنيا أهون من فُضوح الآخرة! اللهم ارزقه صدقًا وإيمانًا وصيِّر أمره إلى خير»[1]. ولو لم يكن الرسول ﷺ بهذا القدر من اللين والسماحة وسعة الصدر لأعرض الناس عن دعوته. وقد سجل القرآن الكريم هذا الجانب فى شخصيته فى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[2].

أما **العدل** فقد كان ﷺ نموذجًا متكاملاً له، وكثيرة هى الأمثلة التى يمكن أن تقدم فى هذا السياق، فمن ذلك ما يروى من أنه خرج فى مرض موته إلى المسجد فقال للناس: «من كنت جلدتُ له ظهرًا فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضى فليستقد منه، ألا وإن الشحناء ليست من طبعى ولا من شأنى، ألا وإن أحبكم إلىّ من أخذ منى حقًا إن كان له، أو حلَّلنى فلقيت الله وأنا طيب النفس..»[3].

وقد كان **زاهدًا** فى حطام الدنيا رغم ما أتيح له من كل أسباب الوفرة والثراء.. دخل عليه عمر بن الخطاب يومًا وهو على حصير قد أثر فى جنبه فقال: يا نبى الله، لو اتخذت فراشًا أوثر من هذا! فقال: «مالى وللدنيا! ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها»[4].

وكان **أجود الناس** كما يروى ابن عباس، «وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلَرسولُ الله أجود بالخير من الريح المرسلة»، وهو القائل: «ما من يوم تصبح العباد فيه إلا وملكان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفا»[5].

وكان **جمَّ التواضع رقيق المعاملة** لخدمه وأهل بيته، جاءه رجل فقال له: يا سيدنا وابن سيدنا! فقال ﷺ: «لا يستهوينكم الشيطان. أنا محمد بن عبدالله ورسوله. والله ما أحب أن ترفعونى فوق ما رفعنى الله»! وفى صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب أن الرسول ﷺ قال: «لا تُطْرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد،

---

(١) تاريخ الطبرى، جـ٣، صـ ١٩٠.
(٢) سورة آل عمران: [١٥٩].
(٣) تاريخ الطبرى، جـ٣، صـ ١٨٩ ـ ١٩٠.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٥، صـ ٢٤٧.
(٥) نفس المصدر، صـ ٤٤ ـ ٤٥.



فقولوا عبدالله ورسوله»[١]. وكان الرسول لا يحب أن يقوم له أصـحابه ، وكان أصحابه إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهيته لذلك[٢]. وقد طالت خدمة أنس بن مالك للرسول ﷺ فكانت معاملته له غـايةً فى التواضع والرقة. يقول أنس: «كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقًا، فأرسلنى يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفى نفسى أن أذهب لما أمرنى به نبـى الله ﷺ ، فخرجت حتى أمر على صبيـان وهم يلعبون فى السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفـاى من ورائى.. فنظرت إليه وهو يضحك ، فقـال: يا أُنَيْسُ، أذهبتَ حـيث أمرتك؟.. قلـت: نعم أنا أذهب يا رسـول الله . قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين ما علمتـه قال لشىء صنعته : لم فعلتَ كذا وكذا؟! ولا لشىء تركتُه: هلا فعلت كذا وكذا؟! [٣]. وقد سئلت عائشة: كيف كان رسول الله ﷺ فى أهله؟ فقالت: «كان ألين الناس وأكرم الناس، وكان ضحاكًا بسَّامًا»[٤]. وسئلت أيضًا: هـل كان رسول الله ﷺ يعـمل فى بيتـه؟ فقالت: «نـعم ، كان يخصـف نعله ويخيط ثوبه..»[٥].

وكان من خلقه **الوفاء والعرفان بالجميل** ورده إلى أهله، وبلغ فـى ذلك غاية لا تدانى، وقد رأينا كيف ظل مخلصًا لذكرى خديجة طوال حياته ، ولم ينس لها مواقفها العظيمة معه قبل البعثة وبعدها.. وكيف غضب من عائشة عندما قالت له: «قد أبدلك الله خيرًا منها» وأنكر عليها قولها. وكان موقفه من أبى بكر تعبيرًا عن روح الوفاء عنده وحفظ الجميل لأهله، وهو القائل فى مرض موته: «لو كنت متخذًا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكنْ صحبةٌ وإخاءٌ إيمانٍ حتى يجمع الله بيننا عنده».

وكان **مضرب المثل فى الشجاعة والثبات عند الشدائد** ، يروى عن على بن أبى طالب أنه قال: لـما كان يوم بدر اتقينا الـمشركين برسول الله ﷺ ، وكـان أشد الناس بأسًا»[٦]. وقد تقدم فى غزوة حنـين أنه لما فر جمهور أصحابه ثـبت فى مكانه كالطود فى نفر قليل من أصحابه ، وعندما رأى المسلمـون المنهزمون ما عليه رسولهم من قوة

---

(١) نفس المصدر، صـ ٥٩.

(٢) نفس المصدر ، صـ ٤٦.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٥ ، صـ ٧٠ ـ ٧١.

(٤) البداية والنهاية ، جـ٦ ، صـ ٤٦.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

(٦) نفس المصدر ، صـ ٣٩.



وثبات رجعوا فحملوا على المشركين ، فكانت لهم الكرة عليهم، وكان ذلك بفضل شجاعة القائد ورباطة جأشه[1].

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نتقصى جميع جوانب العظمة فى شخصية الرسول ﷺ ، ولكننا نقتبس هنا تلك الكلمات البليغة المركزة التى قالها على بن أبى طالب فى وصف أخلاق الرسول ﷺ حيث ذكر أنه كان «أجرأ الناس صدرًا، وأجود الناس كفًا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس بذمة ، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبَّه»! وصدق الله العظيم إذ يقول وهو يُجْمِل كل الجوانب الخلقية فى رسوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[2].



(1) البلاذرى: أنساب الأشراف، جـ1 ، صـ 392.
(2) سورة القلم: [4].



أولا : العربية والمترجمة

آرمسترونج (كارين)

- سيرة النبى محمد . ترجمة د. فاطمة نصر . ود. محمد عنانى . كتاب سطور (١) . القاهرة ١٩٩٨م.

ابن الأثير (عز الدين على بن محمد)

- أُسْدُ الغابة فى معرفة الصحابة. دار الشعب . القاهرة ١٩٧٠م.
- الكامل فى التاريخ. دار صادر بيروت. ١٩٧٩ - ١٩٨٢م.
- اللباب فى تهذيب الأنساب. دار صادر . بيروت ١٩٨٠م.

الأصفهانى (أبو الفرج على بن الحسين)

- الأغانى . الأجزاء من ١ إلى ١٦ : نشر المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٣م . والأجزاء من ١٧ إلى ٢٢ : نشر الهيئة العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٣م.

الأصفهانى (أبو نعيم أحمد بن عبد الله)

- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. دار الكتب العلمية ، بيروت (بدون تاريخ).

أمين (الدكتور أحمد)

- فجر الإسلام . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٥٩م

البخارى (محمد بن إسماعيل)

- صحيح البخارى. دار الشعب . القاهرة (بدون تاريخ).

البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر)

- أنساب الأشراف. الجزء الأول. بتحقيق الدكتور محمد حميد الله. دار المعارف. القاهرة ١٩٨٧ .
- فتوح البلدان. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٩١م.



بول (Fr. Buhl)

- مادة «بُعاث» فـى دائرة المعارف الإسلاميـة . الطبعة العربـية . الجزء السابع . دار الشعب. القاهرة (بدون تاريخ).

بول (Fr . Buhl) وعرفان شهيد

- مادة «الحيـرة» فى دائرة المعارف الإسلامـية . الطبعة العربـية. الجزء السادس عشر. دار الشعب . القاهرة (بدون تاريخ).

بيستون (A.F.L.Beeston)

- مادة «أبرهة» فى دائـرة المعارف الإسلاميـة . الطبعة العربـية . الجزء الأول . دار الشعب . القاهرة (بدون تاريخ).

جواد على

- المفصل فى تاريخ العرب قبـل الإسلام. دار العلم للملايين. بيروت، ومكتبة النهضة ببغداد : ١٩٨٠م.

ابن حبيب (أبو جعفر محمد)

- المحبَّر. حيدرآباد الدكن ١٩٤٢م.
- المنمق فـى أخبار قريش. بتـحقيق خورشـيد أحمد فاروق. حـيدرآباد الدكن ١٩٦٤م.

ابن حجر (أحمد بن على العسقلانى)

- الإصابـة فى تمـيز الصحـابة . دار الكتـاب العربى . بيـروت (بدون تاريخ).

ابن حزم (على بن أحمد بن سعيد)

- جمهرة أنساب العرب. دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٨٣م.

حسان بن ثابت

- ديوان حسان بن ثابت الأنصارى. شرح وتعلـيق عبدالرحمن البرقوقى. دار الكتاب العربى. بيروت ١٩٩٠م.



الحلبى (على بن برهان الدين)

- إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون (الشهير بالسيرة الحلبية) . نشر مصطفى البابى الحلبى. القاهرة ١٩٦٤م.

حميد الله (الدكتور محمد)

- مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة. مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة (بدون تاريخ).

الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى بن العماد)

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب. دار الكتب العلمية. بيروت (بدون تاريخ).

الخزاعى التلمسانى (أبو الحسن على بن محمد)

- كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. لجنة إحياء التراث الإسلامى. القاهرة . ١٩٩٥م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (الشهير بتاريخ ابن خلدون) . دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٩٢م.

ركِنْدورْف (Reckendorf)

- مادة «الأرقم» فى دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة العربية. الجزء الثالث. دار الشعب . القاهرة (بدون تاريخ).

الزمخشري (محمود بن عمر)

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل. دار الريان للتراث. القاهرة ١٩٨٧م.

الزيات (أحمد حسن)

- تاريخ الأدب العربى. دار نهضة مصر للطباعة والنشر. الطبعة الرابعة والعشرون. القاهرة (بدون تاريخ).



سالم (عبد الرحمن)

- قراءة نقدية في كتابات مونتجومرى وات فى السيرة النبوية. بحث منشور فى مجلة المسلم المعاصر ، العدد ٨٢ . نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٦ - يناير ١٩٩٧م.
- كتاب سيرة النبى محمد للمستشرقة البريطانية كارين آرمسترونج . ترجمة الدكتورة فاطمة نصر والدكتور محمد عنانى (عرض ودراسة) : مقال منشور فى مجلة كلية دار العلوم . العدد ٢٣ . يونيه ١٩٩٨م.
- المسلمون والروم في عصر النبوة . دار الفكر العربى. القاهرة ١٩٩٧م.

السهيلى (عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد)

- الروض الأُنُف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٩٧م.

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن)

- تاريخ الخلفاء، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر العربى. القاهرة ١٩٨٨م.

شلبى (الدكتور أحمد)

- التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية . الجزء الأول. مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٦٤م.

الخضرى (محمد)

- نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين. دار نهر النيل للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة (بدون تاريخ).

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير)

- تاريخ الرسل والملوك (الشهير بتاريخ الطبرى) . بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٩م.



ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبدالله)

- فتوح مصر وأخبارها. بتحقيق تشارلزتورى . نيوهافن ١٩٢٢م.

العقاد (الأستاذ عباس محمود)

- مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية. المكتبة العصرية . بيروت (بدون تاريخ).

على (محمد كرد)

- خطط الشام . دار العلم للملايين .بيروت ١٩٦٩م.

ابن قتيبة (عبدالله بن مسلم)

- المعارف . بتحقيق الدكتور ثروت عكاشة . الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٢م.

القلقشندى (أحمد بن على)

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٣م.

ابن القيم (محمد بن قيم الجوزية)

- زاد المعاد فى هدى خير العباد . مكتبة مصطفى البابى الحلبى. القاهرة ١٩٥٠م.

الكتبى (محمد بن شاكر بن أحمد)

- عيون التواريخ. الجزء الأول. تحقيق حسام الدين القدسى. مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٨٠م.

المسعودى (على بن الحسين)

- مروج الذهب ومعادن الجوهر. بتحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة ١٩٤٨ م.



مسلم (أبو الحسين بن الحجاج)

- صحيح مسلم بشرح النووى. دار الريان للتراث. القاهرة ١٩٨٧م.

ابن منظور (محمد بن مكرم بن على)

- لسان العرب. دار المعارف . القاهرة ١٩٧٩م.

مؤنس (د. حسين)

- أطلس تاريخ الإسلام . الزهراء للإعلام العربى. القاهرة ١٩٨٧م.

نولدكه (تيودور)

- أمراء غسان ، ترجمة الدكتور بندلى جوزى والدكتور قسطنطين زريق . بيروت ١٩٣٣ .

ابن هشام (عبد الملك)

- سيرة النبى ﷺ (الشهيرة بسيرة ابن هشام) . يتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. دار الهداية . القاهرة (بدون تاريخ).

هيكل (الدكتور محمد حسين)

- حياة محمد ، دار المعارف . القاهرة ١٩٨١م.

الواقدى (محمد بن عمر بن واقد)

- المغازى . بتحقيق الدكتور مارسدن جونس . عالم الكتب. بيروت ١٩٨٤م.

ياقوت (شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموى)

- معجم البلدان. بتحقيق فريد عبد العزيز الجندى. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٩٠م.

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر)

- تاريخ اليعقوبى. دار صادر . بيروت ١٩٩٢م.



ثانيا : المراجع الأجنبية:

Ali (S.A Meer):

A Short History of the Saracens . London ,1961.

Brockelmann (V.)

History of the Islamic Peoples . London and Henley,1980.

Glubb (J.B.) :

The Great Arab Conquests . London, 1963.

Grunebaum (G.E. Von)

Classical Islam . London, 1970.

Hitti (Ph. K.)

History of the Arabs . London , 1970.

O`Leary (De Lacy)

History of Arabia Before Muhammad . Lahore, 1989.

Trimingham (J. S.)

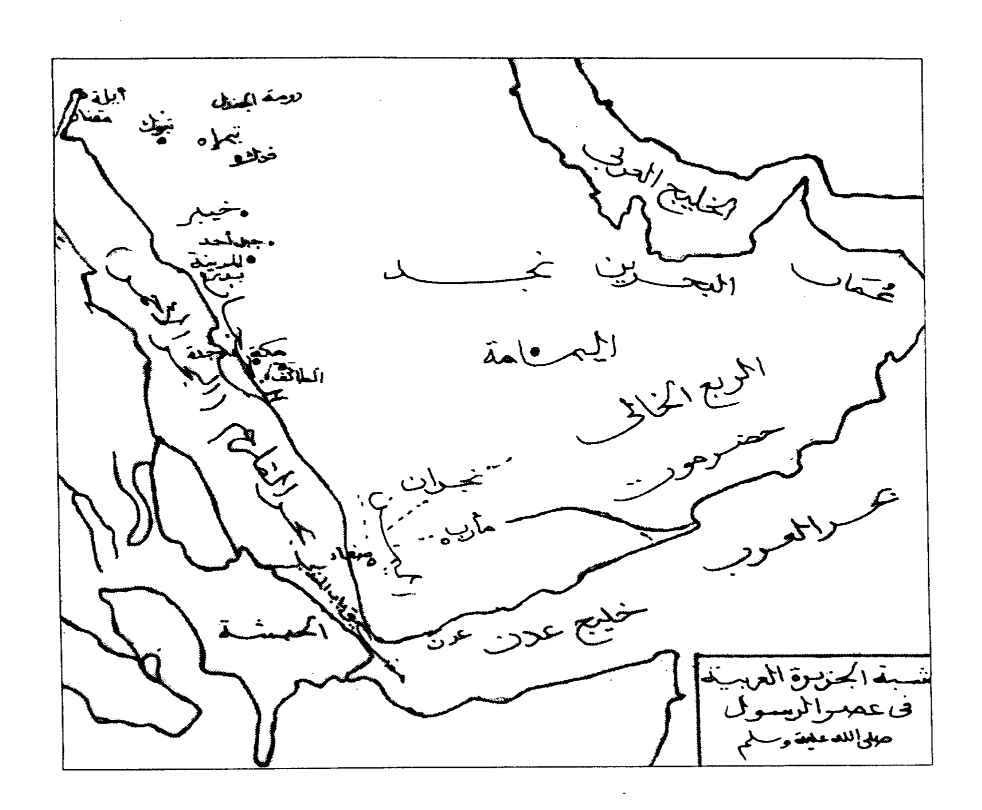
Christianity among the Arabs in Pre - Islamic Times .
Librairie du Liban , 1979.

Watt (W.M.)

Muhammad at Mecca . Oxford , 1953.
Muhammad at Medina . Oxford , 1956.
Muhammad : Prophet and Statesman, Oxford 1961.







رقم الإيداع	٧٦٨٩ / ٩٩
الرقم الدولى I. S. B. N	٩٧٧ - ١٠ - ١٢٦٠ - ٦